أبو الحسن علي الحسني الندوي

في مسيرة الحياة

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

في مسيرة الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد: فلم يكن يخطر لي ببالٍ بعدما انتهيت من تأليف المجلد الثاني لكتابي «في مسيرة الحياة» ـ بالأردية ـ الذي اختتمته بوقائع عام ١٩٨٣ م وأحداثه، أنه سيعقبه المجلد الثالث منه، ولكن بعد أن قام العزيز سلمان الحسيني الندوي بترجمة المجلدين من الكتاب إلى العربية وجمع موادهما في كتاب واحد، وبعثتُ به للطباعة والنشر إلى الأستاذ محمد علي دولة صاحب «دار القلم» بدمشق، وتحلّى الكتاب بالطباعة على مستوى عالٍ راقٍ بعنوان «في مسيرة الحياة»، في شهر شعبان عام ١٤٠٧ هـ «الموافق مايو ١٩٨٧ م»، إذا بالناشر الفاضل الأستاذ محمد علي دولة، والمؤلف، اطّلعا على أنه طُبع على غلاف الكتاب ـ خطأً ـ رقم الجزء (١)، ولعل الناشر الفاضل كان يتوقع صدور المجلد الثالث بالأردية، الذي سيُطبَع مجلداً ثانياً بالعربية، وقد اعتذر الأستاذ محمد علي دولة إلى المؤلف لهذا الخطأ، مع إبداء رغبته في إكمال هذه السلسلة ووضع المجلد الثالث بالأردية، الذي يلي المجلد الأول بالعربية، لأن ذلك يوهم القرّاء بأن الكتاب ناقص، لم تستكمل أجزاؤه، ويبقى المقتنون للمجلد الأول في انتظار للمجلد الثاني.

هذا وقد جدّت ـ في هذه الفترة ـ في حياة المؤلف وفي نطاق هذه البلاد (الهند) وحياة المسلمين فيها أحداث مهمة، ومواقف خطيرة، ووقائع

تستحقُّ التسجيل وكتابة مذكّرات فيها، وحفظها في مستودع التاريخ، ورأيت ذلك عملاً مفيداً، وضرورة أكيدة، لا سيما وقد بُذلت في هذه الفترة جهودٌ جبّارة، وقامت حركة شعبية مجلجلة في مسلمي الهند للدفاع عن قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين والحفاظ عليها، ومعارضة حكم المحكمة العليا الذي كان تدخّلاً صريحاً في أمور الدين وهتكاً لحرمة القوانين الشرعية، لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأمة الإسلامية الهندية في سعتها وعمومها، وقوتها وتأثيرها، وخطرها ودقّتها، ويُخشى أنه بعد مُضيّ فترة من الزمن يصعب الوصول إلى المعلومات الصحيحة عنها، والتفصيلات الضرورية المتعلقة بها، كما يتعسّر التوصل إلى المعلومات الصحيحة الكافية، والتسجيل الدقيق للجهود التي بذلت في معالجة مختلف قضايا الأمة الإسلامية في مختلف مدن الهند الرئيسية، وما جرى من المناقشات والحوار حول الأوضاع الطائفية الشاذّة، وضرورة التعايش السلمي والتفاهم فيما بين المسلمين وغيرهم، وإنصاف بعضهم للبعض، واحترام الإنسانية، وقد جدّت في هذه الفترة للمؤلف أحداث، وقُدّر له أن يقوم برحلات طويلة مفيدة إلى الخارج ـ لا سيما إلى بعض البلدان الإسلامية ـ لا يمكن التغاضي عنها.

كان كُلُّ ذلك من الدوافع المجدّدة إلى تأليف المجلد الثالث للكتاب بالأردية، الذي سيُقدّم إلى القُرّاء العرب كجزء ثان لترجمته العربية المعنونة بـ «في مسيرة الحياة».

والله تعالى هو المسؤول أن يجعله ـ رغم أنه تمَّ تأليفه في زمن انحراف الصحة وفترة النقاهة وفي شهر رمضان وهي فترة غير عادية وغير ملائمة لعمل التأليف ـ ممتعاً مفيداً، حقيقاً بأن يأخذ مكانه في الأدب الإسلامي السليم الصالح الهادف، وما ذلك على الله بعزيز.

١٩ من جُمادى الأولى سنة ١٤٠٩ هـ — أبو الحسن علي الحسني الندوي
٢٩ من ديسمبر ١٩٨٨ م

الفصل الأوّل

رحلة إلى عَمّان (شرقي الأردن) والحجاز، واليمن. خطب ومحاضرات في احتفالات ونَدَوات موقّرة، مشاهد وانطباعات عن اليمن

استهلال هذا المجلّد من كتابي «في مسيرة الحياة» وجوازه:

لقد كان الجزء الأول من كتابي «في مسيرة الحياة» قد انتهى على مذكرات رحلتي إلى الإمارات والكويت، التي بدأت في ١٥/من نوفمبر ١٩٨٣ م، وانتهت إلى ١١/من ديسمبر ١٩٨٣ م، وكان في النفس شكّ كبير بعد ذلك في أن رَكْب الحياة يواصل مسيرته، والحياة فيها بقية، نظراً إلى ما ينتابني من أمراض وما أعانيه من تعب وإرهاق، وقد بلغت صفحات الجزء الأول ٤٦٤، فوقفت لذلك قلمي هناك.

ولكن الله تعالى أنعم على المؤلف بعد ذلك بأربع سنوات، ووقعت في هذه الفترة التاريخية القصيرة رحلات عديدة وأحداث خطيرة في العالم الإسلامي لها أهميتها التاريخية، وجدّت قضايا كبيرة كانت محنة عظيمة للأمة الإسلامية الهندية، كانت لها علاقة مباشرة بالمؤلف، كما حصلت له فرص ثمينة لحضور مناسبات واحتفالات خارج الهند تبقى أحداثها وذكرياتها أمانة في عنق التاريخ، وثروة زاخرة بالمعلومات والعِبَر للنَّشء الإسلامي، والجيل القادم، وليستعين المؤرخ بكل ذلك في كتابة تاريخ هذا العهد في مستقبل

الأيام، كان هذا هو الذي حدا بي أن أجدّف سفينة ذكرياتي - إذا لم أقل حياتي - قائلاً: ﴿ بسم الله مجريها ومُرْساها، إنَّ ربّي لغفورٌ رحيم ﴾.

رحلة تاريخية إلى شرق الأردن واليمن:

لقد كان كاتب هذه السطور منذ سنين عضواً في المؤسّسة العلمية للبحث والتأليف والتحقيق الملقّبة بمؤسّسة آل البيت، التي يعطف عليها وليّ عهد المملكة الأردنية الهاشمية الموقَّر، سموّ الأمير حسن بن طلال، وله اهتمام خاص بها وصلة قوية، وكانت ترد إليّ منذ سنين بطاقة الدعوة من المؤسسة للحضور إلى مؤتمراتها السنوية، وخطابات من الأمير حسن يبدي فيها رغبته الخاصة في حضوري، ولكنني لم أتمكن إلى ذلك الحين من الاستجابة لهذه الدعوة الكريمة وحضور مؤتمراتها السنوية، وجاءتني أخيراً دعوة مؤكدة في أواخر مارس أو أوائل أبريل عام ١٩٨٤ م وخطابات أخرى تحثّ على الحضور.

وأُعلِمتُ بأن مجمع بحوث الحضارة الإسلامية - وهو قسم مهم من أقسام المؤسّسة - سوف يعقد مؤتمره السنوي في عمّان بتاريخ ٢٥ - ٢٩ أبريل ١٩٨٤ م، تُقدَّم فيه البحوث في الحضارة والمدنية الإسلامية والأدوار التاريخية التي مرّت بها مختلف بلدان العالم الإسلامي في ما يتّصل بالحضارة الإسلامية، والمآثر العلمية التحقيقية التي تحقّقت فيها، وتجري المناقشة حولها.

واستحييت من الاعتذار كل مرة، لا سيّما بعد رغبة سموّ الأمير حسن الكريمة المُلحّة الذي وجَّه إليّ الخطابات الشخصية عدة مرات، وأبدى رغبته في حضوري، فعقدت العزم على السفر إلى عمّان، وكتبت إلى المسؤولين في المؤسّسة بذلك، وأعددت محاضرة لتقديمها هناك، كانت تتعلق بالثقافة الإسلامية والمدنية الإسلامية في الهند، وخدمات المسلمين ومآثرهم الجليلة ومزاياهم وخصائصهم في ذلك.

واخترت لمرافقتي في السفر ابن أختي العزيز الأستاذ محمد واضح رشيد الندوي أستاذ الأدب والتاريخ بدار العلوم التابعة لندوة العلماء، ورئيس

تحرير جريدة «الرائد»، الذي كنت أتوقّع أن أنال منه من المساعدة ما تيسّر مهمّتي في المساهمة في ندواتها واحتفالاتها، ولقاءاتي بالعلماء والأدباء والصحفيّين والكتّاب، وتبادل الآراء معهم في القضايا العلمية والأدبية. وقد أعانني ـ دائماً ـ بقلمه السيّال في إبداء الآراء والمقابلات الصحفية، وعادةً يحضر في هذا المؤتمر عدد كبير من كبار رجال العلم والأدب، والشخصيات المرموقة العلمية والأدبية في العالم الإسلامي (لتسهيلات السفر وأريحية المملكة الهاشمية واهتمامها الخاص في استقبال الضيوف والقيام بما يلزم نحوهم)، وتتحقّق عن طريق ذلك فرصة اللقاء بممثّلي مختلف المدارس الفكرية، وقادة الرأي، وكبار العلماء والأدباء في العالم العربي، وقد كنت عزمت في رحلتي هذه على أن أضمّ إليها رحلتي إلى الحجاز واليمن، فقد كنت تلقّيت دعوة من اليمن من سابق، أما الحجاز فلأداء العمرة والزيارة، ولأن الرحلة إلى صنعاء ميسّرة من هناك نسبيّاً.

في عَمّان:

سافرنا من دلهي في ٢٣/أبريل ١٩٨٤ م على متن طائرة (B.O.A.C.) إلى الكويت، ومكثت بها يوماً عند بعض أقربائي[1]، ثم سافرنا في اليوم التالي ٢٤/أبريل بطائرة الخطوط الكويتية إلى عمّان، وكان في مطار المملكة «عاليّة» بعمّان الأستاذ «فاروق جرّار» نائب رئيس المؤسسة في استقبالنا، ورأينا عدداً من أصدقائنا وأحبابنا في المطار، وكنت سافرت قبل ذلك إلى عمّان ثلاث مرات، تقدم ذكرها في مواضعها في الجزء الأول من هذا الكتاب، وكنت قابلت الملك عبد الله بن الشريف حسين جدّ الملك حسين عاهل المملكة الهاشمية الأردنية، وجدَّ ولي العهد الحالي للمملكة الأردنية الأمير حسن مرّتين عام ١٩٥١ م عند عودتنا من القدس الشريف، كما تقدم ذكره في جزء «في مسيرة الحياة» الأول، وكان لي لقاء بالملك حسين في أغسطس عام ١٩٧٣ م بمناسبة زيارة وفد الرَّابطة للمملكة، وقد أكرم وفادتي واستقبلني بحفاوة.

(١) إشارة إلى السيد إبراهيم الحسني الندوي، والسيد أحمد علي الحسني الندوي اللذين هما من أعضاء الأسرة الأعزّاء.

فــي المــؤتمــر:

نزلنا في عَمّان في أفخم فنادق العـاصمة ريجنسي بـالاس (REGEN-CY PALACE) مع ضيوف المؤتمر الآخرين، ويتكوّن الفندق من ٢٠ طابقاً، ويقوم على تلّ كبير، ويمكن أن تلقي منه نظرة على مدينة عمّان كلها.

بدأ المؤتمر بتاريخ ٢٥/أبـريل ١٩٨٤ م، وقـد حضره كبـار رجال العلم والأدب المعـروفين، والعلماء والبـاحثين المحققين في عدد كبيـر، وكـان قـد شـارك في هذا المؤتمر ممثلون من ٣٢ بلداً من كبار المفكـرين الإسلاميين، كان فيهم وفد من علماء موسكو يرأسه فضيلة الشيخ شرف الدين بـابا خـانوف ابن الشيخ ضياء الـدين بابـا خانـوف رئيس الشؤون الدينيـة رحمه الله، وكـان يشـارك فيه عـدا هؤلاء المندوبين عـدد من سفـراء الـدول المختلفـة، وأفـراد الأسرة الملكية، وأعيان البلد ووجهائه.

وقـد نوّه بي الأميـر حسن في خطاب التـرحيب الذي افتتـح به المؤتمر بصفة خاصة، وأبدى سروره واغتباطه بمقدمي، وشكـرته بـدوري على كلمته هذه التي أشاد بي فيها، وقلتُ إنني أعتبر الأردن خطّ الـدفاع الأخيـر والربـاط الحسّاس الخطير للعالم الإسـلامي الذي لـه حق كبير على كـل مسلم، وهذا هـو الشعور الـذي حملني - رغم ضعف صحتي وكثـرة شـواغلي - على هـذا السفر وحضور المؤتمر.

المسلمون في الهند ودورهم التاريخي:

وكنت قد قدّمت بحثي إلى سكرتاريـة المؤسسة، ولكني على طلب من الأميـر حسن، ألقيت كلمـة مـرتجلة استعـرضت فيهـا ملخّصـاً مـوجـزاً للمـدّ الإسلامي في الهند، وذكـرت كيف استطاع المسلمـون في الهند أن يحـافظوا على شخصيتهم الإسلامية، وخصـائصهم الملّيَّة، مـع ما أسـدَوا من خدمـات وحسنات لهذه البـلاد، وأشرت أيضـاً إلى صلاتهم القـوية واهتمـامهم البالـغ باللغة العربية وآدابها وعلومها، وأسباب هذا الاهتمـام ودوافعه، وفي مقـدّمتها حبّ الـرسول - ﷺ -، والصلة القـوية المتينـة بالحـرمين الشريفين، وغَيْـرتهم

على الدين، وحميتهم للإسلام، وقد ذكرت بهذا الصدد تلك الوصية الحكيمة التي أوصى بها الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦ هـ) مسلمي الهند، أن يبقوا على اتصال دائم مستمرّ بالحرمين الشريفين وعلى عهد متصل بزيارتهما، للحفاظ على شخصيتهم الإسلامية، ويعتنوا باللغة العربية وآدابها وعلومها وقواعدها وتعليمها اعتناءً خاصاً، يقول في رسالته المسماة بـ «المقالة الوضيئة في الوصية والنصيحة»:

(نحن رجال غرباء، هاجر آباؤنا إلى الهند، وإن عربيّة النسب وعربيّة اللسان مفخرتان لنا، وهي التي تقربنا إلى سيّد الأوّلين والآخرين، وأفضل الأنبياء والمرسلين، ومفخرة الوجود صلى الله عليه وآله وسلم، السعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب، والصرف والنحو، وكتب الأدب، واطّلع على الحديث، والقرآن، ولا بدّ لنا من حضور الحرمين الشريفين وتعلق القلب بهما، وفي ذلك سرّ سعادتنا، والشقيّ من أعرض عنهما)[1].

ونوّهت بمؤلفات سيّدي الوالد العلامة السيد عبد الحي الحسني باللغة العربية التي تتناول تاريخ الهند الإسلامية من شتى نواحيه، وقد ظهر منها ما يشتمل على تاريخ العلوم والثقافة الإسلامية وتطوّرهما في شبه القارة الهندية على مدّ القرون، وفهرسة مؤلفات علماء الهند باسم «الثقافة الإسلامية في الهند» نشره المجمع العلمي العربي[2]، وصدرت له الطبعة الثانية قريباً.

خطاب الأمير حسن العلمي حول
قضيّة فلسطين، وبيت المقدس:

وقد كانت لقضية المسجد الأقصى والقدس الشريف وفلسطين، والبحث في أسباب استعادتها ووسائلها، المكانة الأولى في العناية والدراسة في بحوث المؤتمر وأحاديثه بطبيعة الحال، علاوة على البحوث العلمية حول

(١) المقالة الوضيئة في الوصيّة والنصيحة، طبع دهلي ١٩٦٧ م.
(٢) مجمع اللغة العربية بدمشق حالياً.

مواضيع الحضارة والمدنية الإسلامية وخصائصها ودورها التاريخي، ورقيّها وازدهارها، وسقوطها وانحطاطها، ومظاهرها ومراكزها، فقد كان ذلك أمراً طبيعياً بل فريضة دينية وخلقية لقرب المسجد الأقصى والقدس الشريف وصلتهما الجغرافية، ومسؤولية شرق الأردن الخاصة في ما يتصل بمستقبلهما، وسبب اجتماع العلماء والقادة العرب في هذا العدد الكبير، زِدْ إلى ذلك قيام المؤتمر في شهر رجب ـ الذي هو شهر الإسراء والمعراج، وكان أول منازله المسجد الأقصى ـ وخصّص يوم ٢٧ من رجب كله لهذه القضية.

وقد افتتح الأمير حسن نفسه هذا الموضوع، وألقى ضوءً كاشفاً على مختلف جوانبه وخلفيّاته التاريخية، والقضايا والأخطار المعقّدة الدقيقة للعالم الإسلامي والعالم العربي، التي تنشأ بسبب وجود دولة إسرائيل، وقد قدَّمَ على أساس الخرائط التي أُعدّت خصيصاً لهذه المناسبة إحصائيات تفصيلية تتطلّب من جميع المعنيّين بهذه القضية ومن المسلمين في العالم كله، تفكيراً وبحثاً، وتبعث على القلق والاهتمام، وكانت هذه الجلسة في قاعة البتراء، وقد استمع إليه الجمع بآذان صاغية وقلوب واعية، وأُعجبوا بالدراسة العميقة والمعلومات الواسعة التي احتواها خطاب سموّ ولي العهد.

الشخصيّة المنتظرة:

ورأيت من الضروري بعد خطاب الأمير حسن أن أقول شيئاً، وكانت خلاصة ما قلت وجوهره:

إنّ هناك شواهد مستمرة في التاريخ الإنساني ـ وفي التاريخ الإسلامي بصفة خاصة ـ، أن الحقيقة الحاسمة المغيّرة لمقادير الشعوب ومصاير الأمم، ليست هي القوة التي تعمل على تغيير خريطة البلاد السياسية، وخطط الحرب الاستراتيجية، والعَدد والعُدد، والقلة والكثرة، والأوضاع الغالبة القاهرة، بل إن القوة التي تحدث الثورة والانقلاب، وتجعل المستحيل ممكناً، هي تلك الشخصية التي تمتلىء عزيمة خارقة للعادة، وإيماناً صادقاً، متهيّئة لتغيير الأوضاع وقلبها رأساً على عقب، ومقدمة في سبيل ذلك كل تضحية وإيثار،

والتي لا يقرّ لها قرار، ولا يهدأ لها بال في ركوب المخاطر وخوض المغامرات والبطولات، ويشهد التاريخ أنه لا تغني عند ذلك هذه الإحصائيات المحبوكة الدقيقة، وتذوب جبال المشكلات والصعوبات والمخالفات والمعارضات كما يذوب الثلج أو تذوب الشمعة، وتطلع شمس النصر والفتح المبين وهاجة تقشع ضباب البرد، وتقطع حجاب الظلمة وتخطف بالأبصار، وهذا هو الدرس الذي نتلقّاه من الحروب الصليبية، وتلك هي العبرة في حياة صلاح الدين الأيوبي، وقد أشار العلامة محمد إقبال إلى هذه الحقيقة بأسلوبه الخاص في بيتين من شعره، يقول فيهما:

(إذا كان أحد هناك يناضل مثل «الكليم»[1]، فإنه لا يزال يأتيه نداء: «لا تخف» من شجرة الوادي الأيمن، لقد انكشف عليّ بصحبة الشيخ الرومي هذا السرّ الدقيق، إن «كليماً» واحداً مستميتاً فوق مائة ألف فيلسوف حكيم).

وخلاصة الحديث وروحه؛ أن المسألة ليست مسألة الإحصائيات، فإنّ الإحصائيات تتغيّر، إن المسألة الحقيقية هي وجود الرجل المختار، الرجل الذي يملك عزيمة وإيماناً، واعتزازاً بالدين، وإرادة قوية صارحة لتغيير الوضع مهما كان مدعَّماً بالحقائق والإحصائيات، رجل كصلاح الدين الأيوبي.

وأحمد الله تعالى على أن هذا الخطاب أشجى القلوب، فكم من قلوب هاجت، وكم من عيون دمعت.

شواغل عمّان وخطب ومحاضرات:

أقمنا بالأردن ثمانية أيام، وكان موضوع الخطب والمحاضرات الرئيسي لشهود شهر رجب، الإسراء والمعراج، ومعانيهما ونكتهما وأغراضهما البعيدة ونتائجهما الجليلة، وكانت هذه الخطب تشتمل على إشارات واضحة إلى انتقال الإمامة والقيادة، ومنصب الإرشاد والهداية، من بني إسرائيل إلى

(١) إشارة إلى موسى كليم الله تعالى.

المسلمين، وإعلان إمامة سيدنا محمد ﷺ للشعوب والأمم، وأمة خاتم النبيين، وما تمتاز به هذه الأمة الإسلامية من مكانة عالمية ومسؤولية قيادية.

وكان لي خطاب طويل في يوم ٢٧ رجب في مسجد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالزرقاء، حضره جمع كبير لخصوص تلك الليلة المباركة، واكتظّ المسجد على سعته، ووقف الناس في الخارج إلى ساحة بعيدة.

وكانت المحاضرة الثانية في قاعة جامعة اليرموك[1] (YARMOOK UNIVERSITY) بإربد يوم ٢٩ من رجب، دعوت فيها الإخوة المسلمين - وقد ذكرت معركة اليرموك الحاسمة - إلى أخذ الدروس منها، وإيجاد الشخصية الإيمانية المميّزة التي كانت السرّ الحقيقي وراء كل المكاسب والفتوح والانتصارات.

وقد ذكر المحاضر في هذا الصدد ما يمتاز به المسلمون في شبه القارة الهندية من صلة وجدانية قوية بهذه الأماكن التاريخية والمعارك الإسلامية وساعاتها وميادينها، وقلت: إنني لما دُعيتُ لإلقاء المحاضرات في كليّة الشريعة التابعة لجامعة دمشق، وذلك سنة ١٩٥٦ م، والفضل في ذلك لفقيد العلم والدعوة مرشد الإخوان المسلمين في سوريا صديقنا الجليل الدكتور مصطفى السباعي عليه رحمة الله، وقد نزّلني الدكتور مصطفى السباعي عميد الكلية إذ ذاك في فندق اليرموك، وكتبت رسالة إلى أحد المؤلفين الباحثين الكبار في شبه القارة الهندية، قد أثرى المكتبة الإسلامية الهندية بمؤلفاته وبحوثه، وكان رئيساً للقسم الديني في الجامعة العثمانية في حيدر آباد[2]، وكتبت فوق الرسالة: «من فندق اليرموك» وصادف وصول هذا الكتاب وجوده في المستشفى، فقد كان يعاني من الذبحة الصدرية، وكان رهين الفراش

---

(١) سمّيت جامعة بإربد بجامعة اليرموك لقرب ميدان اليرموك من هذا البلد، تقع على مقربة منه في الشمال قرية أم القيس التي تستقبل الزائر فيها مرتفعات الجولان، وما بينه وبينها إلاّ وادٍ عميق يجري فيه نهر اليرموك منعطفاً ملتوياً، وعلى ضفافه ميدان اليرموك.

(٢) هو العلاّمة السيد مناظر أحسن الكيلاني المتوفى في عام ١٩٥٩ م.

وكان هو مرضه الأخير الذي مات فيه، فلما وصله هذا الكتاب واطّلع على عنوان الكتاب «فندق اليرموك» كتب إليّ، يقول:

(إنني كنت مريضاً، تنتابني أوجاع القلب، وكنت رهين الفراش لا أستطيع أن أنهض، ولكن لما جاءني كتابكم نفخ فيّ روحاً جديدة، لقراءة اسم اليرموك، فقد حضرتني الذكريات الجميلة الحلوة، فكدت أغلب على أمري وأخالف تعليمات الأطباء وأرقص وأطرب وأبكي).

وانتهى المؤتمر، وانتقلت يوم ٣٠ ـ أبريل ـ بمرافقي العزيز إلى مضيف «دار البشير».

وكان الخطاب الأخير بغرة شعبان في كلية العلوم العربية بعمّان التي يدرس فيها آلاف مؤلفة من الطلّاب، ويبدو كأنها جامعة، ووجهت الدعوة في خطابي مستلهماً حادث الإسراء والمعراج، إلى استعادة القوَّة المعنوية للمسلمين والحفاظ على خصائص الشخصية الإسلامية للأفراد والجماعة، التي انتصرت على حضارة الفرس والروم الراقية والمجتمع الذي كان قد وصل إلى قمّة الرقيّ الماديّ، وأرست قواعد عهد جديد وعالم جديد.

وقُدّم إلى الخطيب تمثال تذكاري جميل لقبّة الصخرة كذكرى من كلية العلوم العربية.

كهف أصحاب الكهف:

مكثنا بعد المؤتمر يومين آخرين، وزرنا مع الدكتور رفيق وفا الدجّاني وفي قيادته ـ وهو من المتخصّصين في الآثار، ونائب المدير لإدارتها ـ كهف أهل الكهف على جبل الرجيب، ويعرف بـ «كهف الرجيب» ويقع في جنوب شرق عمان على ثمانية أميال، ويقول الدكتور رفيق وفا الدجاني أنه هو الكهف الذي أشار إليه القرآن الكريم، ونزلنا في هذا الغار وشاهدناه بتفصيل في قيادة أحد المتخصّصين ودلالة باحث محقق، وكانت صفاته وخصائصه التي ذكرت في القرآن الكريم تنطبق عليه، وأثبت الدكتور رفيق ذلك أيضاً بقرائن وشواهد وأدلة، وآثار أخرى، وما أخرج من الألواح في الحفريات

يُصدّق ذلك، وقد ذكر فيها اسم الكهف بـ «كهف الرقيم»، كما قد عثروا على كتابات لمختلف العهود الإسلامية مع سنيها، ولا يزال يوجد في الغار ثمانية قبور، ويميل المقدسي والبيروني وياقوت من المؤرخين المسلمين إلى هذا الرأي، أنه هو الكهف المذكور في القرآن، ويؤيد ذلك المستشرق الفرنسي «كانو»[1].

أصدقاؤنا بعمان، وساعات معهم:

كنا في إقامتنا بالأردن لثمانية أيام نقضي أكثر أوقاتنا مع صاحبنا القديم وصديقنا الفاضل الأديب الأستاذ محمد إبراهيم شقرة، الذي حضر المهرجان التعليمي بندوة العلماء عام ١٩٧٥ م، وكانت له مشاركة خاصة في بعض لجانه، ووضع التوصيات والقرارات، ويشغل منصب مدير شؤون القدس في وزارة الأوقاف، كان يصاحبنا دائماً في حضور جلسات المؤتمر والتجوّل في البلد.

والصديق الآخر الذي قضينا معه وقتاً كثيراً هو ناشر عدد من مؤلّفاتي صاحب «مؤسّسة الرسالة» و «دار البشير» الأستاذ رضوان دعبول، الذي قد أنشأ بعمّان مركزاً للدراسات والبحوث، يقوم عليه عالم محقق بحاثة هو الأستاذ شعيب أرناؤوط، ولم أشعر بأيّ غربة أو وحشة بوجود هذين الصديقين، وبسبب صديقنا الإخواني القديم الأستاذ عبد الرحمن خليفة الذي كان مسؤولاً عن الإخوان وقائدهم.

وكان لي خطاب سوى كلمتي في مجمع البحوث في مسجد صلاح الدين ـ الذي يؤم فيه الأستاذ محمد إبراهيم شقرة ـ بعد صلاة الجمعة، كان

---

(١) انظر كتاب «كهف أهل الكهف» للدكتور رفيق وفا الدجاني، الذي ألفه كرسالة للدكتوراه، وقد أثبت فيه أن مدينة «أفيسس» التي كانت مدينة من مدن أناطولية، وتقع الآن على ٦٠ كيلومتراً من مدينة أزمير بتركيا ـ وقد اختارها المؤلف في كتابه «الصراع بين الإيمان والمادية» ـ ليست هي موضع الكهف، بل إنه يقع بعمان، وقد أورد على ذلك شواهد وأدلة قوية لا يمكن دفعها، وليس ذلك بعيداً، فقد كان شرق الأردن قديماً جزءاً من الدولة الرومية، وكان اسمه قديماً «فلادلفيا» الذي سميت به مدينة من مدن أمريكا (PHILADELPHIA).

موضوعي فيه شخصية صلاح الدين وسيرته وخصائصه، وكانت المعاني تنثال عليّ لمكان المسجد، ومتطلبات الأوضاع المعاصرة، ولهذا الاسم الحبيب، وكان الخطاب قوياً حماسياً مؤثراً.

وألقيت كلمة في مركز الدعوة والتبليغ بعمّان، أشرت فيها على المستمعين المشتغلين بحركة الدعوة على طراز مركز التبليغ في نظام الدين دلهي الهند، بمراعاة البلد والجوّ، ومتطلّبات العصر، والمقتضيات المعاصرة، وأشدتُ بأهمية الأخلاق والمعاملات مع أهمية العبادات والأذكار، ونبّهت إلى المسؤوليات الفردية والاجتماعية للعاملين في مجال الدعوة، كما أشرت عليهم بمطالعة الكتب، والاهتمام بدراسة موضوعات الدعوة، وأنه يجب عليهم معرفة أوضاعهم وعصرهم وبيئتهم، وأن لا يتغاضَوا أبداً عن حاجات العصر ومقتضياته وأخطاره، وأنه يجب عليهم أن يطّلعوا على الميول الاجتماعية والفكرية السائدة المنتشرة في عصرهم، والحركات التي تعمل وتشتغل، والأخطار والتحدّيات التي يواجهها المسلمون، التي لا يستطيعون أن يقوموا بدون معرفتها بأداء دورهم كاملاً في الحياة والمجتمع، وخدمة هذا الدين خدمة كبيرة لها شأنها.

وقد كان من أصدقاء المؤلف القدامى سعادة الأستاذ كامل الشريف الذي يرجع في نسبه ووطنيته إلى فلسطين، وهو أحد وجهاء عمّان وأعيانها، بقي مدة سفيراً لشرق الأردن، ولا يزال عضو رابطة العالم الإسلامي من بدايتها، وقد عقد مجلساً خاصاً ببيته، ضم صديقنا الكريم معالي الدكتور إسحاق فرحان وزير الأوقاف والتربية سابقاً بالأردن، وأستاذ العربية وشاعرها وأديبها المعروف وحبيبنا الأستاذ عمر بهاء الأميري، والأستاذ محمد إبراهيم شقرة، والأستاذ كمال أبا المجد، وآخرين من رجال العلم والأدب.

وكان موضوع الحديث في هذه المناسبة استعراض تجارب الحركات الإسلامية وموقفها من الحكام، وكان موقف الأستاذ عمر بهاء الأميري أن العلاقة الطيّبة مع الحُكّام ومحاولات إقناعهم لا يزال فيها أمل في ظهور نتائج

طيّبة خيّرة، وكان لنا لقاء آخر بلفيف طيب من العلماء والوجهاء على الطعام في بيت الأستاذ رضوان دعبول.

وقد كانت لنا لقاءات ومجالس خاصة من بين مندوبي المؤتمر ومعارفنا القدامى مع عالم المغرب الفاضل الأستاذ مهدي بن عبّود، وسماحة الشيخ أحمد بن عبد العزيز المبارك رئيس القضاة بأبو ظبي، وسعادة الأستاذ عمر بهاء الأميري شاعر بلاد الشام المعروف - المقيم حالياً بالرباط - وسفير الشام بدولة باكستان والمملكة السعودية سابقاً، وفضيلة الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشريعة بقطر، وفضيلة الشيخ محمد الغزّالي الداعيةوالمؤلف الإخواني المعروف.

وحضرنا مأدبة أقامها سمو ولي العهد، حضرها مفتي عُمَان (مسقط) فضيلة الشيخ حمد الخليلي الذي بدأ أمام الأمير يقرأ صفحات من كتابي «روائع إقبال» عن ظهر غيب.

وخرجنا للمطار يوم ٢/مايو الساعة الثانية حسب التوقيت المحلّي، وقد جاء لتشييعنا عدد من أصحابنا وأصدقائنا، كان منهم رئيس المؤسسة سعادة الدكتور ناصر الدين الأسد، ونظم لي الانتظار في الغرفة الملكية التي خرجنا منها إلى الطائرة، كان سفرنا بالخطوط السعودية من عمّان إلى جدة التي وصلناها في المساء، وكان يرافقنا في السفر الأستاذ مختار الدين آرزو - رئيس القسم العربي بجامعة عليكراه سابقاً - الذي كان حضر المؤتمر من الهند، وسافر من عمان إلى الهند.

في الحجاز:

كنا خرجنا بتاريخ ٢/مايو ١٩٨٤ م من عمّان ووصلنا في المساء إلى جدة، وقد كنا نوينا أن نُحرِم من المدينة المنورة، وأن نزورها أولاً، فسافرنا إليها غير محرمين، ومكثنا بالمدينة المنورة أربعة أيام، ولم يكن غرضنا من هذه الزيارة إلاّ المسجد النبوي الشريف، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ﷺ، ولذلك لم ينظم هناك اجتماع أو حفل، وكان يزورنا بمنزلنا

طلّاب الجامعة الإسلامية وأساتذتها، وبعض علماء المدينة المنورة وعامة أحبابنا وأصدقائنا.

وكنا مترددين جداً في السفر إلى اليمن، لتأخره عن الموعد، وشدة الحرّ، وأن الدعوة الأولى كانت من قبل مكتب التوجيه والإرشاد (الهيئة العامة للمعاهد العلمية) واتحاد طلاب اليمن، وأن الزمن زمن الاختبارات، وأردنا أن نلغي هذا السفر، ولكن ألحّ صديقنا فضيلة الشيخ عبد الله القادري ـ الذي أصله من اليمن ويدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وله صلات خاصة بالمسؤولين وأعضاء الهيئة والاتّحاد هناك ـ على السفر إلى اليمن، وقال سوف يكون الطقس معتدلاً، والاختبارات لا تؤثر على البرامج هناك، وتعهد بأمور السفر وتسهيلاته واتّصل بصنعاء، كما ساعدنا في ذلك أحد المسؤولين عن اتحاد الطلبة بجدة، وعزمنا أخيراً على السفر.

تأسيس رابطة الأدب الإسلامي:

رجعنا من المدينة المنورة في ٧/مايو إلى جدة، واعتمرنا بتاريخ ٩/مايو، وقابلنا في ذلك اليوم وفدٌ موقر من الأدباء بمكة المكرمة، كان يضم أساتذة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وغيرهم، وقد قدموا من الرياض والمدينة المنورة لأجل هذه المقابلة، فتحدثوا معي وذكروا لي أهداف رابطة الأدب الإسلامي، وعرضوا عليَّ دستورها وقوانينها، وطلبوا مني أن أكون رئيساً لهذه المنظمة، وأن أسمح بتأسيسها كمنظّمة أدبية إسلامية عالميّة[1]، وقد قرروا فيه أن

---

(١) لقد كان الدكتور عبد الرحمن رأفت باشا رحمه الله هو الداعي الأول لإنشاء هذه الرابطة، وقد ذكر لي مرة أثناء مقابلة معي بالرياض أنه قد لفت نظرنا إلى البحث عن عناصر الأدب الإسلامي وإبرازها، ونخل المكتبة الإسلامية الأدبية لهذا الغرض واستعراضها، ما جاء في مقدمة كتابكم «مختارات الأدب العربي» التي كتبتموها على أثر اختياركم عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٥٧ م، ونشر في مجلة «المجمع» وقد بدأ الدكتور باشا العمل الأدبي على هذا الخط، ونشر عدداً من المجاميع الأدبية، وكان يشير على طلابه في الماجستير والدكتوراه بالاهتمام بهذا العمل، وهكذا حقق الدكتور بواسطة أو بدون واسطة أعمالاً أدبية إسلامية جليلة، وظهرت ثروة أدبية كبيرة، ومما يدل على سعة نظر الأدباء العرب =

يشكلوا لجنة من الأدباء العرب، وتوجه الدعوة إلى الأدباء من أصحاب الأقلام من مراكش والجزائر ودول الإمارات وغيرها، ويعقد حفلها الأول في لكهنئو، ويكون مكتبها الرئيسي بندوة العلماء، ويتولى الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي مهام الأمين العام للرابطة.

وفاة فضيلة الشيخ المفتي عتيق الرحمن:

كنا جلوساً في بيت الشيخ نور ولي بجدة، والتاريخ ١٠ شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ١٢/مايو ١٩٨٤ م، إذ اتصل بنا تلفونياً من دلهي حافظ كرامت، وأخبرنا بوفاة فضيلة الشيخ المفتي عتيق الرحمن رئيس المجلس الاستشاري العام للمسلمين، الذي كان ملتقى الزعماء والقادة المسلمين، والمسرح المشترك لممثّلي الأحزاب الإسلامية ورؤسائها، وأن دفنه ساعة كذا، وقد كان المفتي عتيق الرحمن مريضاً منذ شهر فبراير ١٩٨٢ م، أصيب بالفالج في عودته من مؤتمر «الإسلام والمستشرقون» بدار المصنفين أعظمكره، فلم يبلّ منه، حتى نزل به ما كان يُخشى عليه من يوم إصابته بالحادث، ولكن كان لنبأ وفاته وقع علينا ـ لشدة صلتنا به ـ كأنه حادث مفاجىء غريب.

والواقع أنه لم يكن لي من الحب والصلة والأنس والعلاقة بأحد من العلماء المعاصرين، وقادة الأمة الإسلامية في الهند، وأعضاء الهيئات والمؤسسات الإسلامية، ما كان بالمرحوم الشيخ عتيق الرحمن، فقد كانت بيني وبينه زمالة طويلة في الأسفار والرحلات والجولات لحركة المجلس الاستشاري، ووحدة في الفكر والرأي، ذكرت قصتها في الجزء الأول من كتابي هذا، وقد أثّر نبأ وفاته على قلبي، ودعوت له واعتمرت عنه، وصحبني في هذه الأعمال الخيرة عدد من أحبابنا من أهل الخير والصلاح، ونشرت حديثاً من إذاعة جدة عن الشيخ رحمه الله، تحدثت فيه بجلائل أعماله،

= ورحابة صدرهم وسماحتهم أنهم اختاروا لرئاسة «رابطة الأدب الإسلامي» رجلاً هندي المولد والمنشأ من المعنيّين بخدمة الدين والأدب.

وعظيم خدماته للأمة الإسلامية، وخصائصه ومزاياه، وذكرت ما وقع من الفراغ الكبير بوفاته في حياة المسلمين بالهند في قيادة الركب الإسلامي وفي معالجة القضايا الإسلامية، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، وعامله معاملة الأبرار المتقين.

رحلتي إلى اليمن:

لا شك أن الشوق والحنين إلى اليمن والصلة بها، وزيارة أرض العلم والإيمان، وأرض النُّور والريحان، أمر طبيعي يشعر به قلب كل مسلم لما خصّ الله تعالى به أهلها من الثناء والوصف الحسن على لسان النبوّة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فقد قال ﷺ لما جاءه وفد من أهل اليمن:

«أتاكم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدة، وألين قلوباً. الإيمان يمان، والحكمة يمانية» وفي رواية أخرى: «والفقه يمان، والحكمة يمانية»[1].

وإضافة إلى هذه الدوافع التي يشترك فيها كل مسلم اطّلع على ما جاء في وصف اليمن وأهلها، ودورهم في الإسلام، وعلم الحديث، كان هنالك دافع آخر، وهو أنني أدين في عربيتي ودراستي للأدب العربي وتذوّقه، للشيخ خليل بن محمد بن حسين اليماني، ويرجع الفضل الأكبر في ثقافتي العربية إليه، فقد كان ورث كثيراً من الخصائص اليمنية التي جرت منه مجرى الدم، فكان من الغريب لمن يصحبه أن لا يحبّ اليمن ولا يحنّ لزيارتها، ثم إن إسنادي للحديث الشريف الذي أكرمني الله به، هو عن طريق العلامة حيدر حسن خان الطونكي شيخ الحديث في دار العلوم التابعة لندوة العلماء وعميدها رحمه الله، وهو تلميذ إمام الحديث وخاتمة المحدثين في الهند الشيخ حسين بن محسن الأنصاري السعدي الخزرجي اليماني البهوفالي، وكل الوسائط والشيوخ في هذا الإسناد يمنيون.

وكان من تقدير العزيز العليم، أنني زرت أكثر بلدان العالم العربي -

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ.

من دول الخليج إلى الجزائر والمغرب ـ وتجوّلت فيها، وقد تكرّرت زيارتها مرات عديدة، ولكنني لم يقدّر لي أن أزور اليمن قبل هذا السفر، وكنت تلقّيت الدعوة لزيارة اليمن عام ١٩٧٦ م وجاءتني التذاكر أيضاً، لكن وقع التأخير في الحصول على التأشيرة، وألغي السفر إليها، ولا يزال المثل العربي «الأمور مرهونة بأوقاتها» يَصْدُق اليوم كما كان يصدق قبل مئات السنين، فهي حقيقة لا تزول، وكانت مؤلفاتي قد سبقتني إلى اليمن، واختير بعضها في المناهج والمقررات الدراسية بها، وعرفها علماؤها ومؤلفوها.

وقد كان الداعي الأول الذي وجّه إليّ الدعوة لهذا السفر، هو الشابّ اليماني الفاضل الأستاذ أحمد عبده ناشر الذي تخرج في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان مستشار مكتبة التوجيه والإرشاد (الهيئة العامة للمعاهد العلمية)، وقد اهتمت حكومة شمالي اليمن التي يحتل فيها أصحاب الاتجاه الديني والغيرة على الإسلام مناصب هامة بهذه الرحلة، وتعاونت مع المنظمين لشؤون السفر، وقد أبدت من الثقة والاعتماد على الزائر ما لم ألقه في أي مملكة إسلامية أو دولة عربية، وسمحت لي بالحديث في مراكز حسّاسة مهمّة لا يسمح للزائر من الخارج بدخولها وزيارتها عادة، وكان الفضل في ذلك يرجع أيضاً إلى العلماء والقضاة والرؤساء الذين لهم مكانة محترمة، وإجلال لدى العامة والمسؤولين عن الحكومة، ويثق بهم الرئيس ورئيس الوزراء، وعامة المسؤولين وأعضاء البرلمان، ويثقون بإخلاصهم وجلالة شأنهم وعلو كعبهم في العلم ونصحهم للبلاد والحكام، وسيأتي ذكرهم في محله.

في صنعاء:

سافرنا يوم ١٤/مايو الساعة السابعة والنصف صباحاً بالخطوط السعودية من جدة، وقد كنا قرأنا أيام الطلب قصيدة في الحماسة كان شطرها الأول:

لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر

ولكنه أصبح الآن بالطائرة سفر ساعة وربع، فقد وصلنا مطار صنعاء

بعد ساعة وربع، وكان في المطار من المستقبلين الأستاذ أحمد عبده ناشر، والشيخ محمد المؤيد (مدير الدعوة والإرشاد) وعدد من الممثلين لاتحاد الطلبة، وآخرون من أعيان البلد.

للدكتور محمد إقبال قصيدة في قرطبة، يقول فيها: (لا تزال الروائح العطرة من اليمن الميمون تهب عليها، ولا تزال نغمة الحجاز ترنُّ في أرجائها وتسمع في أناشيدها ونغماتها).

كنا في اليمن نشعر بهدوء وسكينة، وبعدما استكمل المستقبلون الإجراءات الرسمية في المطار، توجهوا بنا إلى المدينة، وإذا بهم قد أوقفوا السيارة في حيّ قديم يضمُّ بيوتاً متواضعة، واستغربت، لأن العادة أن الناس ينزلون الضيف في فندق محترم من فنادق المدينة، أو بيت أحد الوجهاء والأعيان، أما البيت الذي أنزلونا فيه فقد كانت فيه الغنم، وفتح الباب، وخرج عالم على الطراز القديم واستقبلنا ورحب بنا، ودخلنا البيت معه، وعلق الشيخ على الحركات والجماعات التي تعمل للدين وتقوم بالدعوة إليه وتحكيمه في الحياة، وقال إن هناك طريقين:

١ ـ أحدهما أن يصل أهل الإيمان والصلاح إلى كراسي الحكم، أي أن يستولوا على مقاليد الحكم.
٢ ـ والثاني أن يصل الإيمان إلى تلك الكراسي، أي أن يقبل أهل الحكم والسلطان الدعوة ويتحملوا مسؤولية نشرها وتنفيذها.

ثم قال: إنني قد فهمت من مطالعة كتاباتك أنك ترجِّح الطريق الثاني، فوافقته على ذلك، وقلت: إنني أفضّل هذا الطريق، وقد اختاره عندنا الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٣٤ هـ) المشهور في الهند بـ «مجدّد الألف الثاني»[١]، ولم تلق أي حركة أو دعوة ثورية أو إصلاحية ـ حسب

(١) لأن عمله الإصلاحي التجديدي قد انبثق وتمّ في فجر القرن الحادي عشر الهجري، واستمرّ عن طريق خلفائه وأبنائه، ولا يزال له نصيب وتأثير في بقاء الشخصية الإسلامية في الهند وتصحيح العقيدة وانتشار العلوم الدينية.

علمنا ـ في العالم الإسلامي من النجاح ما لقيته دعوة الإمام السرهندي.

ثم ذكر أوضاع شمالي اليمن وإمكانيات العمل الإسلامي ومتطلباته باختصار، وانفضّ المجلس بعد ذلك، وودعناه، وعلمنا أن اسمه الشيخ ياسين عبد العزيز، وأنه عالم داعية مخلص، وأخبرنا مرافقونا بأنهم جاءوا بنا إلى هذا المكان قبل منزلنا، لنكون على بيّنة من الأمر، وتكون لدينا صورة واضحة عن أوضاع البلاد حتى نستفيد بها أثناء إقامتنا هنا، وقد أعجبت بهذا التصرف وحسن الاختيار، ورأيت فيه ظلاً من ظلال الحكمة اليمانية.

ومن ثمَّ ذهبوا بنا إلى فندق الحمد السياحي، الذي كان قصراً للأمير علي.

وقد كان فيمن نظّم برامج هذه الرحلة، وخطّط للاستفادة منها، واستغلال المناسبات المفيدة لها، وإتاحة الفرص للقاء مع المسؤولين في الحكومة وتبادل الآراء معهم ـ بصفة خاصة ـ الشيخ يحيى الغُسيّل رئيس الهيئة العامة للمعاهد العلمية، والقاضي العرشي رئيس الجمهورية ـ سابقاً ـ ونائب رئيس الجمهورية، ورئيس مجلس الشعب حالياً، وهو يتمتع بشخصية محترمة، ويُعرف بصلاحه وتقواه وعلمه وإخلاصه بوجه عام، والشيخ حمود هاشم الذاراحي أحد أعضاء البرلمان، والدكتور عبد العزيز المفالح نائب رئيس جامعة صنعاء.

خطاب في جامعة صنعاء:

كان لي خطاب في اليوم التالي من يوم وصولنا ١٤ شعبان ١٤٠٤ هـ، الموافق ١٥/مايو ١٩٨٤ م بجامعة صنعاء، وصلنا القاعة، فإذا بها قد غصّت بالطلاّب والمثقّفين من أهل صنعاء، وقد جلس على الأرض عدد كبير مِمّن لم يجدوا مكاناً لهم على الكراسي، واكتظت الساحة أيضاً بالحضور، كانت هذه هي الفرصة الأولى في حياتي للخطاب في اليمن، وشعرت بأن الطبع وقّاد والقريحة سيّالة، والمعاني منهمرة، والأفكار تترى.

فأبديت انطباعي هذا وسروري الغامر، ثم بدأت خطابي بقولي:

إخـواني، كلكم تعرفـون الشلّال المعـروف الذي يتـدفّق منذ آلاف من السنين في مدينة كنادا والذي يعرف بـ «شلّال نياجـرة» (Niagra Fall)، ويعـدّ من عجائب العالـم السبعة، إنني قد زرته وهو ينزل من فوق ارتفاع مائة وثمانية أمتار، ولكن البلاد التي وضع الله تعالى فيها هذا الشـلّال قد وفقت لتستخـدم هذا الشلّال الطبيعي في صالح الإنسانية وفي صالح المدنية، فتأخذ منه القـوة الكهربائية، تهيّـيء منها خمسة مـلايين من القدرة الحصانيـة (Horse Power) التي تصـل بـه الكهـربـاء إلى المـدن البعيـدة، وليس لهـذا الشـلال إلّا هـذا العمل، وليست للمجتمع وتلك البلاد إلّا هذه العقلية، وليس لعملها إلّا هـذا المجال.

ولكني أريد أن أحدثكم عن شلّال لا يقاس به هذا الشـلّال الكندي في القوة والتأثير، ذلك هو شلّال الإيمان والإخلاص الذي أكرم الله به هذه الأمـة الإسلامية بصفة عامة، وأكرم بلادكم بصفة خاصة، وشهـد بهذا الاختصـاص لسان النبوة الذي كان مجرى الوحي، فقد قال صلى الله عليـه وآله وسلم لمـا جاءه وفد من اليمن:

«أتـاكم أهل اليمن، أرقّ أفئـدة، وألين قلوباً، الإيمـان يمـان، والفقـه يمان، والحكمة يمـانية» كمـا جاء في صحيـح البخاري - كتـاب المغازي في باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن.

إن الدول الكبيرة والبلاد الراقية المتحضرة عندها كـل شيء، ولكنها لا تملك هـذا الشلّال الإيمـاني، هذا الحـرمان هـو الذي أنتـج عندهم المـادية الراعنة، والقومية الشقية، والأنانيـة البغيضة، والعصبيـة الحزبيـة، والسيـاسـة الطائشة، والفرقة والتناحر والصراع، لقد استعرضت صورة هذه البلاد الغـربية أمـام أهلها، وصـارحتهم بـأن البلدان الإسـلاميـة لا تـزال تملك الخصـائص والمميّزات العظيمة، ويمكن أن تستغل في إنجـاز المهمات الكبيـرة وإحداث الثورة في البلاد، ولكن العامة يجهلون هذه الثروة، أما قادة الفكـر والرأي في كثير من البلاد الإسلامية فإنهم مع الأسف الشديد يرون في هذه الـطاقة أكبـر

خطر عليهم، فهم في حرب معها، ومؤامرة لإضعافها وتذويبها، ويرونها أو يعلنونها علامة للتخلّف والرجعيّة، وقد يسمونها في استخفاف وكراهة «التمسك بالأصول» (Fundamentalism).

وخاطبت إخوتي الشباب وقلت لهم: اعرفوا نفوسكم أيها الشباب، إذا عرفتم نفوسكم فقد عثرتم على الكنز الدفين وعلى شلال قوي هو أقوى شلال في العالم، الشلال الإيماني الذي تستطيعون أن تقتبسوا منه التيار الكهربائي، الذي ينير ما حولكم من بلاد الله، وينير العالم كله، لقد كان سلفكم هم الذين أناروا العالم، لأنهم قد اقتبسوا وأخذوا هذا التيار الكهربائي من صدورهم المليئة بالإيمان، وحملوه إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب، إن العالم في حاجة اليوم إلى أولئك المؤمنين الذين يتدفّق الإيمان من صدورهم ويفيض على لسانهم.

إخواني، إن لسان النبوة لما وصفكم بالإيمان والفقه والحكمة، فإنه لا يكون شيئاً موقتاً، لأنه إذا جرى وصف أو شهادة على لسان حكيم أو مؤرخ، أو بصير أو طبيب، يكون مقصوراً على ذلك الفرد أو الجيل، ويكون محدوداً في ذلك الزمان، ولكنها كلمة النبي الخالد، النبي العالميّ الإنساني، إذ قال: «الإيمان يمان» فيجب أن يكون في كل عصر، وأنتم بدوركم تغارون على هذه الشهادة والكرامة، وتحاولون أن ذلك لا يكون مختصاً بزمن دون زمن، هذه شهادة لكم قائمة مسجلة في التاريخ، حفظها الحديث النبوي الصحيح، فيجب عليكم أن تعتزّوا بهذه الشهادة.

إن كثيراً من الشعوب الإسلامية مستعدة للمساومة والمبادلة معكم، أعطوها هذه الشهادة بالإيمان والفقه والحكمة، وخذوا منها ما شئتم، وأنا أقول بلسان مسلمي الهند على الأقل: خذوا منا ما شئتم من مكتبات ومدارس، ومن علوم ومن ثروات، وأعطونا هذه الكرامة التي أكرمكم الله بها «الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية».

استمر هذا الخطاب حوالي ساعة ونصف، وكان الحضور في غاية من

الإصغاء وحسن الاستماع، وكأنهم كلهم آذان[1].

مصـدر قـوة المسلميـــن:

سمعنـا بعد هـذا الخطاب ذكـر الشلال في منـاسبات مختلفـة، وأصبح حديث المجالس، وشاع ذكره في البلد، وكانت لي ثلاث محـاضرات أخـرى في صنعاء، إحداها في كلية الـطيران (Air Force College) وقـد كانت بعـد وصـولنا إلى صنعـاء بقليل، كـان الخـطاب بعـد المغـرب، وكنـا قـد وصلنـا المسجـد قبل المغـرب، وأُعجِبنا هنـاك بوجـود عـدد كبيـر من الشبـاب يتلون القرآن الكريم.

ولم أجد للأسف شـريط هذا الخـطاب، وليس في الذاكـرة منه شيء، فـلا أستطيـع أن أذكر هنـا خـلاصتـه، أمـا الخـطاب الـذي ألقيتـه في مـركـز المدرّعات (Artillery Centre) فهو محفوظ في الشريط، وهنا خلاصته:

لمّا وصلنا إلى المركز استقبلنا ضابط كبير، وأشار على الجنـود بطريقـة جندية بالاحتشاد في القـاعة، وكـانوا في عـدد المئات، وقـد كانت هـذه هي المرة الأولى للمؤلف أن يخطب في مثل هذا المـركز الحسّـاس، وكانت هـذه تجربته الأولى رغم كثـرة جولاتـه وأسفاره على دعـوة من الحكومـات العربيـة والإسلامية، أن يلقي حديثاً في مركز حسّاس خطير ككلية الـطيران، أو مـركز المدرّعات.

بدأت خطابي بقوله ـ تعالى ـ في سورة النساء: ﴿ ولا تَهِنُـوا في ابتغـاء القوم، إن تكونوا تألمـون فإنهم يـألمون كمـا تألمـون، وترجـون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً ﴾[2].

ثم ذكرت في شرح هذه الآية الكريمة وتفسيرها أن مصدر قوة الجُنـديّ المسلم هو إيمانـه وثقته بـوعد الله تعـالى الذي وعـد به الشهـداء في سبيله،

---

(١) انـظر الخطاب بكـامله في كتابي (نفحـات الإيمان بين صنعـاء وعمان) طبـع المجمع العلمي الإسلامي بلكهنـو، وطبع دار الصحوة بالقاهرة، ص/١٥ ـ ٣٠.

(٢) سورة النساء ـ الآية: ١٠٤.

والرغبة الصادقة في الحصول على الأجر والفضل والثواب، الذي صرَّحت به الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة التي بلغت حدَّ التواتُر، وإلّا فإن الناس كلهم يحملون أجساماً من لحم ودم خاضعة لناموس السنن الإلٓهية، والطبيعة البشرية، تُجرح وتُكلم، وتتأذى وتتألم.

وتلوت آيات من الكتاب الحكيم، وذكرت عدة من أحاديث صحيحة في فضل الشهادة والشهيد، ثم قلت: إن هذه هي القوة المحيِّرة للعقول الخارقة للعادات التي لا تقاس بقوة، قد امتاز بها المجاهدون المستميتون في الأمة الإسلامية، وفاقوا بها الجيوش الجرَّارة، وهذه القوة هي التي صنعت العجائب وأتت بما يدهش العقول، ويحير الألباب، ويغير خريطة العالم، ومصاير الأمم، ويرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً، ورويت لهم في هذا الصدد حكايات من شجاعة سيدنا جعفر الطيار وأنس بن النضر وسعد بن الربيع وخُبَيب ـ رضي الله عنهم ـ، وفروسيتهم واستماتتهم وجرأتهم التي لا تساويها جرأة.

ثم قلت: إنه يمكن أن يقول بعضكم إن هذه قصص الزمان الذي كان زمن الخير والبركة والسعادة، وإنك تقص علينا قصة الرعيل الأول الذي تربَّى في أحضان النبوّة، ومدرسة الإيمان والقرآن، وكيف يؤمّل ذلك في أناس لم يدركوا ذلك الزمان المبارك، ولا تلك البيئة الطاهرة والمكان الطاهر، لذلك فإني أريد أن أقص عليكم قصصاً من حركة الدعوة والجهاد في الهند، التي قادها الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد، ثم قصصت عليهم قصص معركة «مايار» وما أبدى السيد أبو محمد المجاهد الجريح عند احتضاره من آيات الشكر والسرور، وقصة مشهد «المُتَّهمين» في محكمة أنبالة عام ١٨٦٤ م، الذين تلقّوا حكمهم بالإعدام بالشنق في سرور وبشاشة إيمانية، وفي عواطف من حمد الله ـ تعالى ـ وشكره، وقصة صبر الشيخ يحيى علي الصادق فوري، وثباته وقوة جنانه[1]، واستقامته وسكينته وطمأنينته، وقلت لهم:

(١) يمكن للقارىء أن يطَّلع على هذه الحكايات في كتاب المؤلف «إذا هبَّت ريح الإيمان» طبع =

إنه لا يجوز تضييع هذه القوة الهائلة التي هي نتيجة الوحي والتعليمات النبوية، كذلك لا بد من تجنب المعاصي، فقد كتب سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه:

(وآمُرُه، أن لا يكون من شيء من عدوه أشدّ احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا وننصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدّتهم، فلو استوينا نحن وهم في المعصية، كانوا أفضل منا في القوة والعدد، فإن لا نُنصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا، ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهداً منكم لذنوبكم)[1].

درسٌ لنا في قصة سبأ:

كان الخطاب الثالث في جامع المشهد أمام جمع كبير، استفدت فيه من هذه الحقيقة التاريخية أن قوم سبأ وملكة سبأ كانت لها صلة بأرض اليمن وتاريخها القديم[2]، فقرأت عليهم قوله تعالى:

﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدّرنا فيها السَّيْر، سيروا فيها ليالِيَ وأياماً آمنين، فقالوا: ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا. . . ﴾[3].

ثم شرحت سبب نزولها وذكرت في تفسير الآية الكريمة، أن من مواطن الضعف في طبيعة الإنسان أنه إذا استمرت به حال واحدة من النعمة والراحة والخير يملّها ويسأمها ـ رغم ما تحمل له من لذة ورفاهية وراحة ـ ويريد التغيير والتبديل مهما كلّفه من ثمن باهظ، وجرَّ إليه البلاء والمحن، وهذا هو الحال الذي أشار إليه القرآن الكريم بلفظه: «بطرت»:

= مؤسسة الرسالة ببيروت، ودار القلم بالكويت.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي عبد الله بن عبد الحكم (م ٢١٤ هـ).

(٢) كانت عاصمة مملكة سبأ على بعد ١٧٣ كيلومتراً في شرق صنعاء، وكان شعبها يمنيَّ الأصل.

(٣) سورة سبأ ١٨ ـ ١٩.

﴿ وكم أهلكنا من قرية بَطِرَتْ معيشتَها ﴾[1].

وهذه هي قصة سبأ التي أنعم الله عليها بكل الخيرات، وعبّد طرقها، وملأها أمناً وراحة:

﴿ وجعلنا بينهم وبين القُرى التي باركنا فيها قُرى ظاهرة، وقدَّرنا فيها السَّيْر، سيروا فيها ليالِيَ وأياماً آمنين ﴾[2]، فكفروا بهذه النعمة ولم يقدروها قدرها، ﴿ فقالوا: ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا ﴾[3].

قالوا: إيش هذا السفر، نخرج، نأكل ونشرب، ونتحدث، وإذا بنا نصل إلى منزلنا؟ لا بُدَّ أن يكون السفر طويلاً ومع كلفة ومشقة، فكان أن سلب الله تعالى منهم نعمهم وخيراتهم وجعلهم أحاديث ومزّقهم كل مُمزّق.

﴿ فجعلناهم أحاديثَ، ومزَّقناهم كل مُمَزَّق، إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور ﴾[4].

ثم عُدْتُ من الماضي إلى الحال، وقلت: إنني أشعر في كثير من البلاد الإسلامية والعربية، والمجتمعات الإسلامية بوجود هذا المرض (البطر)، فحيثما تلفتَّ تسمع هتافاً بـ «هل من مزيد»، «هل من جديد»، وليس هتاف «هل من مزيد» بأشد خطراً من هتاف «هل من جديد»، ومهما كانت الأوضاع والظروف فإن أحب هتاف لدى الناس «عاشت الثورة»، وليست هذه الهتافات إلاّ بمثابة أخطار وابتلاءات تحيق بشعب أو بلاد، فلا يبقى أيُّ تمييز بين الصالح والطالح، والأمن والفساد، والنصح والغش، ولا يبقى أي تفكير في العواقب والنتائج، إن هذا المنهج من التفكير وهذه النفسية المتقلبة التي لا تستقرّ على حال، مُنذِر خطر كبير، وقد يؤدِّي إلى مصير قوم سبأ من الدمار والهلاك:

---

(١) سورة القصص، الآية ٥٨.
(٢) سورة سبأ، الآية ١٨.
(٣) سورة سبأ، الآية ١٩.
(٤) سورة سبأ، الآية ١٩.

﴿ أَلَمْ تَـرَ إلى الـذين بـدَّلـوا نعمـةَ الله كفـراً، وأحلُّوا قـومهم دارَ البوار ﴾[1].

لقاءات مع كبار مسؤولي الحكومة:

لقـد تمَّت لنا في صنعـاء لقاءات مـع كبار مسؤولي الدولة، كـان منهم رئيس الدولة علي عبد الله صالح، الذي دعانا يوم الجمعة على الغـداء بقصر الجمهورية، وصلَّينا الجمعة مع الشيخ يحيـى الغسيّل وهو رئيس الهيئة العامة للمعـاهد العلميـة، ويبـدو أن بينـه وبين رئيس الجمهـوريـة عـلاقـات طيبـة، وحضرنا الغداء بعد الصلاة، وتحدث معي الرئيس في جلسة الغـداء، ورأيت فيه البساطـة وعدم الكلفـة، وقد أبـدى لي احتراماً وإكراماً كبيرين، وأردت أن أقوم فطلب مني الجلوس مزيداً من الوقت.

وقمت من هنـاك إلى برنامج في التلفزيـون والإذاعة، وقـد أشـرت في حديثي بها إلى علاقاتي القـديمة بـاليمن، ولا سيما عـلاقتنا العلميـة بأستـاذنا الشيخ خليل بن محمد اليماني، ونبهتهم لدى حلول شهر رمضان المبارك إلى استقباله اللائق وأداء حقه والاهتمام به.

وقـد كـانت لي لقـاءات ـ سـوى هـذه اللقاءات ـ مـع رئيس الـوزراء عبـد العـزيـز عبـد الغني، ووزيـر الخـارجيـة الصبيحي، وعـدد من أعضـاء البرلمان، وكـان الحديث مـع كل واحـد منهم في جوّ من الحـرية والصفـاء، وأبـدى كل واحـد منهم الاهتمام بي وأكـرمني، ودام اتصالنـا من بين العلماء بالقاضي عبد الرحمن محبوب، والشيخ يحيـى لطف الغسيّل، أولهمـا مشرف على مكتب التوجيه والإرشاد الذي هو مركز ديني للتوعيـة والإرشاد، وثـانيهما رئيس الهيئة العامة للمعاهد العلمية التي هي إدارة مسؤولـة عن إقامة المدارس وإقـامة الصـلات بينها، والعنـاية بتـرقية التعليم ورفـع مستواه في طـول البلاد وعرضها.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٨.

الكتب الدعوية في اليمن وتأثيرها:

لقد استغربت في اليمن رغم قلة صلاتها بالعالم الخارجي، وجود كثير من كتاباتي ورسائلي، وقد قرئت على نطاق واسع، وعندما خرجت لمقابلة بعض الشخصيات، شاهدت على أبوابهم مكتبة صغيرة تشتمل على كتبي ورسائلي، كان منها كتابي «إذا هبّت ريح الإيمان» وقد أخبرني بعضٌ الثقات أنه لما زحفت جيوش اليمن الجنوبية إلى اليمن الشمالية وشنّت عليها حملتها، واستولت على بعض المواضع الحسّاسة، وظهر للعيان أن حكومة اليمن الشمالية أصبحت مطوّقة لا تستطيع أن تقاوم، وفُتَّ في أعضاد المسؤولين، ودبّ اليأس إلى نفوسهم، عند ذلك قامت جماعة من الشباب كانت قد درست الكتب الفكرية والدعوية التي تُغذّي العواطف الدينية، وتؤثر على التفكير، وتبعث على الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله، وغلبة الإسلام، وتثير الشوق والحنين إليها[1]، لقد كان هؤلاء الشباب على معرفة تامة بعزائم المهاجمين الاشتراكيين ونواياهم وما يُنتج استيلاؤهم وسلطتهم على البلاد، وكانوا يعرفون أنهم لو حكموا البلاد فما للإسلام من ضمان وبقاء، وليس إلى الحياة الإسلامية، بل حياة العز والكرامة من سبيل، فطلبوا من المسؤولين أن يمدوهم ببعض المعدات الحربية، ويأذنوا لهم بالقتال، ورأى المسؤولون أن هذا من تهوّرهم، وقلة ممارستهم وتجاربهم، وللشباب وقلة النضج حكم، ولكنهم أصرُّوا على موقفهم، فأعطوهم عدداً من المدافع والمعدات الحربية الأخرى، واليمن بلاد أحيطت بالجبال، فاتخذوا معسكرهم على جبل من جبالها، وهتفوا بالتكبير وبدأوا الحرب، ولقد نصرهم الله نصراً عزيزاً، من حيث لا يحتسبون، فهزموا الجيش الجنوبي واضطروهم للانسحاب، وتغيّرت خريطة الحرب، وحُمِيت اليمن الشمالية شرّ الشيوعية، وخطر غزو اليمن الجنوبية.

---

(١) وقد سمًى من أخبر بذلك في هذا الصدد ثلاثة أسماء: الأستاذ السيد قطب، والأستاذ المودودي، وكاتب هذه السطور، وكانوا قد قرأوا كتاباتهم وتأثروا بها وتكونت فكرتهم من خلالها... والعهدة على الراوي.

صنعاء وما يجاورها من القُرى:

لقد كان أصدقاؤنا في صنعاء نظّموا لنا برنامجاً للتفرج خارج مدينة صنعاء، من زيارة عاصمة مملكة سبأ وسدّ مأرب، ويقع من صنعاء على ١٧٣ كيلومتراً، ولكن لم نستطع أن نستعدَّ لها لصعوبة السفر وضيق الوقت، وأبدى المسؤولون استعدادهم لتخصيص طائرة هيلي كوبتر لهذه الزيارة، ولكن لم يكتب لنا زيارتها، ولم يُقيَّض لنا في صنعاء أيضاً إلّا زيارة قبر المحدث الجليل الشيخ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦ ـ ٢١١) الذي يقع على تلّ في جنب مسجد، ولم يكن الوصول إليه ـ لوعورة الطريق وكثرة الأحجار ـ ميسّراً إلا بسيارة جيب العسكرية، فركبناها إليه، وقرأنا الفاتحة، ولم يتيسّر لنا زيارة قبر العلامة محمد بن علي الشوكاني مؤلف «نيل الأوطار» ـ وهو من مشايخ سلسلتنا للإسناد ـ لأنه يقع بعيداً من صنعاء، وشاهدنا قصر الإمام يحيى من الآثار التي تزار، ويقع في حي في ناحية من أنحاء صنعاء، والآثار التي تزار في صنعاء قليلة.

وأكثر الطرق وعرة وطينية غير معبّدة، وقد تحاشى حكام اليمن (أئمة اليمن) رفع مستوى البلاد وترقيتها وتمدنها، ولم يختاروا التنظيمات الصالحة، والمدنية الجديدة النافعة، والحاجيات الضرورية، ورأوا إغلاق أبواب اليمن دون كل رُقيّ حضاري، ومدنيّ من المصلحة والسياسة، ولكن الطبيعة البشرية قد عملت عملها، وحدثت ثورة في اليمن، واستولى عنصر المتجدّدين والشيوعيين، وسارع إلى تحديث اليمن وتطويرها، وتغيرت الأوضاع، وتقلبت على مختلف الأشكال، حتى جاءت هذه الحكومة الحالية التي إذا لم تكن دينية الميول والمنهج، فإنها لا تخالف الدين، ولا تعارض العلماء، وهم في جدّ وجهاد لترقية البلاد وترفيهها، تعبِّد شوارع واسعة جيدة، وتدخل التسهيلات العصرية، ولوازم المدنية، والتنظيمات الإدارية الجديدة في البلاد، ولكن لا يُدرَى مدى التخطيط والتنظيم الدقيق الذي يراعى فيها، ومدى النجاح في الاحتفاظ بالخصائص الإسلامية والخصائص اليمنية

الصالحة للأجيال القادمة والنشء المسلم الجديد[1].

كان المذهب الزيدي[2] سائداً في اليمن منذ زمن قديم، ولا تزال آثاره باقية مشهودة، ولكنك لا تجد فرقاً كبيراً في العبادات، والاجتماع، والأخلاق والمعاملات.

وقد وجدت في اليمن شيئين مشتركين ـ عدا المميزات السلالية والقبلية، والسحنة المتشابهة ـ أحدهما الطريقة الخاصة للبس العمامة التي هي أقرب ـ فيما أرى ـ إلى عادة العرب القدامى، وقد رأيت أستاذنا الشيخ خليل بن محمد اليماني البهوفالي دائماً، يعتمّ بهذه الطريقة، أما في نجد والمنطقة الشرقية فيضعون المنديل على الرأس، وطريقة الحجازيين القديمة، واليمنيين الحاليين أقرب إلى السنة المأثورة.

وثانيهما، حمل الخنجر ووضعه في الجنب، ويسمونه «جَنْبِيّة» وهو يختلف رخصاً وغلاءً وجودة وبساطة حسب حال الشخص، ومستواه المعيشي، وأصبح شعار اليمنيين، ولا يستثنى منه العلماء والمشايخ، وهكذا ظلَّ الشعب اليمني شبه مُسلَّح.

جولة لمختلف مراكز اليمن وآثارها التاريخية:

وقد نظّم الأصدقاء في اليمن برامج الزيارة لعدد من أهم المدن التاريخية والمراكز العلمية القديمة، ولكنهم لضيق الوقت اكتفوا بثلاثة منها «تَعِز» التي تعد العاصمة الثانية لليمن، و «زَبِيد» التي كانت مركزاً حاز الشهرة

---

(١) اقرأ لأوضاع اليمن وتاريخ تطويرها الحديث، والتعليق عليها كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» ص/٢٥ ـ ٣١، للمؤلف.

(٢) يقول هذا المذهب بتفضيل سيدنا علي رضي الله عنه على الخلفاء الراشدين الثلاثة، ولكنه يختلف عن المذهب الإمامي الاثني عشري، فليس فيه عقيدة التبرّي من الشيخين وتكفير الصحابة واعتقاد ارتدادهم، ولا المغالاة ضد أهل السنة والجماعة، وقد ترك عدد من كبار المحدثين والعلماء المذهب الزيدي، ودخلوا في أهل السنة والجماعة، وخدموا الحديث الشريف خدمة جليلة.

العالمية لعلم الحديث واللغة، و «حُـدَيدة» التي هي أحد موانىء اليمن، ومن كبرى مدنها، وهي موطـن شيخ مشايخنـا الشيخ حسين بن محسن الأنصـاري اليماني وأسرته.

سـافرنـا من صنعاء مـع خمسة أو ستـة من أصحـابنـا من علمـاء اليمن الفضلاء إلى «تَعِز»، وكانت الطريق جبلية، فكانت تسيـر أمامنـا كدليـل سيارة رائدة (Pilot Car) كان فيها عدد من الشرطة، وقد كانت الـطريق جميلة رائعة أخاذة، فكانت الجبال مكسُوّة بالخضرة، والأودية مخضرَّة ناضرة يملأها البهاء والجمال، وهي آهلة بالسكان، وكان يخيل إلينا كأننا نمرُّ بطرق «كشمير».

قـابلنا في «تَعِـز» شخصين فـاضلين من وجهـاء تعـز: الشيـخ القـاضي إسماعيل الأكوع، والشيخ محمد علي الأكوع، ودعا في تعز أحد كبار التجـار من أهل الدين والفضل وجهاء الدين وأصحاب المناصب فيها وكبار المسؤولين إلى بيته، وألقيت لهذه المناسبة حديث شكر وتوجيه، وبدأ دورُ تناول «القات» بعد الغذاء حسب العادة المتبعة عندهم، فاستأذنتهم واسترحت.

وكان لي خطاب بالمساء في المسجـد الجامع (جامـع المُظَفَّـر) حضره عدد كبير من علماء المدينة وأعيانها، وقد اخترت لخطابي نـظراً إلى الأوضاع العامة للبلاد الإسلامية والمجتمعات الإسـلامية، والأوضـاع الخاصـة باليمن ـ التي يحيط بها خطر استيلاء اليمن الجنوبية وغلبة الشيوعيين ـ كلمة فاتح مصر سيـدنا عمرو بن العاص رضي الله عنـه، التي خـاطب بهـا الجيش الإسـلامي الفـاتح والمسلمين عـامة، وجعلتهـا موضـوع خطابي والنقـطة الأساسيـة فيه، وهي:

(إنكم في رباط دائم لكثرة الأعداء حولكم، وتشوُّف قلوبهم إليكم).

وأشرت في شرح هذه الكلمة إلى ضرورة الاستعداد المستمـرّ، والحذر الدائم من الأخطار والفتن، واليقظة الدائمة والسهر على المصالح، وحذّرتهم من الترف والسرف، والمُيوعة والاسترسال إلى إشباع الرغبـات، وحياة الـدعة

والراحة، والانحطاط الخلقي، والأمراض الاجتماعية، وشرحت بيتاً من شعر إقبال الذي معناه:

(تعالَ يا أخي أخبرك بسرّ مقادير الأمم والشعوب، وسبب رقيها وانحطاطها، إنها تبدأ دورها بالسيوف والأسنّة، وتنتهي الحكاية بالملاهي والأغاني، ورنّات المثالث والمثاني، والزخارف والأماني).

ثم قصصت عليهم قصة ازدهار الدولة المغولية بالهند وسقوطها وزوالها، فقد بدأت بفروسيتها وجِدّها وصبرها، وفتوحها وانتصاراتها، وانتهت بترف محمد شاه وأخلاقه، وبذخهم ولهوهم وطربهم.

وقرأت عليهم قوله تعالى مع تفسيره وتأييده بوقائع من التاريخ:
﴿ وإذا أردنا أن نُهلكَ قريةً أمَرْنا مُتْرفيها ففسقوا فيها، فحقّ عليها القولُ، فدمَّرناها تدميراً ﴾[1].

وخرجنا من تَعِز إلى «زَبِيد»، وأفطرنا في بيت العلامة الشيخ سليمان بن يحيى بن عمر بن مقبول الأهدل أحد مشايخنا اليمنيين في الحديث الشريف، حيث نزلنا في ضيافة أحد أفراد هذه الأسرة الشيخ الأهدل، وزرنا قبر العلامة مجد الدين الفيروزآبادي وقرأنا الفاتحة، وقد كان مندوباً من الحكومة الإسلامية لهذه المنطقة، ومات بها، وقد أقام بهذه الأرض مفخرة الهند العلاّمة السيد مرتضى البِلكرامي (١٢٠٥ هـ) لرغبته الشديدة في إتقان علوم الأدب واللغة والحديث والبراعة فيها، حتى لقّب بـ «الزبيدي»، ونسي كثير من أهل العلم والفضل، أو غفلوا عن نسبته إلى قرية «بِلكرام» في ولاية «أوده» في الهند، وانتمائه إلى أحد أسر الأشراف الشهيرة القاطنة في الهند.

وقد انتشر صيته في العالم العربي، وطبّق الآفاق، واعترف أهل اللغة وأصحابها بإمامته وجلالة شأنه في علوم الأدب واللغة، وكان كبار الملوك والسلاطين يستنسخون كتبه ويرغبون في اقتنائها، ويعتزّون بالحصول على

---

(١) سورة بني إسرائيل، الآية ١٦.

إجـازاتـه وشهـادتـه[1]، وقـد حـاز بكتـابـه «تـاج العـروس شـرح القـامـوس» اعتـراف علماء العـرب والعجم، وإذعانهـم لـه بـالفضل والإمـامة في معـرفته وبصره باللغة وتحقيقه فيها، ولا يوجد له نظير في قـواميس أي لغة من لغـات العالم (Dictionaries) وقد زرنا بها المسجد التاريخي القديم أيضاً.

وتـوجّهنا من زَبِيـد إلى الحُدَيـدة، وشعرت بهـا بِحُبّ وانجـذاب وأنس لكـونهـا مـوطن أستـاذي وشيخي الحبيب الشيـخ خليـل بن محمــد اليمـاني ومشايخنا في علم الحديث الشريـف، وألقيت خطاباً مـوجزاً في مـركز الـدعوة والتبليغ بالحُديدة، وخطاباً آخر طويلاً في المعهد العلمي حيث أنشـد الأطفال نشيداً ترحيبياً في لحن مؤثـر شجي، يتكـرر فيه كلمـة الترحيب بـأبي الحسن، وقد أفضت في الحديث هنـاك، وذكرت عـلاقة شيخي الحبيب الأستـاذ خليل بهذه المنطقة، ثم تحدثت عن عالميّة اللغة العربية بفضل نزول القرآن الكريم كتـاب الله الأخير بهـذه اللغة وسعتهـا وقبولهـا، وفتوحهـا العلمية الشـاسعـة، وشغف العجم بها وحبّهم لها، وذكرت لهم بأنـه يكفي مثالاً لـذلك انصـراف أحد علماء الهند السيد مرتضى البِلكرامي المعروف بالزبيدي إلى شرح كتاب «القاموس» لإمام اللغة العلامة مجـد الدين الفيروز آبـادي في ظرف ١٤ عـاماً وشهرين في ١٠ مجلدات ضخمة لا نجد مثيلها في أي لغة من لغات العالم.

ثم ذكرت العلامة عبد العزيز الميمني الـذي مات قبـل بضع سنـوات، الذي أخبرني عندما سألته كم تحفظ من الشعر العربي؟ بأنه يحفظ ما بين ٧٥ ألف إلى مائة ألف بيت من الشعـر، ويرجـع السبب في ذلك إلى حُبّ العجم للغة القرآنية وإيثارهم لها، وشغفهم الزائد بها، وأشرت لهم بهذا الصـدد إلى وصية الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـولي الله الدهلوي التي تقـدمت في الخطاب الأول بعمان، ثم بيّنت علاقة الأنصار الذين كانوا يمنيـي الأصـل والمحتد، بالرسول ﷺ، وصلة الرسول ﷺ بهم، ودعوتهم إلى الاعتزاز بهـذه

(١) انظر للتفصيل «نزهة الخواطر» ج/٧، للعـلامة عبد الحي الحسني رحمه الله تعـالى - ترجمـة السيد مرتضى بن محمد البلكرامي.

النسبة الكريمة، وشكر الله تعالى عليها، والاقتباس من صفاتهم وخصائصهم ومميّزاتهم.

ولعل القُرّاء يشعرون بالإسهاب وإطالة النَفَس في الحديث عن اليمن، فلا بأس، فإنه حديث الحب والشوق فلا يلام على طوله.

ورجعنا من الجولة فمكثنا يومين في صنعاء، وسافرنا في ٢١/مايو من صنعاء إلى جدة، وخرجنا يوم ٢٣/مايو من جدة إلى كراتشي.

الفصل الثاني

رحلاتي إلى بنغلاديش وباكستان، ندوات واجتماعات وخطابات ومحاضرات

بنغلاديش:

كانت الرحلة إلى بنغلاديش ما بين ٩ ـ ١٩ مارس ١٩٨٤ م قبل سفري إلى شرق الأردن، والحجاز، واليمن، وكانت رحلة باكستان بعده في ما بين ٢٤ ـ ٢٨ مايو ١٩٨٤ م، فكان ينبغي مراعاة للنسق التاريخي أن تُقدَّم مذكرات رحلة بنغلاديش على مذكرات رحلاتي إلى شرق الأردن والحجاز واليمن، وأن يذكر ما يتعلق بالإقامة القصيرة في كراتشي بعد هذه المذكرات، ولكني رأيت من المناسب أن أذكر رحلاتي إلى البلدان العربية الثلاثة في باب مستقلّ واحد، إذ إنها بلاد متجانسة متوافقة في اللغة، ثم أسوق في الباب الثاني مذكرات رحلتي إلى بنغلاديش وباكستان.

ومن عجيب المصادفات، بل من تقدير العزيز العليم أن وجهة أسفاري ورحلاتي، ومجال جهودي ونشاطي العلمية والدعوية لم تزل نحو الغرب، حيث قطعت المسافات الشاسعة إلى الجزائر ومراكش في جانب، وإلى أمريكا وكندا في جانب آخر، وانحصرت دنياي في جهة الشرق إلى كلكتة كبرى المدن في شرق الهند، ولا نستثني من هذا العموم إلاّ بورما وسري لنكا، التي قمت بزيارتها بعد طلب مُلحّ شديد، إلاّ أنني لم أجاوز في الشرق أكثر من تلك المدينة.

ومن المعلوم أن صلة حركة الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد

وخلفائه وأصحابه ودعوتهم وجهودهم قديمة قوية ببنغال الشرقية (دكّا وشيتا غونغ)، فقد كان أحد خلفاء الإمام الشهيد الشيخ كرامت علي الجونفوري اتخذ بإرشاد من الإمام وأمره منطقة بنغال الشرقية مجالاً لجهوده الإصلاحية والدعوية، وحقّق فيها نجاحاً باهراً عظيماً لا يتفق إلّا بتأييد من الله تعالى ونصره لعباده المخلصين من الدعاة المصلحين، وقد سمعت أذناي الأمير بهادريارجنك أحد كبار القادة والخطباء في الهند قبل التقسيم، وهو يخطب:

(إنَّ عدد المستفيدين والمسترشدين، والذين صلحت أحوالهم وحسن إسلامهم واهتدوا على أيدي الشيخ الجونفوري يبلغ ـ حسب علمي ـ إلى عشرين مليوناً من البشر). وكنت أسمع في صغري عن كبار مشايخ أسرتي أنهم يسافرون إلى «دكّا»، ولكن ضُمَّت هذه المنطقة من بنغال الشرقية إلى باكستان عام ١٩٤٧ م، ثم انفصلت عنها عام ١٩٧٢ م، ولم يقدر لي السفر إليها، وقد أبديت ـ بكل صراحة ـ مشاعري المكلومة وانطباعاتي الحزينة الكئيبة عن تلك المأساة اللغوية والحضارية التي كانت سبب انفصال هذا الجزء عن باكستان في مختلف خطبي ومحاضراتي، كان منها ذلك الخطاب القوي الصريح المثير الذي ألقيته بمدينة كلكتة في ٢٣/مايو عام ١٩٧٢ م ونشر بعنوان: «مأساة الجاهلية اللغوية والحضارية ودروسها» في اللغات الأردية، والعربية، والإنكليزية، والبنغالية، والذي حمله الحجاج البنغاليون من مكة المكرمة إلى بنغلاديش، وكان له تأثير ومفعول كبير.

ضرورة إيقاظ الشعور الديني والحمية الإسلامية، ومقترحات إيجابية بنّاءة:

وقد كان لازماً بعد إبداء رأيي الصريح في هذه المأساة الأليمة، وما شعرت به من ضيق وألم وقلق شديد، أن أضمّد جراح هذا الشعب المسلم ـ الذي خلّف آثاره المجيدة الرائعة، وأثبت جدارته وكفاءته في حميته الدينية، وخدماته الإسلامية، وعواطف التضحية والفداء والجهاد، وترك أمثلة نادرة لا يوجد لها نظير من الإيمان والعزيمة والبطولة إلّا في حركة السيد الإمام أحمد ابن عرفان الشهيد ـ وأشير عليه بما أرى في مصلحته من توجيهات ومقترحات

إيجابية بنّاءة، وأرفع حميته الإسلامية التي تسري في شرايينه وعروقه إلى الحركة والعمل والبناء من جديد، وأن يوقظ شعوره ووعيه الفكري والعقلي حتى لا يصاب مرة ثانية بالوقوع في شبكة الدعوة الجاهلية والنعرات القومية والمآسي المخزية الأليمة، فإن الإنذار والتبشير توأمان، ويجب على الداعي أن يراعيهما، ولا ينفك عن أي واحد منهما.

وكان عدد من الأصدقاء في بنغلاديش يلحّون عليّ منذ أعوام لزيارتها، وقد قرئت هناك مؤلفاتي ورسائلي الأردية والعربية في رغبة وشوق وإعجاب، كما كان هناك عدد من خرّيجي دار العلوم ندوة العلماء، لا سيما العالم الشاب الأستاذ سلطان ذوق الذي كان مدرساً في الجامعة الإسلامية بفتية شيتا غونغ، وله ذوق أدبي للغة العربية، وبصفة خاصة الأدب الإسلامي وبصورة أخص بشعر الدكتور محمد إقبال، وكان له اهتمام زائد لأجل ذلك بكتابي «روائع إقبال» وكانت له صلة مراسلة قديمة بي، وقد زار ندوة العلماء وأقام بها مدة من الزمن، وكان على رأس المهتمين بهذه الزيارة.

وأخيراً جاءت مناسبة طيّبة، وقررنا السفر إلى بنغلاديش بدعوة من بعض جامعاتها الإسلامية الكبيرة، وبعض الجمعيات الأخرى، وخاصة المؤسّسة الإسلامية (Islamic Foundation) بدكّا، وسافرنا مع جماعة من الرفاق، فيهم الشيخ عبد الكريم باريكه الناكبوري، والشيخ أبو العرفان الندوي، والعزيز السيد سلمان الحسيني الندوي، ومرافقي ومساعدي في أكثر جولاتي الحاج عبد الرزاق الرائي بريلوي، ووصلنا يوم الجمعة ٩/مارس ١٩٨٤م بعدما أقلعت بنا الطائرة من مطار لكهنؤ مروراً بمطار كلكتة إلى دكّا، قرب غروب الشمس، ونزلنا في بيت الشيخ بشير الدين (صاحب شركة Jameeluddin Limited Company) رقم ٣٦ نيواسكاتن دكّا، وهو تاجر خيِّر، ينزل عنده أكثر العلماء الضيوف في دكّا.

أقمنا في بنغلاديش عشرة أيام من ٩ إلى ١٩/مارس ١٩٨٤م، زرنا فيها دكّا، وشيتا غونغ، وكوكس بازار، ومومن شاهي (ميمن سنغ)، وسِلْهَت

والمناطق الرئيسية بها، وألقيت خطابات في اجتماعات كبيرة، وزرنا المدارس الإسلامية، وذهبنا في جولتنا في منطقة شيتا غونغ وكوكس بازار إلى «نهيلة» التي تقع على حدود بورما، وسمع بنا هناك أهالي بورما من المسلمين، فحضر كثير منهم إلى الاجتماع الذي عقد هناك، وزرنا أثناء إقامتنا بدكّا «سنّاركاؤن» التي كانت آخر الحدود الشرقية للدولة الإسلامية القديمة، ومن هناك يبدأ الشارع الطويل الذي بناه الملك شير شاه السوري، والذي يصل إلى «نيلاب» بالسند، وقد سميت هذه المنطقة باسم «بينام» (Painam) في مديرية دكّا.

الحاجة إلى قَدْر نعمة الإسلام والشكر عليها:

كان أول خطاب لي يوم ١٠/مارس ١٩٨٤م في الجامعة الإسلامية بفتية شيتا غونغ، كان عنوانه: «الحاجة إلى قدر نعمة الإسلام والشكر عليها» وقد ذكرت فيه بعض الحوادث الماضية، وشددت النكير على انتهاك الحرمات، وتناسي نعمة الإيمان، وصلة الإسلام، وحقوق المسلم، واحترام نفسه وعرضه وماله، واستنكرت تلبية كل نعرة وهتاف، والاندفاع وراء كل حركة ودعوة، وبيّنت خطر ذلك على الدين والأمة الإسلامية، فلا يجوز الإعجاب بكل ما يبهر الألباب، ويخدع النفوس، وينفِّس عن العواطف المكبوتة، وتلوت عليهم بعض قصص بني إسرائيل التي تشبه هذه الحوادث والأدواء الخلقية، وانتقدتُ الجاهلية القومية واللغوية والسُّلالية التي تصل إلى حد الكفر والظلم والعُدوان، والضراوة بالدماء وقتل المسلمين الأبرياء.

خطاب مُهِمّ في المؤسسة الإسلامية:

وكان أهم خطاباتي هو ما ألقيته في حفلة الترحيب التي عقدتها المؤسّسة الإسلامية ـ لبنغلاديش ـ في ١٣/مارس بفندق «بورباني»، وكان فيها الغداء أيضاً، وقد حضره أعيان دكّا، وكبار رجالها، وقد اهتم مدير المؤسّسة بهذه الحفلة، ودعوة الشخصيات الكبيرة لها، اهتماماً بالغاً، وألقى خطابه الترحيبي.

كان موضوع هذا الخطاب «الفتح للحُبّ الصادق والإنسانية المخلصة»، وقد تناولت في هذا الخطاب الخصائص والمميّزات التي امتاز بها الشعب المسلم عن غيره من الشعوب والأمم؛ من الإخلاص، والعاطفة الإيمانية، وعاطفة التضحية والفداء، والبساطة، والشجاعة، وإن من المؤسف أن هذه الصلاحيات والخصائص التي هي منح ربّانية ومعجزة إسلامية مهملة مُعطّلة، لا تُستغل ولا تُستخدم في ما كان ينبغي أن تستخدم فيه، فلا تُسقى بهذا الشلال الإيماني الفطري، وهذا الماء الشفّاف الجاري من الحب والانقياد، الحقول والزروع، ولا تولد منه القوة الكهربائية التي تحلّ المشاكل المُعقّدة، والتي يُحَوَّلُ بها الشعب لا إلى الذهب بل إلى الإكسير، وتولد منه قوة جديدة لا في هذه البلاد فحسب بل في العالم الإسلامي كله.

ولكن ليس هذا عمل القادة السياسيين، بل هو عمل المخلصين أصحاب القلوب المؤمنة، وإن من الضرورة بمكان أن يُردم الخليج الواسع الذي يتّسع ويعمق على مرّ الأيام بين الطبقة القديمة والطبقة الجديدة، وبين العلماء وخرّيجي الجامعات العصرية، وأن تتكاتف الطبقات في مجال الخدمة الإسلامية، وأبديتُ آمالي الكبيرة في المؤسسة الإسلامية أنها ستقوم بإخراج المكتبة الإسلامية المعاصرة للطبقة العصرية المثقفة في لغتها وأسلوبها، فهي نجمة تتألق، ويرجى منها الخير الكثير.

الحاجة إلى براعة علماء الدين في اللغة البنغالية وقيادتهم للشعب المسلم:

وعقد احتفال كبير في الجامعة الإمدادية بكشورغنج في ١٤/مارس ١٩٨٤م في ساحة واسعة كبيرة، حضره عدد كبير من العلماء والطُلاّب والمثقّفين، ألقيت فيه خطاباً، ووجهت فيه دعوة قوية إلى العلماء للتبريز والبراعة في اللغة البنغالية، ومكانة الإمامة فيها، وأن لا يركِّزوا كل صلاحياتهم وملكاتهم على الأردية والعربية، بل إنه يجب عليهم أن يتفوّقوا على أقرانهم في لغة البلاد، وأشرت إلى الأخطار الكبيرة التي تكمن في قيادة الطبقة «التقدّمية» العلمانية، والعناصر المناوئة للإسلام وللأدب واللغة

واستيلائها عليهـا، وتخلِّي العلماء وأصحاب الدين عن هذه المهمة والزعامـة الأدبيـة واللغويـة الكتابيـة والخطابيـة، ووصفت لهم بهذا الصـدد ميزة علمـاء الهند الذين لم يزالوا على صلة قوية باللغة والأدب، بـل أثبتوا قيـادتهم فيها، واقتدارهم على الأساليب الأدبية الجديدة، فلم يتخلَّفوا لأجـل ذلك عن ركب العلم والأدب والثقافة، فقد كان هناك أربعة أعمدة للأدب الأردي كلهم كـانوا من خرِّيجي المدارس الإسلامية القديمة[1].

لقـد كانت هـذه التـوجيهـات والآراء بعكس مـا كـان يتـوقَّعـه كثيـر من الحضور والمستمعين، فلم يكونـوا يرجـون أن يقوم أحـد الدعـاة إلى التعليم الـديني وإتقان اللغـة العـربيـة، والممثِّـل المتحمِّس للمـدارس والجـامعـات الإسلامية، بصرف العناية إلى الاهتمام باللغة البنغالية التي تسبَّبت في مـأساة وأي مأساة، وقد كان هذا الخطيب قد ألقى خطاباً حماسيـاً شديـداً ضد هـذه العصبية اللغوية لم يسمعه الناس من غيره، ولكن الذي قلتُه هناك كان مؤسَّساً على نُصح وإخلاص، وواقعيـة ودراسة لـلأوضاع، وكان يؤيده تـاريخ العلم والأدب وتجـارب مختلف البلدان والمجتمعات، ولا يجـوز لبنغلاديش ـ التي ستبقى لغتها البنغالية لغتها الأم ـ أن تغفل هذه الحقيقـة والواقـع ولا بد لأهـل العلم وأصحاب الدين أن يستعدوا لها، ويتملكوا زمامها.

مصير هذه البلاد مرتبط بالإسلام وهي مِلكه الدائم:

كـان يوم الجمعـة ١٦/مارس ١٩٨٤م، وكـان علينا أن نصلي بـالناس الجمعة في مسجد «بيت المكرم» بدكّا، وكان الـرئيس الجنرال محمـد إرشاد يصلي الجمعة في هذا المسجـد. وقد ألقيت فيـه خطابـاً بالأرديـة قبل خـطبة الجمعة، صارحت الناس فيه بـأن مصير هـذه البلاد مـرتبط بالإسـلام ارتباطـاً وثيقاً، وقلت لهم إن الحُكَّام والأمراء قديماً كانـوا يقطعـون إقطاعـات لأناس،

---

(١) وهم: الشيخ ألطاف حسين حالي، والشيخ محمد حسين آزاد، والشيخ نذير أحمد، والعلامـة شبلي النعماني.

فكانت تخصّهم وتُعيَّن لهم (Allot)، وإذا أراد آخر أن يسطو عليها كان ذلك إعلاناً بالحرب ضد الحاكم أو الأمير، كذلك فلتعلموا أن هذه الأرض أرض بنغلاديش مُنِحت للإسلام ولمحمد ﷺ، فأي تغيير في هذا الوضع وأي إجراء لتقديم هذه البلاد إلى أيدي أخرى وسلطة أخرى، ونصب راياتها وأعلامها بها، خروج وبغي ضدَّ الله ورسوله ﷺ، وعدوان أثيم ضِدّ الإسلام، وإن من تقدير الله تعالى لهذه البلاد أن تبقى مسلمة، وإن سلامة هذه البلاد وبقاءها وصيانتها تعتمد عليه، إنني أقول لكم بصراحة وأنا على منبر هذا المسجد: إنه لا يمكن أبداً أن تنعم هذه البلاد بالرفاهية والرخاء، ويقرّ لها قرار إذا تخلّت عن الإسلام أو أضعفت صلتها به، وإنه لا يحفظها ولا يدافع عنها أي تخطيط أو تصميم (Plan) أو مشروع (Project) أو مساعدة (Aid) داخلية أو خارجية، أو جنود أو حُرّاس، أو أي قوة داخلية أو خارجية، ألا فليشهد الكاتبون وليسمع السامعون.

ثم أشرت عليهم بما يحفظ كيانهم الإسلامي، ويحفظ على النَشء الجديد إيمانهم وصلتهم بالتعاليم الإسلامية والحياة الإسلامية، وأكّدت على ذلك حتى تستمرَّ هذه السلسلة الإيمانية الدينية العقيدية والعملية.

لم يكن هذا الخطاب مؤسَّساً على احتمالات أو مفروضات وأخطار بعيدة، بل كنت قد سمعت أثناء إقامتي ببنغلاديش أنه زار أحد الأدباء من غير المسلمين من بنغال الغربية هذه البلاد، فقامت هذه البلاد وقعدت، وبالغ أدباؤها المسلمون وفضلاؤها ومثقفوها في استقباله وإكرامه وإحلاله من قلوبهم ونفوسهم، كأنه مَلَكٌ نازل من السماء، هذا عدا ما يتوسّمه، بل يقرأه كل أحد من كتابة بارزة، تدل على أنه لو بقي الشاعر طاغور ـ الذي لا يزال يذكره كثير من المسلمين بلقب «تهاكر»[1]، والذي نتمتّع بشعره وقصصه ـ يسحرُ النفوس، ويغلب العقول، فإنه ستبقى هذه البلاد أسيرة عقلياً وفكرياً لبنغال الغربية، وتخضع لأفكارها وتصوراتها كخضوع كثير من بلدان أوربا وآسيا

---

(١) لقب تعظيم واحترام في اللغة الهندية.

للبلاد اليونانية، وعبوديتها لها في العقلية والتفكير، التي انتشر منها الإلحاد، والارتياب، والعقلانية الجامحة في الأوساط المسيحية والإسلامية.

وقد سُررنا جداً أن المؤسسة الإسلامية أزمعت على نشر الكتاب الإسلامي والأدب الإسلامي، وقد خططت لذلك تخطيطاً جيداً، وقامت بترجمة العديد من كتاباتي التي طبعها المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ الهند، ولكن هذه الحركة ـ حسب ما علمنا ـ بطيئة تحتاج إلى عناية مزيدة واهتمام أكثر.

خطابات زملائي في السفر:

وقد استمرَّت أثناء إقامتنا ببنغلاديش سلسلة خطب ومحاضرات لزملائي الثلاثة: الشيخ عبد الكريم باريكه، والشيخ أبو العرفان الندوي، والعزيز السيد سلمان الحسيني الندوي في مختلف المراكز والمدارس، وكانت لها فائدة كبيرة، فالشيخ عبد الكريم له قدرة فائقة على بيان معاني القرآن الكريم وتسهيلها وعرضها للجمهور، ويلقي في ضوئه خطباً مؤثرة نافعة، والشيخ أبو العرفان الندوي يمتاز بالدراسة الواسعة للمناهج الدراسية القديمة، وتاريخ المنهج النظامي وواضعيه وكبار المؤلفين فيه، وتاريخ الهند الإسلامية بصفة عامة، قلّ من العلماء من له بصر في هذا الموضوع كالشيخ أبي العرفان، فكانت محاضراته في ندوات العلماء وطلاب المدارس الإسلامية واحتفالاتهم مفيدة نافعة، أما العزيز سلمان الندوي فله القدرة على اللغتين العربية والأردية على السواء، وكانت له خطب بالعربية في المدارس الإسلامية، وهكذا فقد كانت هذه الجولة موفَّقة نافعة لمختلف طبقات المجتمع البنغالي، وكانت فيها مراعاة لمختلف الأوساط العلمية، وتنوُّع في مواضيع الخطب والمحاضرات.

وقد توجَّهَ هذا الوفد راجعاً بالطائرة في ٢٠/مارس إلى كلكتة، وقد تمتَّعنا في رحلتنا هذه بصحبة الأستاذ سلطان ذوق، والأستاذ أبي الفائد محمد يحيى مدير المؤسسة الإسلامية، والشيخ بشير الدين، والشيخ عبيد الحق رئيس المدرسة العالية بدكّا، وابنه العزيز سعود الحق الندوي، والشيخ

محيي الدين رئيس تحرير صحيفة «المدينة»، وضيافتهم، ومساعدتهم في أمور السفر، فجزاهم الله تعالى خير الجزاء.

أربعة أيام في كراتشي باكستان وأعمال شاغلة:

كنا قد رجعنا في ٢٠/مايو ١٩٨٤ م من صنعاء إلى جدّة، وقضينا بها يومين في اللقاءات والاجتماعات والحصول على تأشيرة الدخول لباكستان، وسافرنا في ٢٣/مايو إلى كراتشي، وبما أن شهر رمضان كان قريباً، ومن عادتي أنني أصوم رمضان في قريتي راي بريلي، حيث يجتمع ضيوف من مختلف الأنحاء، ويقضون هذا الشهر معي في قريتي، فلم يكن لي متسع من أيام أقضيها في باكستان وأزور فيها مختلف المناطق، وكانت عندنا فرصة أربعة أيام قضيناها في كراتشي وحدها، وكانت هذه الرحلة الثانية إلى باكستان بعد ١٩٧٨ م، العام الذي زرتُ فيه باكستان لحضور المؤتمر الآسيوي الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي بباكستان، وكنت آنذاك زرت عدداً من المدن.

كانت لي أثناء هذه الإقامة لأربعة أيام ستة خطابات كانت كلها في احتفالات مهمة، وأمام صفوة مختارة، وقد كانت باكستان حينذاك تمر بمرحلة سياسية عصيبة، وقد هدأت قريباً مظاهرات الطلاب (بما فيهم أعضاء جمعية الطلبة الإسلاميين) واحتجاجاتهم، وفتحت الجامعة بعد إغلاقها لمدة طويلة، وكانت الأوضاع السياسية والاجتماعية لا تقلق أهل باكستان فحسب، بل تقض مضاجع جميع المخلصين وأصحاب الدعوة والفكرة في الأمة الإسلامية، فقد قامت باكستان وبرزت إلى الوجود بعد جهود عظيمة جبارة، وعلقت عليها آمال كبيرة، وقد دفع المسلمون في شبه القارة الهندية ـ طوعاً أو كرهاً ـ ثمنها الباهظ الضخم.

ولما علم أصدقاؤنا في باكستان والمهتمون بقضايا الأمة الإسلامية وهذه الدولة المسلمة الناشئة ـ بصفة خاصة ـ بمقدمنا إلى باكستان، بدأت الدعوات

تـطرأ لإلقاء كلمـات وخطابـات في مختلف المـراكـز والجمعيـات، ولـم يكن بـالمستطاع تحقيقهـا وتلبية جميعهـا، إلاّ أنه لم يكن أيضـاً منـاص من قبـول بعض منها.

وقد كانت خـلاصة هـذه الخطب كمـا جاءت في تقـديم زميلي القديم الفاضل الأستاذ محمد ناظم الندوي لكتابي: «تحفة باكستان» ـ وهي مجموعة خطبي ومحاضراتي لباكستان ـ مما يلي:

١ ـ إشارة إلى أعمال أعداء الأمة الإسلامية وتحرُّكاتهم.
٢ ـ إبراز الشخصية الإسلامية في باكستان التي هي سبب قيامها وبها بقاؤها.
٣ ـ انتقاد جانب يلفت النظر في الحياة الاجتماعية ببـاكستان، وهـو الإسراف والتبذير، وارتفاع مستوى المعيشة، وكثرة وسائل التـرفيه والتنـافس فيها، مما أنتج مفاسد اجتماعية وأمراضاً خلقية كثيرة، وقضايا متشعّبة معقّدة.

الحاجة إلى إقامة مجتمع إسلامي على نطاق الشعب كله والبلاد كلها:

كان الخطاب الأول في جامع بنّوري تاون الكبيـر قبل خـطبة الجمعـة، ويحضر هذا المسجد عدد كبيـر من العلماء والأعيـان والطلاب، وكـان عنوان الخطاب: «الحاجة إلى إقامة مجتمع إسـلامي على نطاق الشعب كله والبـلاد كلها» وقد بيَّنتُ فيه بتفصيل أن الناس لدى البعثـة المحمديـة ـ على صاحبهـا الصلاة والسلام ـ وطلوع الإسـلام، لم يكونـوا قد فقـدوا بعض الأمثلة الطيبـة من الصلاح الفردي والأخلاق الطيبة، فقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم، فقد قال الله تعالى:

﴿ لَيْسوا سواءً، من أهـل الكتاب أمـةٌ قائمـةٌ يتلون آياتِ الله آنـاء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخـر، ويأمـرون بالمعـروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات ١١٣ ـ ١١٤.

ولكنه لم يكن لأولئك الأفراد تأثير على المجتمع البشري المعاصر، ومدنية ذلك العصر، والميول والطبائع ووجهة الحياة السائدة، فقد كانوا كاليراعات في الليلة البهيمة الظلماء، وكانت الحاجة إلى قيام مجتمع إسلامي صالح على مستوى الشعب والبلاد، ليكون مجتمعاً مثالياً يقتدى به ويقود ركب الحياة ويدعو إلى التغيير والإصلاح.

ولذلك كانت نبوة محمد ﷺ وبعثته بعثة مقرونة على تعبير الإمام الدهلوي، فقد بُعثت معه أمة بكاملها، وأقامت مجتمعاً إنسانياً إسلامياً حُرّاً مثاليّاً، لم يكن ممثلوه يأوون إلى الكهوف والمغارات لينقطعوا عن الناس ويشتغلوا بخاصة نفوسهم، بل كانوا يحكمون الأرض، ويسودون العالم، ويضطلعون بمسؤوليات الدولة والأموال والقُوَى والطاقات ووسائل الكسب، والتجارة والصلات مع العالم الخارجي، فقدَّموا مثالاً جديداً ناجحاً للحياة. وإن العالم لا يتأثر ولا يضطر للتفكير والتأمل في دعوة أو نظام إلّا إذا كان له تطبيق وتنفيذ صحيح على النطاق العالمي أو على مستوى الشعب والمدينة والمجتمع على الأقل، الذي يشاهد بالعيان ولا يحتاج إلى برهان، وعندئذ تشعر الشعوب والبلدان بما يمتاز به الإسلام من تأثير على مجال الحياة، وتغيير للمجتمعات، وإنارة للقلوب البشرية وتصفية للنفوس الإنسانية، وما تحققه التعاليم الربانية والشريعة الإسلامية من اتزان وسلام وأخلاق عالية وحياة صالحة، وإنه إذا لم تتحقق هذه المظاهر الصالحة فلا يلتفت أي جانب من جوانب العالم الإنساني إليه، فضلاً عن الإنسانية كلها.

لقد قامت بلادكم هذه على هذه الدعوى أنكم سوف تقيمون مجتمعاً إسلامياً صالحاً، وتقدِّمون مثالاً طيباً، ولكن انظروا إلى أي حدٍّ تحققت هذه الدعوى وإلى أي مَدَى نجحتم في هذا الاختبار؟.

المجتمع الصالح القوي أساس الحضارة والسلطة ومنبعها الأصيل:

نظم مؤتمر العالم الإسلامي بتاريخ ٢٥/مايو حفلة ترحيب وعشاء في

أكاديمية بهادرياجنك، وكان صاحب الدعوة لها صديقنا الدكتور إنعام الله خان (العضو التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي والأمين العام لمؤتمر العالم الإسلامي)، وقد حضرها عدد كبير من كبار المثقفين والفضلاء والأعيان والوجهاء، ليس على مستوى كراتشي فحسب بل على مستوى باكستان كلها، وقد ألقيت فيها محاضرة أثبتُّ فيها في ضوء الوقائع التاريخية والحقائق وبشهادات من علم الاجتماع وعلم الأخلاق والسياسة، أن المجتمع الصالح القوي هو أساس الحضارة والسلطة ومنبعها الأصيل. وقد أشرت في هذا الصدد إلى الأسباب والدوافع النفسية لقبول التتار الإسلام، وهو ما امتاز به المسلمون وفاقوهم في الجوانب الروحية والخلقية والعلمية، وذكرتُ السبب الحقيقي وراء بقاء الدولة المسلمة في السلطة والسيطرة إلى هذه المدة الطويلة في الهند، كما ألمحت أيضاً إلى درس الربّانيين المرشدين، والعلماء المصلحين، والدعاة المربّين في صيانة المجتمع الإسلامي من الانهيار الكامل والدمار التام، وصرحت أخيراً بأن تاريخ الجمهوريات الرائعة يدل أيضاً دلالة واضحة على أن المجتمع إذا فسد وانحرف ذهبت تلك الجمهوريات أدراج الرياح، وقُضِيَ على ازدهارها وإمكانيات رقيها وبقائها وأصبحت حديث كان.

مسؤولية السلطة الإسلامية
الصالحة، وبركتها وخيرها:

نظمت حفلة كبيرة في ٢٧/مايو من قبل نادي فاران في فندق كراتشي المعروف «متروبول» (Metropol) حضرها عدد كبير من الوجهاء، والأعيان والمسؤولين والمثقفين.

وقد كانت النقطة المركزية التي دار حولها الحديث هي «مسؤولية السلطة الإسلامية الصالحة وبركتها وخيرها»، وضربت فيها أمثلة متعددة للمجتمع الإسلامي الصالح ومميزات الشعب الذي يستأهل الحكم والسيادة، وجهوده وتضحياته وإخلاصه وإيثاره وزهده وتقشفه، وقلت إنه لا بد من تقديم نماذج صالحة للحياة الصالحة، وليست الحياة إلاّ عبارة عن الحركة والعمل،

والنشاط والحماس، فالبلاد التي تمثل هذه الحياة تستحق مكان العز والكرامة بين الأمم والشعوب.

حُبُّ الجاه والحرص على السلطان

أكبر خطرٍ على أيّ شعب أو أمة:

وصرحت للحضور بأن الخطر الأكبر الذي أشعر به في بلاد حُرّة مستقلة تملك زمام أمورها، هو الهيام بالجاه والسلطان، والتهافت على المناصب والسلطة الذي نخر في الشعوب والأمم وقضى عليها. إنكم تعلمون جميعاً أن الأضرار والخسائر التي لحقت بالبلاد والدول الإسلامية كانت عن طريق الانتهازيين والنفعيين، فمن عهد الدولة العباسية إلى الدولة المغولية، إلى عهد السلطان تيبو، كان هؤلاء الانتهازيون يلعبون دورهم، وهم الذين قضَوا على هذه الدول، ثم الخطر الثاني يكمن في العصبية الإقليمية واللغوية، إنها أخطار حقيقية واقعية تواجهها بلادكم، ويجب عليكم أن تتنبَّهوا لها.

شعور الشباب بمسؤوليتهم وسيطرتهم الخلقية

على أنفسهم، صمام أمن للدولة:

كان لي خطاب يوم ٢٦/مايو في جامعة كراتشي أمام طلبتها وأساتذتها ومسؤوليها، وكان يرأس الحفل نائب رئيس الجامعة الدكتور جميل جالبي، وقد كنا سمعنا بما وقع من أبناء الجامعة في مظاهراتهم، ومرت بأنظارنا لافتات وكتابات على جدران الجامعة تدل على طيشهم وتهورهم وكراهيتهم الشديدة لمسؤولي الدولة، من كلمات وعبارات شائنة جارحة حتى في حق الرئيس ضياء الحق، وساءني هذا المنظر وقراءة هذه اللافتات، وتوجه الخطاب لأجل ذلك إلى موضوع سيرة الشباب وصلاحهم ودورهم القيادي، وذكرت لهم ما هي السيرة المطلوبة والدور المرتقب منهم الذي يستطيعون به أن يحفظوا البلاد، ويساهموا في رقيها ورفع مستواها، وقلت: إنني لو وصف لي شخص بلداً، وقال إنه يملك القوة العسكرية الهائلة، والاقتصاد العادل المحكم، والصلات الطيبة بالقوى العالمية الكبرى، ولها إكبار واحترام في نفوس أهلها، فسوف أسأله: إلى أي مدى يشعر فيها الشباب وطلاب

الكليات والجامعات، والنشء المثقف الجديد بمسؤوليتهم، وإلى أيّ حد بلغ تملكهم لزمام نفوسهم وعواطفهم وكبحهم لجماحهم، وما هي قدرتهم وصلاحيتهم لوزن مشاعرهم وانطباعاتهم وتحكم عقولهم، وإلى أي حد تعوَّدوا احترام قوانين بلادهم ومراعاة مصالح الشعب والبلاد؟، فلو أجاب المجيب بأنني لا أستطيع أن أطمئنك في هذه الناحية لقلت إنني لا أثق إذن بحال هذه البلاد ولا بمستقبلها، إنها بلاد في خطر دائم.

وانتهزت فرصة اجتماع أهل العلم وأصحاب الاختصاص في التاريخ أيضاً، وقلت: إنني لست صاحب دراسة واسعة واختصاص في تاريخ الشعب الإنكليزي والبريطاني (English History)، فلا أستطيع أن أجزم بمعرفة ما هو مصدر الثورة النفسية والخلقية، ومن هم قادتها وزعماؤها الذين نفخوا روحاً جديدة في الشعب البريطاني في حين استيلائه على دولة كبيرة كالحكومة المغولية، وسيطرته على شبه القارة الهندية والبلدان المجاورة لها، إن هذا الموضوع يدعو تلاميذ قسم التاريخ للتأمل والدراسة والتحقيق، ولكن الأدهش من ذلك ثورة العرب البدو الذين عاشوا في الصحارى، وكانوا في انحطاط خلقي وعقلي وعلمي من قرون طويلة، ولكن الإسلام أحدث فيهم ثورة عظيمة، وغيّرهم تماماً حتى أصبحوا قادة العالم وورثة الدول والحكومات القوية، وأثبتوا قدرتهم وجدارتهم للحكم والقيادة، ومواجهة المشاكل والقضايا الجديدة، ولقد أحسن شاعركم المعروف ظفر علي خان إذ قال ما معناه:

(ما هو السرّ في أن عدداً من رعاة الإبل لم يخضعوا للإمبراطورية الرومية والإيرانية، إن الذين كانوا يظنون الكافور ملحاً أصبحوا يُحوّلون التراب تبراً).

إنني أتساءل أيها الأخوة: لماذا لم يحدث فيكم أي انقلاب وثورة بعد الحصول على هذه الدولة الكبيرة، وتحمل هذه المسؤولية الجليلة ؟

مسؤولية العلماء في بلد حرّ مستقل:

ألقيت خطاباً في الجامعة الإسلامية ببنوري تاون، وقد حضره أساتذتها

وخـريجوهـا وطلابهـا، وأعيان المـدينة، وقـد ألقيت فيه الضـوء على مسؤولية العلمـاء وصفاتهم ومميـزاتهم المطلوبـة في بلد حرّ مستقـل، وضربتُ لـذلك أمثلة تـاريخية متعـددة، ونبَّهتُ إلى الأخطار التي يشعـر بهـا أحيـانـاً زائـر من الخارج أكثر من أبناء البلاد، منهـا الفوضى الاعتقـادية والسيـاسية، ومنهـا قلة اتصـال العلماء بـالشعب، ومنهـا بعـد أكثـر العلمـاء المعـاصـرين عن تقشُّف السلف المـاضـين وزهـدهم وإيثـارهم وتـوكلهم وبسـاطتهم وقنـاعتهم، ولا يخص ذلـك هذه البـلاد فحسب، بـل يشـاركهـا في ذلـك البلدان الأخـرى، وذكرت لهم أمثلة من السلف الذين لم يمض على عهدهم زمن طويل.

والخطر الرابع هو خطر العصبية اللغـوية والإقليميـة[1] الذي يهـدد هذه البـلاد، ويجب على العلمـاء مقـاومتـه بكـل مـا أوتـوا من قـوة، ثم انتقـدت مبالغتهم وتفاخرهم بالأسلاف كالتفـاخر بـالأنساب، وقلت لهم إنـه لا يغنيكم ولا ينفعكم التردد الدائم و«الورد» المستمرّ بـأن سلفنا كـانوا كـذا وكذا، فـلا تقوم دعوة على ذكر حوادث التاريخ، والتشدُّق بالثناء على الماضين، بـل إنها تقوم على الحركة والنشاط والدأب في العمل.

الحاجة إلى يقظة دائمة وحذر مستمر:

كـان لي خطاب في ٢٦/مـايو في حفلة تـرحيبية نـظَّمتهـا جمعيـة نشـر القرآن الكريـم في مسجد الفرقـانية حيـدر آباد كـالوني، كـان صاحب الـدعوة فيهم والمنظِّم للحفل أخـونا المحتـرم السيد محمـد جميل ـ المحـاسب العام (Accountant General) للحكـومة البـاكستانيـة سابقـاً ـ وقد كـان رائد هـذا الخـطاب ونقطتـه المركـزية قولـة سيـدنا عمـرو بن العاص الحكيمـة للعـرب المسلمين الفـاتحين لمصر: «أنتم في ربـاط دائم» وقد مـرّ شرح هـذه الكلمة وما يتعلق بها في خطابي في اليمن.

---

(١) وقـد ظهر هـذا الخطر عـارياً قبيحـاً عام ١٩٨٧ م في الحـروب والاشتبـاكـات التي وقعت بين المهـاجرين والسـنديين والبنجابيين، والأعمـال الوحشيـة التي ارتكبوهـا، والتي نكست رؤوس المسلمين في الهند حياءاً وخجلاً، وأصبح من الصعب عليهم انتقاد الاضطرابات الطائفية فيها والتعليق عليها.

أما هنا فقد صرحت بمسؤوليات أهل العلم وأصحاب الفكر والغَيْرة الإسلامية في هذه البلاد، وذكرت لهم أن الفتن قد تكون داخلية وقد تكون خارجية، وأن الفتن الداخلية أشدُّ خطراً، وأنكى جرحاً، وأبعد أثراً من الفتن الخارجية، وإذا دبّ الوَهْن والضعف الداخلي إلى بلاد أو شعب فإنه يأكله مثل الدود، كالأرضة تأكل الشجرة التي تتراءى من بعيد قوية سامقة، يستظل بها الناس ويستريحون تحتها، وإذا بعاصفة أو ريح عاتية تطيح بها وتقلعها، ألا فلتتمسكوا بهذا الأصل وهو «أنتم في رباط دائم»، وكونوا في حذر مستمر ويقظة دائمة ونشاط دائب وعمل متواصل.

لقاء مع رئيس باكستان الجنرال محمد ضياء الحق
وحديث مع صحفي باكستاني عن طريق الوصول إلى الحُكم الإسلامي:

كان لي شرف لقاء الجنرال ضياء الحق في هذه الفترة القصيرة، ولم يكن في برنامج الرئيس ضياء الحق أن يزور كراتشي، لكنه زار كراتشي مصادفة، وجرى اللقاء، وكان ممن توسط في تحقيق هذا اللقاء بل محركاً له الأستاذ ظفر أحمد الأنصاري، وفي هذا اللقاء قدَّمت إلى الرئيس تمثال قبة الصخرة الرخامي، وكان قد أُهدي إليّ في عمان، وكانت هذه الهدية السنيّة إشارة خفية إلى أن استخلاص المسجد الأقصى المبارك مسؤولية من مسؤوليات رئيس مؤمن، لبلد مسلم كبير كباكستان.

في نفس الزيارة لباكستان كما أذكر، وجَّهَ إليَّ أحد المراسلين لصحيفة واسعة الانتشار في باكستان سؤالاً، وهو أن الرئيس يعد منذ مدة طويلة بأنه سيُحوّل هذه البلاد إلى بلد إسلامي بالمعنى الصحيح، ويطبّق الشريعة الإسلامية، ولكن هذا الوعد لا يزال بعيداً عن التطبيق، ولا يبدو أي مؤشّر إليه، فما هو رأيي في هذا الصدد؟.

ردّاً على هذا السؤال الشائك قلت: إن هناك طريقتين أو موقفين؛ أحدهما أن يقول رجل مسلم لا يبدو في مظهر ديني علني، أنه ينوي بناء مسجد، فتقولون له ما شغلك ببناء المسجد وما بالك ببناء بيت من بيوت الله؟

ألا تستحيي، هل دخلت المسجد مرة، وهل وفق له أحد من أجدادك؟ فإنه يتخلّى عن هذه الفكرة منفعلاً بهذه المجابهة الشنيعة، والموقف الثاني أن تقولوا له: ما شاء الله! يا سبحان الله! ما أطيب هذه الفكرة، وما أحلاها، وفقك الله، وقوّاك، فإن أمثالك قد قاموا ويقومون ببناء المساجد، وهَنِيئاً لك هذا الشرف، ندعو الله أن يقدر لنا المساهمة في هذا العمل الجليل، فنكون عضداً لك، فإذا كان ذلك الرجل متردداً، أو ضعيف الإرادة فإن إرادته تقوى بهذا الموقف، ويعزم على تحقيقه، ويسعد ببناء المسجد.

وتذكَّرت بهذه المناسبة كلمة قيمة لأحد العلماء في اليمن، وقد تجلَّت فيها الحكمة اليمانية، إنها قصة نفس العام حين كنت في زيارة لليمن في لقاء مع أحد العلماء، وتطرق الحديث إلى منهج الدعوة، فقال هذا العالم: إن هناك طريقتين، يمكن أن يختار إحداهما الدُّعاة، أولاهما إيصال الإيمان إلى رجال الحكم، والأخرى إيصال رجال الإيمان إلى كراسي الحكم، وبالطريق الأول واصل الإمام الرباني الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي كفاحه للدعوة والتربية، وإشعال الغَيْرة والحمية في قلوب رجال البلاط وحاشية الملك، والمسؤولين عن الحكم، يقيم بهم اتصالاً، ويشعل فيهم جمرة الإيمان وأثمرت جهوده في مدة قريبة[1].

وأثبتت التجارب الأخيرة أن بعض الجماعات أو الأحزاب لا تريد إيصال أهل الإيمان إلى كراسي الحكم فحسب، وإنما تريد أن يصل أهل الإيمان إلى الحكم في بذلة خاصة، يحملون شعاراً أو لافتة لمنظمة خاصة، ولا يقبلون أقل من ذلك قيد شعرة.

سافرنا في ٢٩/مايو من كراتشي إلى دلهي، ومن ثَمَّ إلى لكهنؤ، ولم يبق بيننا وبين رمضان إلّا يومان، فذهبنا إلى راي بريلي حيث اشتغلنا بالاستعداد للشهر المبارك.

---

(١) مضى هذا الحديث مع العالم اليماني في الصفحة ٢٣ ـ ٢٤ من هذا الكتاب.

«رجال الفكر والدعوة» (الجزء الرابع)
(حياة الإمام الدهلوي):

ذكرنا في الجزء الأول من «مسيرة الحياة» كيف كان بدأ تأليفي لسلسلة «رجال الفكر والدعوة»، وما هي حاجتها والدوافع إليها، وقد نشر الجزء الثالث منه الذي يشتمل على حياة الإمام السرهندي رحمه الله تعالى، وأعماله ومأثرته التجديدية الإصلاحية الكبيرة، ودوره الثوري الرائد البنَّاء العظيم عام ١٩٨٠ م، ونشرت ترجمته بالعربية بدار القلم ـ الكويت ـ، وقد حالت دون الاستمرار في الاشتغال بالجزء الرابع الذي يشتمل على حياة الإمام الدهلوي وخلفائه الأسفار والرحلات المتواصلة والأشغال الكثيرة، فطالت الفترة بين الجزئين الثالث والرابع إلى أن جاء أوانه عام ١٩٨٤ م.

لقد كانت شخصية الإمام الدهلوي أعلم الشخصيات الإسلامية بالكتاب والسنة، وأعرفها بالمصادر الإسلامية وممثلها المتحمس، ومن أصحاب الاجتهاد والتفكير الإسلامي الدقيق، الذي ولد به عهد جديد، وصنع تاريخاً جديداً بعد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى، فلا شك أنه صاحب الدور القيادي في شبه القارة الهندية، وهو فاتح عهد جديد يقوم على الحفاظ على مذهب أهل السنة والجماعة، والتفكير الإسلامي الصحيح، والتحقيق العلمي، وتدريس العلوم الشرعية، ونشر الكتاب والسنة، والحركات الجهادية والإصلاحية، وإنشاء المدارس الإسلامية والدفاع عن الملة الإسلامية في الهند، والحفاظ على شخصيتها وكيانها وأصالتها، ولا يزال هذا العهد مستمراً وسيدوم قائماً إن شاء الله تعالى.

ومن الغريب جداً أنه لم يتفرَّغ أحد في هذا العهد الذي يمتاز بكثرة المؤلفات في التراجم والتاريخ، بإفراد كتاب شامل يلقي الضوء على سيرة الإمام الدهلوي ومآثره الإصلاحية والعلمية، ومكانته في العلم والتحقيق، وأعماله الجليلة في الكشف عن حِكَم الشريعة الإسلامية وأسرارها، وجلالة شأنه في إدراك الحقائق الدينية والتعبير عنها، مع أنه كان دَيْناً في عنق جميع

العلماء وأصحاب الأقلام الذين يمتُّون إليه بصلة، لقد كان هذا الفراغ نشعر به في الهند نفسها فضلاً عن الأقطار العربية، لا سيما مصر والشام والحجاز التي نشرت فيها مأثرته العلمية الرائعة: «حجة الله البالغة»، بدون أي مقدمة تليق بشأنها، وتعريف بالمؤلف، وتعليقات علمية.

قد استمرت الصلات بين الإمام الدهلوي وأسرته وبين أفراد أسرتنا من أجيال متعاقبة في التعليم والتربية والإرشاد، فكنت أتمنى وأجد في نفسي داعياً قوياً إلى أن أُوفَّق لهذا العمل، إلى أن وفقني الله تعالى لإكمال هذه السلسلة من «رجال الفكر والدعوة» بتأليف هذا الجزء المشتمل على حياة الإمام الدهلوي وأعماله، وبذلك استكملت تلك الحلقات من هذه السلسلة التي كنت خططت لها من ذي قبل، ولله الحمد من قبل ومن بعد[1].

ولكن هذا العمل لم يكن يسيراً، فقد كانت الحاجة ماسَّة لدى الكتابة عنه إلى دراسة أوضاع العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر، علمياً ودينياً وفكرياً وسياسياً، كما كان يلزم استعراض أوضاع الهند في هذا القرن، ثم إلقاء الضوء الكاشف على مآثر الإمام الدهلوي الإصلاحية التجديدية ومزاياه العلمية، لا سيما مأثرته العظيمة في الكشف عن مقاصد الشريعة الإسلامية، وحِكَمها وأسرارها، والكتابة المتناسقة المدعمة بالأدلة عنها، والتعريف بكتابيه الرائعين العظيمين: «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء»، والإبانة عن الدور القيادي الرائد الذي قام به الإمام الدهلوي حين كانت الدولة المغولية في الفوضى السياسية وحالة الاحتضار، وأوشكت على الدمار في القرن الثاني عشر، ومحاسبته لمختلف طبقات الأمة، ودعوتها إلى الإصلاح والانقلاب وتغيير الأوضاع، وكان من الضروري أن يذكر معه خلفاؤه

(١) وقد صدرت من قلم المؤلف كتب أخرى تتعلق بعهود ما بعد الإمام الدهلوي، من أهمها وأكثرها حجماً واحتواءاً كتابي «سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١ - ٢) وهو يشتمل على أكثر من ألف صفحة، وقد طبعه المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ الطبعة السابعة، وجعله الحلقة الأخيرة من سلسلة رجال الفكر والدعوة، كما قد كتب المؤلف عن حياة الشيخ الداعية محمد إلياس الدهلوي - رحمه الله تعالى - مؤسس جماعة التبليغ، بعد وفاته عام ١٩٤٤ م.

وأصحابه الفضلاء الذين أسهموا بالقدر الكبير في بناء هذا العهد الجديد، وقامت على أيديهم حركة قوية لنشر الكتاب والسنة ومناصرة السنة السنية، ومكافحة البدعة والشرك والخرافات، ثم قامت على أثرها حركة كبرى للجهاد وإحياء الخلافة الإسلامية.

وقد انتهيتُ ـ والحمد لله ـ من تأليف الكتاب عام ١٩٨٤ م وصدر في مايو ١٩٨٤ م، ومما زاد في قيمة الكتاب وأهميته أنه اشتمل على خلاصة المباحث الموجودة في كتابي «حجة الله البالغة» و «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء»، اللذين لم يمعن في دراستهما كثير من أهل العلم والفضل فضلاً عن العامة، وتضيق كل يوم دائرة قرائهما لبعدهم عن اللغة العربية والفارسية، وانخفاض المستوى العلمي العام.

وقد نقل الكتاب إلى العربية العزيز سلمان الحسيني الندوي، ونشرته دار القلم بالكويت، وهكذا ظهر تقرير مفصل متسلسل عن الشخصيات الإصلاحية والتجديدية وجهودهم المستمرة في اللغة الأردية والعربية، ولم تحظ أي لغة من لغات العالم الإسلامي بمثل هذه السلسلة، ولكن المؤسف أن كثيراً من الناس لم يشعروا إلى الآن بأهميتها وفضلها والحاجة إليها.

الفصل الثالث

حركة إحياء الهندوسية الشاملة لعموم الهند - خطاب تاريخي إلى إنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند - مقتل إنديرا غاندي، وردّة فعل في الهندوس ضد السيخ، وبيان موقفي - رحلة مُهمّة إلى الحجاز - جولة في سبيل نشر رسالة الإنسانية - رحلة إلى إنكلترا وبلجيكا

عاصفة إحياء الهندوسية
وخطر كبير على الأمة الإسلامية الهندية:

لقد مَرَّ بالقُرَّاء في الجزء الأول من «في مسيرة الحياة» أن حكومة حزب «جنتا» التي قامت إثر نتائج الانتخابات عام ١٩٧٧ م كُتِبَ لها الزوال عام ١٩٨٠ م، وكان ذلك لنتائج الانتخابات العامة في سنة ١٩٨٠ م، وعاد حزب المؤتمر الوطني حزب أنديرا غاندي إلى الحُكم. وقد كان يتوقع من حزب يقوم على أسس وأصول، وله خلفية تاريخية، وطريقة معلومة، ومنهج خاص وبيانات معروفة، مقررات واضحة في ترقية البلاد وبنائها ورفاهيتها، والانسجام بين عناصرها المختلفة والتعايش السلمي بينها، وكان يتوقع من حكومته، ولا سيما من إنديرا غاندي - رئيسة الوزراء - أن تضغط على الأخذ بأصول الحزب وضوابطه والالتزام ببياناته وتحاول جهدها محاولات جادَّة مخلصة في إعادة الثقة المتبادلة بين الأكثرية غير المسلمة والأقلية المسلمة، والوحدة القوية المتينة بينهما، ولا تدع أي حركة أو محاولة تنفخ في الرماد، وتشعل

النيران، وتحرك العواطف وتهيجها بين الطائفتين وتدعو إلى العنف والعدوان، فتضطر هذه الأقلية إلى تركيز طاقاتها وصلاحياتها وعواطفها للدفاع عن نفسها والحفاظ على كيانها ومُثُلها (Values) وعقائدها وشعارها، التي هي أحب إليها من حياتها ونفسها، بدلاً من أن تفسح لها المجال لتركيز طاقاتها وصلاحياتها، وكفاءاتها وعواطفها للعمل للدفاع عن البلاد، والحفاظ على أمنها وسلامتها، والجهد للنهوض بها وترقيتها، الأمر الذي تحتاج إليه البلاد احتياجاً شديداً ولا بقاء لأي جمهورية بدونه.

ولكن من مفاسد الأنظمة الانتخابية الحديثة أنها لا تفرق في الحصول على غاياتها وأهدافها بين المشروع وغير المشروع والصالح والطالح، وتتغاضى عن النظر والتمييز بين الصحيح والفاسد، ويطبق فيها الأصل الغربي القديم في سياستها وفلسفة أخلاقها، أن «الغايات تبرّر الوسائل» (The End Justifies The Means)، ثم عندما تنجح هذه الوسائل في الحصول على الأهداف، لا يمكن التغاضي عنها، والتخلّي عنها بتاتاً، فيضطر أصحاب الحكم والسياسة إلى الإغماض ـ حفاظاً على الحكومة ـ عن الأسس والضوابط الخلقية، والأهداف الصالحة والمثل العليا والحذر من كل ما يسيء ويؤثر على الحكم، ويفقدها القبول في الناس، أو يعرِّض الحكومة لغضب حزب أو طائفة مؤثرة لها نفوذ في الدوائر الحكومية.

فلم تر أنديرا غاندي لضعفها كامرأة ـ فهي على مواهبها امرأة على كل حال ـ وشعورها لذلك بمركب النقص، أو لميول المستشارين والحاشية، وميول عامة المسؤولين الحكوميين في مختلف الولايات لحركة الصحافة الهندية والإنجليزية التي هبَّت كعاصفة هوجاء، فلم ير الحزب الحاكم والحكومة الجديدة أي ضرورة للالتزام بأصول حزب المؤتمر الوطني القديمة، وأسسه ومثله، وفلسفة عدم العنف (Non- Violence) التي رفع شعارها غاندي إزاء الدعاية المغرضة المعادية للمسلمين وحركة إحياء الهندوسية، واتجاهات العنف والعدوان التي ملكت الأعصاب. وبدأت الحكومة تتساهل في هذا الأمر وتقصِّر فيه، ومنحت حرية مطلقة جامحة لحركات إحياء

الهندوسية التي شملت الهند طولاً وعرضاً، لا سيما حركة ويشو هندو بريشد (المنظّمة العالمية للهندوس) وشِيْوسينا (جيش الإلّه شيو) وآر، ايس، ايس في نشاطاتها العدوانية الإرهابية.

المطالبة بتحويل المساجد التاريخية الكبيرة:
إلى معابد هندوسية:

لقد عقدت حركة «ويشو هندو بريشد» جلسة سِرّية في ٧ ـ ٨/أبريل ١٩٨٤ م، شارك فيها عامة الهندوس المتطرفين، وقد صدرت فيها قرارات بإبادة المسلمين وتصفيتهم، حتى لا تبقى على أرض الهند جماعة أو منظمة أو حركة باسم الإسلام، وقدموا مطالبة ملحة بتحرير مسجد «كيان بافي» في مدينة بنارس، ومصلى العيد بمدينة «متهرا»، والمسجد البابري بمدينة «أجودهيا» ـ الذي اقتنع عامة الهندوس بأنه مولد الإله «راما» وأن الملك بابر هدمه فحوله إلى مسجد[1] ـ وتحويل الأول إلى معبد «ويشو ناته»، والثاني إلى «مولد كرشن»، والثالث إلى «مولد راما».

وانصرفت الصحافة الهندية والإنكليزية في تلك الآونة بكل حماسها واندفاعها وحميتها في تأييد هذه المطالبة ونشرها على النطاق الواسع، لقد كان هذا الواقع نذير خطر كبير ودلالة على عاصفة ترى آثارها في الأفق المبين، وتغشى سحابتها على طول البلاد وعرضها، ولم يكن من الممكن في هذا الوضع أن يلتفت إلى أي عمل بنّاء ، وأن تؤدى الخدمات الدينية والكتابية والعلمية في طمأنينة ورخاء، بل كانت الملة الإسلامية الهندية تواجه خطراً جسيماً مبيداً.



(١) وقد صدرت للرد على هذه الفرية والدعاية الكاذبة كتابات علمية قوية من كل من «المجمع الإسلامي العلمي» (ندوة العلماء لكهنؤ ودار المصنفين أعظمكره، وغيرها من المؤسسات، ومن أقلام المؤرخين المسلمين، وبعض المؤرخين الهندوس المنصفين، وقد أثبت فيها بدلائل قاطعة أن هذا الأمر ليس له أي سند تاريخي، فلا هدمه الملك بابر ولا حوّله إلى مسجد، وليس هو مولد «راما»، وإن كان فإنه خارج المسجد على مسافة، وقد ألّف الأستاذ صباح =

وقد كان هذا العبد الضعيف قد آتاه الله تعالى ـ لنشأته في بيئة دينية خاصة ودراسته للكتاب والسنة، والتاريخ الإسلامي دراسة بصيرة ـ هذا الإدراك العام (Common Sense). والواقع أنه تفطن ـ رغم انصرافه إلى العلم والأدب، واشتغاله بالمطالعة والدراسة والتأليف، والرحلات المتتابعة خارج الهند وداخلها، والنشاطات الدعوية، والاهتمام البالغ بالشرق الأوسط وأوضاع الأقطار العربية وقضاياها ـ إلى أنه لو صرف البصر وأغمض عن هذه الحركة المستطيرة وهذه العاصفة الخطيرة والتحدّيات الشريرة، فإن هناك ـ لا سمح الله ـ خطراً كبيراً أن تتحوّل هذه البلاد إلى أسبانيا الثانية (الأندلس، الفِرْدوس المفقود)، وهو ما يحلم به الهندوس المتعصبون من زمن غير قليل[١].

وقد كانت المحاولة المؤثرة الأولى في نظري هي إقناع شخصية كبيرة بخطر هذه الدعاية وآثارها. كانت أكبر شخصية حكومية في البلاد (رئيسة الوزراء) ورئيسة الحزب الحاكم الذي حرَّر البلاد، فكتبت ـ مراعياً تقاليد أسرتي وطبيعتي الخاصة ومكاني ـ رسالة طويلة في الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر عام ١٩٨٤ م إلى إنديرا غاندي، وحاولت إيصالها إليها بيد أمينة، ولكن قدَّر الله تعالى أن يقع ذلك الحادث الهائل قبل وصول رسالتي إليها، الذي وقع في ٣١/أكتوبر ١٩٨٤ م نتيجة أحداث سابقة لا حاجة هنا لتفصيلها، فقد عرفها كل الناس[٢].

ولا تزال لهذه الرسالة خطورتها وأهميتها وفائدتها، فلم يكتف فيها بالتنبيه إلى خطر حركة الإحياء الهندوسية التي هبَّت كعاصفة شديدة، بل لفتُّ

= الدين عبد الرحمن الأمين العام لدار المصنفين كتاباً علمياً مدعماً بالأدلة بعنوان: «المسجد البابري في ضوء خلفيته التاريخية» وهو كتاب يستحق الدراسة، كما قد كتب في هذا الموضوع بعض الهندوس العادلين كالدكتور كوئل شكلا، وجندانند داس كبتا وغيرهما.

(١) ذكر لي بعض المطّلعين أنه قد استُعيرت بعد حادث التقسيم كتب كثيرة من المكتبات العامة تتعلق بموضوع جلاء المسلمين من الأندلس، ولا تزال هذه الدراسات مستمرّة.

(٢) كان أكبر الدوافع له هو الإجراء العسكري بمعبد السيخ الذهبي (Golden Temple) وشنّ الهجوم العسكري ضد منظمة السيخ المطالبة باستقلال «خالصتان» المتحصنة بهذا المعبد، وحركة رد الفعل العنيفة التي ظهرت في السيخ.

فيها الانتباه إلى الفوضى الخلقية والفساد العام الذي ينخر البلاد ويأتي على الأخضر واليابس. .وتستحق هذه الرسالة أن يدرسها قادة البلاد ورؤساء الحكومات والمسؤولون الإداريون والمثقفون المعاصرون، بل قادة الجماعات الإسلامية والسياسيون والمثقفون المسلمون أيضاً، لأنهم أحق بأن يفكّروا هذا التفكير ويتخذوا هذا المنهج في عرض وجهات أنظارهم أمام مسؤولي الحكومة، والمخلصين الأوفياء لهذه البلاد. كانت الرسالة باللغة الإنكليزية، وهي أمانة تاريخية ووثيقة باقية ـ إن شاء الله ـ ونصُّها كما يلي:

رسالة تاريخية إلى أنديرا غاندي:

المكرَّمة إنديرا غاندي ـ رئيسة وزراء الهند ـ تحيات طيبة؛

إنني أشكر دولتك على إتاحة فرصة طيبة لي للحديث كتابياً، في وقت تمرّ فيه هذه البلاد بمرحلة مهمة ومفرق الطرق، وتحتاج إلى توجيهها بجرأة وذكاء وإخلاص، ووجهة نظر صالحة تحفظ أهل البلاد من الفوضى وإساءة الظنون فيما بينهم والمشاكل التي لا داعي لها، وتوحّد صفوفها وتشدُّ أزرها.

إنني لا أريد أن أنفق وقتك الثمين في القضايا الجزئية، وفي رفع شكاوى الأقلية الكبيرة (أقلية المسلمين) وذكر حاجاتهم ومتطلّباتهم التي رُفعت إليك مراراً، وتكراراً، ولا تخفى عليك، إنَّ ما أريد أن أعرضه الآن يتعلق بمصلحة البلاد العامة، ويكون حديثاً أساسياً.

إن النقطة الأولى التي أريد أن أثيرها هي أنه لا طريق أسلم وأصلح وأضمن لسلامة هذه البلاد وضمانتها وبقائها واستحكامها، وأدائها لدورها الكبير الرائع في العالم المعاصر وفي الأوضاع المُعقَّدة الخطيرة، من ذلك الطريق الذي اختاره قادة التحرير المخلصون لهذه البلاد: والدك جواهر لال نهرو، ومولانا أبو الكلام آزاد، وأصحابهما وزملاؤهما، وهو طريق العلمانية الصحيح والجمهورية الصادقة، والوحدة بين المسلمين والهندوس، مهما كان هذا الطريق طويلاً، أو صعباً عسيراً، وأن أي طريق يقترح غير هذا الطريق مهما كان سهلاً يسيراً يؤدي إلى نجاح موقّت، فإنه مدمِّر للبلاد، ويقضي

على آثار تلك التضحيات الجسيمة التي قام بهـا قادة التحـرير، ويعـرض هذه البلاد للقضايا والأخطار والتحدّيات التي لا يستطيع أن يواجهها هذا الشعب.



إن أول مـا أريد أن أفضي بـه إلى دولتك كتلميـذ من تلاميـذ الديـانات والفلسفة والأخلاق والتاريخ البشري، وأرى أنه سوف لا يقولـه من تغلب عليه النزعة السياسية أو المنهج السياسي، هـو أن هذه البـلاد إنما تـواجه خـطرين رئيسين كبيرين يستحقّان الاهتمام البالغ، أحدهما: الميل الجامح إلى الـظلم والعـدوان والعنف والاستهانـة بالأنفس والأمـوال والأعراض ـ من أي طبقـة أو فـرقة كـانت ـ ومن مظاهـر ذلك الاضـطرابـات الـطائفيـة، والنـظام الـطبقي، واللمس المنبـوذ، وإبادة الأسـر والعشائـر بكاملهـا بسبب ذلك، وقتـل النفس لأجل فائدة مالية حقيرة، والجـرائم الوحشيـة البشعة، وكثـرة المظالم ووقـائع العدوان، وأخيراً مما يندَى له الجبين حياءاً وتُنكس الرؤوس ذلاً وعاراً، إحراق النسـاء وهن على قيـد الحيـاة، أو قتلهن بـالسم لأنهن لم يـأتين بـالجهـاز المطلوب ولم يقمن بالمتطلبات الجائرة.

ومعلوم لدى كل من يعتقد في الديانات أن خالق هذا الكون والمتصرف فيـه الـذي يحبّ عبـاده أكثـر من الآبـاء والأمهـات، لا يـرضى هـذا العمـل الوحشي، بل إنه يمقته ولا يمهله طويلاً، وأنه لا بقاء مـع ذلك لأيّ بلد مهمـا بـذلت من جهود وصـرفت من قوى وطـاقات، ولا تقـدّم ولا رخـاء، ولا يبقى ذلـك المجتمع الـذي يرى كـل هذه الأحـداث ويسكت عليها، أمـا الذين لا يعـرفـون للعقيـدة الـدينيـة معنى فـإنهم لا ينبغي أن يخفى عليهم أن الـدول والإمبراطوريات الكبيرة العتيـدة ـ التي كان لهـا دوي عظيم في عهـودها، ولا تـزال نقوشهـا قائمـة على لوح التـاريخ ـ لم تستـطع أن تتماسـك مـع الـظلم والعدوان، وانهارت ودُمّرت تدميراً وأصبحت أحاديث تُروَى وحكايات تذكر للعبرة.

فـلا بدَّ من العنـاية بهـذه الأوضاع الخـاصة من دون تـأخير، والحـاجة شديدة ملحّة إلى أن تكون هناك حركة قوية لمقاومة هذا الوضع الشـائن أقوى

وأنشط من حركة الانتخاب والقضايا السياسية، ولا بُدَّ من القيام لأجل ذلك بجولات في القرى والأرياف، والأحياء والحارات، ووضع القوانين الصارمة، وإقامة التعزيزات الشديدة التي تكون عبرة ونكالاً، واستخدام وسائل الإعلام كلها (Public Media) وإدارتها بكاملها (Administration) لمكافحة هذا الوباء، وإلاّ فلا بقاء للبلاد.

* * *

والشيء الثاني الذي يستحق العناية والمعالجة، هو موقف الليونة والمجاملة مع حركة إحياء الهندوسية (Hindu - Revivalism)، والمنظمات المتطرفة كحركة «هندو بريشد» و«شيو سينا» و«آر، ايس، ايس»، والميول والنزعات المتطرّفة الداعية إلى العنف والعدوان. إن هذا الموقف يمكن أن يجر للحكومة بعض المنافع والمصالح المادية المُوقّتة، ولكن ـ في نفس الوقت ـ زرع لأرض البلاد بالألغام والمواد المتفجرة المدمرة التي لا تبقي ولا تذر، ولقد كان الزعيم غاندي يدرك هذه الحقيقة كل الإدراك، أن العصبية والكراهية الطائفية والعنف سيؤدي دوره أولاً بين عنصرين مهمين (المسلمين والهندوس) من عناصر البلاد، ثم يظهر بالتالي في أشكال الخلافات الفرعية الجزئية بين مختلف طبقات الأكثرية، والحروب بين الطبقات والقبائل والعصبيات اللغوية والإقليمية والسلالية، وحين ينتهي من دوره، وتأجيج ناره بين هذه الطوائف وفي هذه الأشكال، تصبح هي نفسها ناراً تتلظّى ـ والنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل ـ تأكل البلاد والأهالي الآمنين، وتلتهم السكان المطمئنين فتتحطم البلاد، ولا يبقى إلاّ الرماد.

ولذلك فإنني أُصرّح بأن هذه الحركة العدوانية للإحياء (Revivalism) والعنف، ومطالبة طائفة واحدة بتغييرها وتخليها عن شخصيتها ومميّزاتها الدينية والحضارية، وتناولها بالنقد والهجوم، وإيقاظ التاريخ النائم، بل إحياء التاريخ الميّت الذي أصبح نسياً منسياً، هو كإيقاظ أسد نائم يفترس المارين إذا استيقظ، والتذكير بالحوادث التاريخية القديمة التي مضت عليها قرون وأجيال وإحياؤها، ونبش القرون، وإزالة التطوُّرات التي طرأت على هذه

البلاد عبر القرون، وتحمَّلها أهلها الواقعيون الغيارى برحابة صدر وسعة أفق، إنما هو في الحقيقة تعريض لهذه البلاد للمشاكل والقضايا والأخطار التي لا حاجة لها ولا داعي إليها، ولا مُتَّسع من الوقت عند أهلها للنظر فيها، وتصرف بها طاقات الحكومة والإدارة إلى غير جهتها وفي غير موضعها، كان واجبنا أن تُوفَّر لبناء هذه البلاد وإحكامها، والحفاظ عليها.

فيجب أن تردم الفجوة قبل أن يفوت الأوان، ويسد ما وقع من شقوق في سدّ البلاد بقليل من العناية والجهد قبل أن يتسع الخَرْق على الراقع، ولا ينبغي أن يلتفت بالنظر إلى هذه المصالح العامة الأساسية، إلى غضب شخص أو حزب، أو كراهية إدارة إقليمية أو ولاية، أو أن تتأثر نتائج الانتخابات، لأن البلاد أعلى وأعز، والمبادىء أقدم وآثر من المنافع الموقتة، والمصالح المحدودة، وليست ذلك للمتمسك بالمبادىء فحسب، إنهن مقتضيات السياسة البصيرة الواقعية العميقة الغَوْر، ولا أرى داعياً إلى بسط وشرح أكثر للموضوع، ففيكم من توقُّد الذكاء وإدراك المغزى، وصلاحية التوصل من الإشارات إلى المواضيع المقصورة، ما يقنعني ويطمئنني.



أما الأمر الثالث الذي يحتاج كذلك إلى عناية بالغة، فهو الفوضى الإدارية والخلقية (Corruption) التي بلغت حدّاً لا أجد له مثيلاً في تاريخ هذه البلاد سابقاً، فلا تنظروا في هذا الصدد إلى التقارير الرسمية والتنظيمات الظاهرة وفخفخة الشؤون الإدارية وتقدمها المادي، بل اسألوا عامة الأهالي، وسكان الطبقة المتوسطة، والناس الذين يترددون إلى المحاكم والإدارات والمكاتب، ويسافرون بالقطارات والطائرات والحافلات (Buses)، ويذهبون إلى مراكز البوليس، وإدارة الهاتف والمستشفيات، ويحتكون بأنواع المعاملات من المبايعات والمقاولات، ومختلف شعب الحياة، فلا عمل إلاّ بالرّشى، وإذا أدّيت الرشوة فكل عمل ممكن، يمكن به تخليص المجرمين وصيد الأبرياء، وإنفاذ حكم جائر، وإشعال النار الطائفية إلى تسريب أسرار الدولة والجاسوسية، والأدوية ليست خالصة، والأغذية ليست صالحة،

والإسعاف الطبي صعب المنال، والتسهيلات الطبية للمرضى تذهب سُدى، وقد بلغت القساوة أقصى غايتها، وتحمل الحكومة خسائر يومية باهظة تبلغ مئات الملايين في مصلحة القطارات والطائرات للرشى الفاشية.

ويرجع كل ذلك في أصله إلى الحُبّ المفرط للمال والنهامة والجشع للمادة، وعدم الخشية من الله، وفقدان المواساة والرحمة على الضعيف، وعاطفة الوفاء للبلاد، وإيثار مصلحتها على المصالح الفردية، ولأجل كل ذلك يسرع إلى هذه البلاد - رغم رقيّها وتقدمها في الصناعة والسياسة، والعلاقة الدولية ونشر التعليم ومحو الأمية ونسبة التعليم المتزايدة - رغم كل ذلك يسرع إليها الزوال وتقترب إلى الفناء، فقد مل الناس الحياة، وسئموا العيش، ومما يدعو إلى الخجل والحياء والشعور بالفشل والإخفاق، أنهم يذكرون عهد العبودية للإنكليز ويتمنونه، حين كانت الإدارة محكمة أمينة، وكانت مواقيت القطارات مضبوطة، والمستشفيات مأوى المرضى، يجدون فيها الراحة والطمأنينة والعلاج، وكان الطلاب ينجحون في الاختبارات بجدهم واجتهادهم، وكانت المناصب والوظائف تولّى أهلها من ذوي الكفاءة والاستعداد، وأصبحت هذه الأمور كلها الآن حديث كان.

* * *

هذه هي النقاط الثلاثة التي تستحق العناية الفورية، وعلى أساسها يمكن أن تقوم حكومة قوية طويلة، ولا أريد أن أكتمك أن في ذلك دخلاً كبيراً لطريقة الانتخاب الحالية، وإرضاء الناخبين على حساب كل شيء، والخضوع لمتطلبات الدوائر الانتخابية، وتوفير التسهيلات الزائدة لأعضاء البرلمان ومجلس الأمة، بحيث يرون لأنفسهم الحق أن ينفذوا ما يشاؤون من مشروع وغير مشروع، والعضوية في البرلمان طير ذهبي أو الطير الأسطوري الذي يرد ذكره كثيراً في الشعر الفارسي والأردي وأمثالهما، وهو «هما» إذا جلس فوق هامة إنسان أو طار عليها جاءه الملك والسلطان.

وأقول - أخيراً - كرجل له دينه وعقيدته، وكطالب لتاريخ العالم

السياسي القديم والحديث، ومؤلف في موضوع التاريخ، أنه قد أثبت التاريخ والتجارب الماضية، أن أكبر سياسة وأعظم دبلوماسية هو «الإخلاص»، وهو الذي ينتصر أخيراً، ويُكتب الفتح لصاحبه، والعاقل الكيّس من يجعل أعداءه أصدقاءه، وأصدقاءه أحبته المفدين له، هذا هو الإخلاص الذي ظهر دائماً في حنان الأمهات، ورحمة الأنبياء ورأفتهم، وشفقة المربّين المخلصين، وفي علو همة القادة الذين يحررون البلدان ويؤثرون الأباعد على الأقارب، وصلاح البلاد وازدهارها، وعزها وتقدمها على عزهم ومجدهم، ومصالح أنفسهم وأسرتهم، ولا يزال هذا الإخلاص يحمل من الطاقة ما يستطيع به الإنسان أن يحمي هذه البلاد الواسعة العظيمة التي تضم بين جنبيها مختلف الشعوب والديانات، ونحن نؤمّل ذلك ونرجوه والحاجة شديدة إليه.

وأخيراً أعتذر لطول الحديث، فقد أطاله الأمل في حسن الاستماع وتوجّع القلب المكلوم.

المخلص
أبو الحسن علي

مقتل أنديرا غاندي
وردّ فعله:

كان يوم ٣١/أكتوبر عام ١٩٨٤ م، وكنت كعادتي منصرفاً في زاوية إلى الكتابة والتأليف، إذ دخل عليّ العزيز عبد الرحمن ـ الذي كان مساعدي في الأمور المنزلية ومدير مكتبتي المتواضعة ـ وقال بناءاً على مكالمة هاتفية من دلهي: لقد أصيبت أنديرا غاندي بحملة قاتلة، ماتت على أثرها.

لقد كان وقع هذا الحادث على عقلي وتفكيري شديداً هائلاً، وهدّ أعصابي، وأهمّني مثل حادث مقتل الزعيم غاندي، وخفت أن يكون ذلك التصرف المجنون من مسلم، يؤدي إلى مقتلة عظيمة في المسلمين، ويفلت الزمام من الحكومة أيضاً، ولكن العزيز عبد الرحمن أخبرني بعد قليل أن هذه العملية الإجرامية كانت بأيدي بعض السيخ من الحرس الخاص (Security)

لأنديرا غاندي، فهناك شعرت بالطمأنينة، وحمدت الله ـ تعالى ـ على أنه صرف هذه الكارثة عنا نحن المسلمين.

وكان من نتيجة ردّ الفعل الذي أحدثه هذا الواقع موجة عارمة من الغضب والمقت ضدّ طائفة السيخ، تعدّت الحدود والقياس، وتجاوزت جميع مقاييس العدل والقسط والوعي والذكاء، فكانت حركة رد الفعل هذه على أشدّها وأقساها في مدينة دلهي التي قتل فيها ـ كما يقال عنها ـ حوالي خمسمائة من السيخ، وقد كانت الإجراءات الانتقامية الوحشية المجنونة أشد وأفتك من القتل، فكم من أماكن قبض فيها على السيخ، ورش عليهم البترول وأشعل فيهم النيران وهم أحياء، وكم منهم من رُبِطَ بدراجته أو سيّارته أو أي عمود من الأعمدة وحرق، وانتهبت الأملاك، ونهبت المحلات التجارية، وقد كان في كثير من هذه المواضع تجري هذه الإجراءات على مرأى ومسمع من البوليس وبإيماء منهم أو تغاضيهم على الأقل كما هو أمر مشهور.

ومن المؤسف جدّاً أن بعض المسلمين أيضاً في بعض الأماكن شاركوا المعتدين، لقلة تربيتهم، وخلوّ قلوبهم من الإيمان وخشية الله تعالى، ونهامتهم للمال والمادّة في إجراءاتهم التعسفية، وقاسموهم الأموال والأسلاب.

* * *

ولما علمتُ ذلك رأيت من واجبي أن أرفع صوتي ضد هذه الهمجية والضراوة البشعة، لا سيما أن أحاول كفّ هؤلاء المسلمين الجهلة، وسمعت أن بعض الممتلكات المسلوبة وصلت بأيدي المسلمين إلى قرية قريبة من قريتنا (دارة الشيخ علَم الله الحسني)، فبدأتُ أقول في مجالسي وأكرّر أن كل من يدخل في بيته هذا المال فسوف تنزل عليه البلايا، وتفتك به الكوارث، وتعم فيه الأمراض، وقد شاعت عني هذه الكلمات ووصلت إلى مسامع بعض من هؤلاء، فتخلّوا عن هذه الأموال وردُّوها إلى أصحابها، وكفَّ آخرون

عن أخذها، ومشاركة المواطنين الآخرين في إجـراءاتهم، وعلم بذلـك السيخ أيضاً في البلد، فجاءوا إليّ منفردين ومجتمعين، وشكروني وتظاهروا بـالحب والإكرام، وتسامع السيخ الواردون من المدن الأخـرى بأنَّ هنـاك شيخاً أبـدى كراهيته وسخـطه الشديـد على هذه الأعمـال الإجراميـة، وشدَّد النكيـر عليها وكفّ الناس عنها، فجاءوني شاكرين ومقدِّرين، ولكني قلت لهم: إن هذا من واجباتي الدينية والخلقية، لو لم أفعل ذلـك لكنت مُفرِّطـاً مشاركـاً في الإثم، ومعلوم أن القـرآن الكريم والسُنـة المطهّـرة قد أمرا بالقسط في النـاس، قـال تعـالى: ﴿ ولا يَجْرِمنَّكم شنـآنُ قومٍ على أن لا تعـدلوا، اعْـدِلـوا هـو أقـربُ للتقوى ﴾[1].



ومن الحقائق التاريخية أنني أنتمي إلى تلك الأسرة الكريمة التي نهض منهـا الإمام السيّـد أحمد بن عـرفـان الشهيـد في أوائـل القـرن الثـالث عشـر الهجـري (القرن التـاسع عشـر المسيحي)، فقام بحـركة جهـادية قـويـة ضـدَّ حكومة السيخ في بنجاب، لمواجهة الظلم والعدوان الذي كان على أشدّه في حكـومـة مهـاراجـه رنجيت سنـغ ببنجـاب والحـدود الشمـاليـة الغـربيـة على المسلمين المستضعفين، واستشهد هناك مع ثلاثمائة من أصحابه ببالاكـوت (الواقع بباكستان) بتاريخ ٢٤ ذي القعدة ١٢٤٦ هـ الموافق ٦/مايو ١٨٣١ م، وقد كان في هؤلاء الشهداء عدد من أفراد أسرتي أتَّصِل بهم بنسب قريب.

ولكن بالرغم من كل ذلك لم يكن هناك أي مسوغ ولا أي مُبـرِّر خلقي وسياسي لقتل الأبرياء والمـواطنين العُزّل الآمنين بـوحشية فـظيعة، ومعـاقبتهم على غيـر ذنب ارتكبوه، واستسـلاب أموالهم، وانتهـاب محلاّتهم التجـارية، وانتهاك حرماتهم، ولم يكن لهم ذنب إلاّ أنهم ينتمون إلى هـذه الطائفـة التي تصـرَّف بعض أفـرادهـا هـذا التصـرف الـطائش، وإنني أرى أنـه يجب على المسلمين في مثـل هـذه الـظروف أن يقفـوا هـذا المـوقف، ويسلكـوا هـذا

---

(١) سورة المائدة، الآية ٨.

السبيل، ولا يجبنوا في ذلك عن مواقف الصدق والعدل والجرأة الخلقية، وصدق الله العظيم:

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين لله شهداء بالقسط ﴾[1].

رحلة إلى الحجاز، وخطاب مهم
وكلمة ترحيب واستقبال:

كانت الجلسة السنوية للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في شهر ربيع الثاني عام ١٤٠٥ هـ، وكنت سافرت في أوائل ربيع الثاني وأواخر شهر ديسمبر عام ١٩٨٤ م إلى مكة المكرمة، وكنت قد اصطحبت معي العزيز السيد جعفر الحسني ابن العزيز محمد واضح رشيد الندوي - رئيس تحرير جريدة «الرائد» - ولم يتّفق له سفر إلى الحجاز من قبل، وكان يرافقني ليساعدني في شؤون السفر، وتتهيأ له فرصة أداء العمرة، وزيارة المسجد النبوي الشريف، ومقابلة العلماء وكبار الشخصيات الإسلامية، وقد رافقني أيضاً العزيز السيد طارق حسن عسكري الذي يشتغل موظفاً في مصلحة الهاتف في المدينة المنورة الذي يهتم اهتماماً كبيراً بإراحتي.

* * *

وبعدما انتهينا من جلسات الرابطة التي استمرَّت كعادتها أياماً، تمتعنا بالإقامة الطيّبة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد كانت مؤسسة ثقافية بالمدينة المنورة وهي «نادي المدينة المنورة الأدبي» يطالبني من العام السابق أن ألقي محاضرة في موضوع أدبي، ولم أتمكن في العام الماضي من تلبية هذه الدعوة، وأصرَّ القائمون على النادي هذه المرة عليَّ، وقرَّروا موضوع المحاضرة «دور مُحمّد إقبال في توجيه الأدب والشعر» وأعلنوا لذلك تاريخ ٢٤ ربيع الثاني بمكان مكتبة الملك عبد العزيز.

وكان موعد المحاضرة بعد صلاة المغرب، ولم أنتبه حينئذ أن هذا الوقت ألتزم بقضائه في المسجد النبوي الشريف الذي يقع قريباً من هذا

---

(١) سورة المائدة، الآية ٨.

المكان، وقد التزمت بهذا دائماً أن أقضي هذا الوقت في المسجد الحرام إذا كنتُ في مكة المكرمة، وفي المسجد النبوي إذا كنت في المدينة المنوّرة، ولا أذكر أنني تخلَّفت عن ذلك إلّا لضرورة شديدة، ولكن خرج السهم عن القوس، وقد أُعلِنَ عن المحاضرة وكنت أشعر بثِقَل في نفسي وإباء أن أقضي هذا الوقت الذي تعودتُ أن أقضيه في التلاوة والذكر والصلوات في موضوع أدبي - وإن لم يكن أدبيّاً خالصاً - ثم إن هذا الوقت من بعد صلاة المغرب إلى العشاء وقت ضيق قد لا يتسع للموضوع، فلو أذن للعشاء في أثناء المحاضرة فماذا أفعل؟، لا أنا أطيق أن أترك العشاء في الحرم، ولا يحسن أن أقطع المحاضرة.

وعلى كُلٍّ فقد قبلتُ الطلب متوكّلاً على الله تعالى، ولكن شاهدت في تلك المناسبة من البركة في الوقت، ونجاح الاحتفال، وحضور الشخصيات الممتازة حتى أولئك العلماء الذين لهم دروس يومية في المسجد الشريف، والانتهاء من المحاضرة في الوقت المناسب، والسّير إلى المسجد بكل طمأنينة، وحضور العشاء فيه، ما لم يكن إلّا بتأييد من الله تعالى وتوفيق خالص منه.

وبدأت محاضرتي بعد أن كانت تلاوة القرآن الكريم والكلمات الترحيبية، بقولي:

سادتي وإخواني، إنَّني أستحيي أمام الله تعالى ومن حضر من الإخوان أن أذكر في جوار الرسول ﷺ، وفي ظلّ جدار مسجده العظيم، شخصاً غير شخص الرسول ﷺ، وأن أشيد به، وقد قال الشاعر العربي القديم:

ولما نزلنا منزلاً طلّه النَّدى أنيقاً وبستاناً من النَّور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه مُنىً فتمّنينا، فكنت الأمانيا

وهذا هو المكان الذي طلّه الندى، طلّه ندى الرسالة السماوية الأخيرة، والصحبة النبوية العَطِرة، فلا يجوز إلّا ذكر من نالت به هذه المدينة الشَّرف، ونالت به الإنسانية الحياة الجديدة، والمعنوية الجديدة، ولكني سأتحدَّث عن

رجل كان قويَّ الصلة، عميقها بالنبي ﷺ، وهذا هو المُبرِّر الوحيد للحديث عنه في هذا الجوار الكريم ونحن على غَلْوة سهم ـ كما يقول العرب ـ من المسجد النبوي الشريف.

إن شاعرنا العظيم محمد إقبال كان ـ وقد شهدتُ ذلك بعيني وأشهد بذلك بجوار المسجد ـ أنه إذا ذُكِرت المدينة فضلاً عن الرسول ﷺ ـ دمعت عينه ولم يتمالك، وقد قال بيتين من الشعر بالفارسية، اسمحوا لي أن أنشدهما بلغتهما فهنالك من يفهم الفارسية[1] يقول:

با ين پيرى رهِ يثرب كرفتم   نواخوان از سرورِ عاشقانه
جو آن مرغے كه در صحرا سرِشام   كُشايد پر بفكرِ آشيانه

ومعناهما: لقد لامني إخواني، واستغربوا توجُّهي إلى مدينة الرسول ﷺ على علوّ سنّي، وأنا في سرور وحنين، ونشيد ورنين، وقالوا: هذا إرهاق، وتكليف بما لا يطاق، فقلت لهم: يا إخواني، ألا تعرفون أن الطائر يهيم على وجهه في الصحراء، ويحلّق في الفضاء، فإذا أدبر النهار وأقبل الليل، تذكَّر وكره ورفرف بجناحيه إلى وكره، يطير إليه ليأوي فيه، والمدينة وكر الروح، ووكر العقيدة، ووكر الإيمان بالنسبة إلى المسلم، فكيف لا أطير إلى وكري حين دنا أصيل حياتي.

ثم ألقيتُ الضوء على دور الشاعر الإسلامي محمد إقبال القيادي الثوري في توجيه الأدب والشعر وجهة جديدة، وتأثيره البالغ عليها، وذكرت بصفة خاصة أن اللغة والأسلوب عدا الأفكار والنظرات تأثّرا أيضاً تأثُّراً كبيراً في شبه القارة الهندية، واستشهدت ببعض أبياته التي تلقي الضوء على نظرته إلى الشعر والأدب وقلت:

(واسمحوا لي أن أقرأ أمامكم سطوراً تدل على ما كان يعتقده شاعرنا العظيم محمد إقبال، وهي تدل على نظرته إلى الأدب، وعليها بَنَى أدبه،

(١) كان في الاحتفال عدد من الباكستانيين والهنود.

وعلى ذلك قامت مدرستُه الشعريّة الفكرية الفلسفية الهادفة، يعتقد محمد إقبال أن الأدب لا يصل إلى حدّ الإعجاز، حتى يستمدَّ حياته وقوته من أعماق القلب الحيّ، ويُسقَى بدمه.

نقلت هذا المعنى في كتابي «روائع إقبال» إلى العربية، ومنه أقتبس هذه السطور:

(يا أهل الذوق والنظر العميق! أَنعِمْ وأَكْرِمْ بنظركم، ولكن أي قيمة للنظر الذي لايدرك الحقيقة؟، لا خير في نشيد شاعر، ولا في صوت مُغَنٍّ، إذا لم يُفيضا على المجتمع الحياة والحماس).

أنتم تعرفون أيها السادة، قيمة نسيم السحر عند الشعراء والأدباء، وأهل القلوب الواعية الحيَّة، ولكنه يقول:

(لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلّا الفتور والخمول والذوي والذبول، إن غاية الإنسان في فن من فنون العلم والأدب، لوعة الحياة الدائمة، ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفىء سريعاً؟، وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تحدث اضطراباً في الأمواج ولا اضطراباً في البحار؟، لا نهضة للأمم إلّا بمعجزة، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجرَّدَ عن تأثير عصا موسى)[1].

وقد استمع الحاضرون إلى الخطاب في طمأنينة وسكينة، وأبدَوا انطباعاتهم الطيبة، وقد حضر هذا الحفل نائب قاضي المدينة المنورة فضيلة الشيخ عطية سالم وعدد آخر من العلماء المدرسين في الحرم الشريف.

* * *

وكان لي خطاب آخر في طُلّاب الجامعة الإسلامية على دعوة من أهلها، كان موضوعه «أزمة إيمان عالمية ومسؤولية العلماء المسلمين»، وكانت

(١) يراجع كتاب المؤلف «نظراتٌ في الأدب»، طبع دار القلم بدمشق للاطّلاع على هذا الحديث بكامله.

تلك الأيام تشهد مجاعة شديدة في أثيوبيا والسودان والصومال، وكانت حديث المجالس، فقلت: إن المجاعة التي هي أخطر وأدهى من تلك المجاعة التي يتحدث عنها الناس هي مجاعة إيمان وأخلاق، المجاعة التي أصيبت بها أكثر البلاد، حتى البلدان الراقية المتحضرة، ولكنها لا تهمها هذه المجاعة ولا تفكر فيها، كأن قيمة الجسد عندها أعلى من قيمة الروح.

وقد ألقيت في هذه الرحلة خطاباً في «نادي مكة الثقافي».

* * *

وكان من مميزات هذه الرحلة أنه نُظِّمت لي حفلة استقبال وترحيب من قِبَل شخصية موقرة وأحد أعيان جدة الشيخ عبد المقصود خوجه، في يوم ١٥ ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ الموافق ٦/يناير ١٩٨٥ م، حضر فيها من أعيان جدة ووجهائها وعلمائها وأدبائها وأصحاب الأقلام فيها ما لم يحضر من قبل، وقد قام أربعة منهم: الداعي والمضيف الشيخ عبد المقصود خوجه، وأحد رجال التعليم والتربية المعروفين الشيخ عبد الله البغدادي (عميد كلية تحضير البعثات بمكة المكرمة سابقاً)، والسيد علي حسن فدعق أمين البلدية بجدة سابقاً، والشيخ عبد الله بلخير وزير الإعلام سابقاً، بتعريف «ضيف الشَّرف»، وأبدَوا عواطفهم النبيلة وانطباعاتهم الطيبة، وكان من خصائص هذا الحفل أن وزعت على الحاضرين نسخ كتابين من كتبي وهما: «السيرة النبوية»، و «مختارات من أدب العرب»، وكان صدورهما من «دار الشروق في جدة» في ثوب قشيب ومظهر أنيق.

ورأيت أن هذا الحفل ـ الذي كان فوق مستواي، وكانت تجربة أولى في حياتي من حيث فخفختها ومستواها ـ لا يجوز لي أن يبقى حفل استقبال وترحيب فحسب، وألقي كلمة شكر وتقدير وينتهي الأمر، بل حاولت أن أتقدم برسالة إلى هذا الحفل المنتقى الكريم، وعلى هذه الأرض الطيبة ذات الدعوة والرسالة، وفي ظلال الحرم المحرم، وأن أنادي بلسان الدكتور محمد إقبال:

«قم يا باني الحرم وسادته، قم لبناء العالم الجديد».

فقلت بعد تقديم كلمات الشكر والتقدير:

سادتي وإخواني، ليست العبرة بالقامة والحجم والكثرة، وإنما العبرة بالقيمة، هناك شيئان يوزنان، القامة والقيمة، ولكن الله سبحانه وتعالى فضَّل القيمة على القامة، إنني كلما أقرأ الآيات الأخيرة من سورة الأنفال، عجبتُ وعجبتُ وكدت أحار وأُغلَبُ على أمري، إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾.

لمن يقال هذا؟ لهذه الحفنة البشرية التي تألفت من المهاجرين والأنصار، تألفت من الأنصار أصحاب الدار والمهاجرين المغتربين، الذين لم يتجاوز عددهم خمسمائة وألف، لقد حثَّ الله على المؤاخاة الإسلامية، وربط المهاجرين بالأنصار والأنصار بالمهاجرين، وأثار فيهم روح الأخوّة الصادقة، وحثهم على أن يكونوا وحدة جديدة، وحدة تقوم على الإيمان وعلى الكلمة وعلى الترحُّم للإنسانية، تقوم على المبدأ والعقيدة، فقال لهم: إذا قصَّرتم في إنشاء هذه الأخوّة، وفي تكوين هذه الوحدة التي جهلها العالم وتناساها التاريخ ـ وبكلمة أصحّ ـ نسيها التاريخ منذ مئات السنين، إذا قصرتم في إنشاء هذه الوحدة التي تقوم على الرسالة الفاضلة وعلى الأخوة الصادقة المخلصة، فإنها تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، ﴿ إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾.

ما نسبة هذه القلة القليلة التي كانت تعيش في يثرب التي سُمّيت بعد ذلك بمدينة الرسول ﷺ، ما وزن هذه القلة وما عدد أفرادها؟، ما وزن هذه القلة في الميزان السياسي، وفي الميزان الدولي، وفي الميزان الاجتماعي، حتى في الميزان العلمي؟ إنهم ـ كما أعتقد ـ لم يبلغ عددهم ألفين، وقد أُجري إحصاؤهم ثلاث مرات كما ورد في صحيح البخاري، وكان عددهم في آخر إحصاء بلغ خمسمائة وألف نسمة[1].

---

(١) راجع صحيح البخاري ٤٣/١، الطبعة الهندية، باب كتابة الإمام الناس / كتاب =

فلمن يقال هذا؟، هل يقال للرومان الذين سيطروا على نصف الأرض، والذين كانوا يتمتعون بأكبر إمبراطورية وأكبر حضارة قامت في ظلّها، وبأكبر قوة حربية وقوة دولية وقوة سياسية، هل يقال هذا للفُرس الإيرانيين الذين كانوا توزَّعوا الرومان في بسط نفوذهم بالاستيلاء على الأرض المعمورة، كان هؤلاء الرومان والفرس هم المؤثّرين في مصير الإنسانية، وهم الذين كانوا يجدّفون سفينة الحياة وسفينة الحضارة، وهم الذين كانوا يتصرفون في وسائل الأمم - إذا صحَّ هذا التعبير - وفي أوضاع العالم، هل يقال لهم:

﴿ إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾.

قيسوا سادتي وإخواني، قيسوا أولاً حجم الكلمة وروعتها، كلمة « فتنة في الأرض » ما أكبر حجمها وما أثقل وزنها، لم يقل « فساد » فحسب، بل « فساد كبير ».

إنه يقال لهذه المجموعة الصغيرة التي قام عليها الإسلام، وقامت على أعناقها رسالة الإسلام، إن قصَّرتم أيها المسلمون في تكوين هذه الوحدة الإسلامية الإيمانية الرحيمة العادلة، وإن لم تقيموا هذه الوحدة على الإخلاص، وعلى أساس الإيمان والتضحية والإيثار والتفاني، فلا نتيجة لذلك إلّا أن تكون « فتنة في الأرض وفساد كبير ».

هذه قيمة الأمة المسلمة حين كانت في عدد المئات في عدد ألف أو ألفين، هذا هو التصوير الصادق، وإعطاء هذه المجموعة هذا الوزن الكبير، وهذه القيمة الكبيرة، وهذه المكانة الرئيسية في خريطة العالم ومجموع الأمم، فثبت بذلك أن المسلم بقيمته لا بقامته، وأن الأمة المسلمة برسالتها وإيمانها وعقيدتها وفضلها الخلقي وضميرها الحي، وبالروح المتغلغلة في الأحشاء، المسيطرة على الشعور وعلى العقل والتفكير، قيمة هذه الأمة في

= الجهاد، وتفيد بعض الروايات أن سورة الأنفال نزلت في زمن غزوة بدر، وقد كان عدد المسلمين إذ ذاك أقلّ.

هـذه الخصائص التي أكـرمها الله بهـا، ليست بكثرة العَـدد والعُـدَد، وبكثـرة المسـاحة المكـانية التي تسيـطر عليها وتحكم فيهـا، ولا بـالفخـامـة وبحجم المساحة الزمانية التي تؤثر فيها.

إنني أنـظر إلى هذه المجمـوعـة بهـذا المقيـاس، وبمكبّـرة الإسـلام، المكبّرة التي أعطانا الإسلام والتي لها قيمة في بلادنا البعيدة عن مهد الإسلام ومركزه، لها من القيمة هناك ما ربما لا يكون في الـوسط الإسلامي وفي مهـد الإسلام.

وأنـا أشكر صـاحب هذه الـدار، وصـاحب الفضـل في هـذه الفـرصـة المباركة على أنه أكرمني بتوجيه الدعوة إلى هذه المجموعة الطيبة التي ليست كثيـرة في العدد ولكنهـا كبيرة في القيمـة، وإنني أنتهز هـذه الفرصـة لأحييكم جميعاً وأشكركم على أنكم كـرمتم في شخصي الحقير هـذا الاعتزاز، ولست أدري الاعتـزاز صحيح أم لا، ولكنـه مـا اشتهـر من الانتسـاب والانتمـاء إلى العلم والدين والدعـوة، فتكريم مثلي في هـذه البلاد المقـدسة في الحقيقـة، تكـريمٌ للعلم وتكريم للدعـوة وتكريم لـلأخوّة الإسـلاميـة، وتعبيـر بـالشعـور الصادق عن النفوس الكريمة؛ وإنني أحمـد الله تعالى على أنـه أتاح لي هـذه الفرصة قبل أن أغادر هذه البلاد المُقدّسة.



وودعنا الحجاز بعد ذلك إلى الرياض، فقد وُجّهت دعوة إليّ لـزيارتهـا من معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي نائب رئيس جامعـة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وزرنا معه كلية الدعوة والإعـلام، وحضرنا النـدوة التي تعقد في بيت الأستاذ الفاضل معالي الشيخ عبد العزيز الرفـاعي سكرتيـر مجلس الـوزراء للمملكة السعـودية سـابقاً بـالريـاض ـ وهي نـدوة تعقـد كـل أسبوع ـ والأستاذ الرفاعي من أفـاضل الأدبـاء والكتّاب الإسـلاميين، حضرت في بيتـه هذه الأمسيـة الأسبوعيـة الأدبية، وشـاركت فيها بكلمـة وجيزة. كمـا كانت هناك جلسـة استشاريـة لرابـطة الأدب الإسلامي في بيت الـدكتور عبـد

الرحمن رأفت باشا رحمه الله، وقررنا فيها عقد ندوة للأدب الإسلامي في فبراير عام ١٩٨٦ م، وبعد أن مكثنا في الرياض أيّاماً، عُدْنا مع سلامة الله تعالى إلى الهند.

جولة لنشر رسالة الإنسانية:

لقد كنت مع نشاطاتي الدعوية، وأشغالي العلمية والأدبية، ورحلاتي الداخلية والخارجية، لا تزال هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني: أنه لا يجوز التغاضي في البلاد التي قرّرنا أن نعيش فيها ونسكنها، عن تقدير الوضع الصحيح والنزعات الهدامة والميول المثيرة والأخطار المستقبلية، ولأجل ذلك كان يستولي عليّ التفكير - دائماً - في نشر «رسالة الإنسانية»، والقيام بدعوتها على النطاق الواسع، وقد كانت هناك قبل ذلك جولاتٌ دعوية في هذا الصدد في كلٍّ من ولاية أترابرديش وبهار، مدهية براديش، وراجستهان، وشرق بنغال، وكانت لها نتائجها الطيبة المشجعة، ونظم برنامج جولة في مارس عام ١٩٨٥ م لمنطقة «بنديل كهند» وتوجه ركب صغير في ١١/مارس عام ١٩٨٥ م لهذه الرحلة في الولاية الوسطى (Madhya Pardesh)، وكان من ضمن المدن التي انتظمتها هذه الجولة «ناكور»[1]، وكان من رفقة السفر الدكتور محمد اشتياق حسين قريشي، والأستاذ محمد حسن الأنصاري، والقاضي عبد الحميد الإندُوري، والشيخ السيد محمد مرتضى أمين مكتبة ندوة العلماء، والعزيز السيد إسحاق الحسيني.

وكان من خصائص هذه الجولة أن فضيلة الشيخ السيد صدِّيق أحمد البانْدَوي - الذي له شعبية كبيرة في تلك المناطق وتأثير ونفوذ عجيب - كان يرافقنا في السفر، ويحاول جهده في إنجاح هذه المهمة ومساعدة هذه الجولة بتأثيره الديني والخلقي ومكانته الاجتماعية وشخصيته المخلصة المُحَبَّة،

---

(١) يوجد بها قبر جدّي الثاني السيد عبد العلي، إزاء مسجد قديم كان قد بُني بإشارته وعنايته وقد كان شيخاً فاضلاً ورعاً قنوعاً باليسير رغم وظيفته في مصلحة الجباية، وكان أحد مسترشدي الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وخلفائه، توفي وهو ابن ٤٨ سنة في ولاية ناكور عام ١٢٦٩ هـ الموافق ١٨٥٣ م.

فكان يتقدمنا كرائد، وينظم إقامتنا ويضع برامج الاحتفالات والندوات، وقد رأس الاحتفال في «بنا» أميرها الهندوسي، وأبدى انطباعاته الطيبة، ورافقنا من «ستنا» أحد وجهائها من أهل العلم والفضل البروفيسور أختر حسين، ورأس الحفل في «سيدهي» الدكتور سون سنغ، وهو أخو «أرجن سنغ» كبير الوزراء لولاية مدهية براديش سابقاً وحالياً، جاء من «ريوا» لرئاسة الحفل، وأسندت رئاسة الحفل في «ستنا» إلى الدكتور «راتهو» رئيس قسم العلوم، وانتهت هذه الجولة بتاريخ ١٧/مارس.

أيام في لندن وأكسفورد ولكسم برك:

لقد مضى ذكر تأسيس المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد، ومذكّرات الرحلة التي قمنا لأجله في الجزء الأول، وكانت الجامعة قد سمحت بإقامة هذا المركز في رحابها وساعدت في سبيل ذلك، ولكن بقي علينا افتتاحه، وكان بعض الفضلاء العرب ويتقدمهم الأستاذ جمال الدين عطية، قد أقاموا في لكسم برك «المجمع العلمي للدراسات الإسلامية» واختاروني رئيساً له، وقرروا عقد جلسته في شهر أكتوبر بعد حفلة افتتاح المركز الإسلامي، وبناء على هذه الدوافع العلمية والدينية قرّرنا السفر إلى بريطانيا وبلجيكا، وقضينا تلك الأيام من ٨/أكتوبر إلى ١٥/أكتوبر في أوربا، وضعت فيها خطة الضوابط والمناهج لهذا المركز، ولم تكن قد بقيت بعد الوصول على موافقة الجامعة وتأييدها إلاّ الإجراءات القانونية الخاصة.

سافرنا إلى بريطانيا في ٨/أكتوبر ١٩٨٥ م، وكان من خطة العمل لهذا المركز أن يتمَّ تكوينه في صورة «وقف» يتولاه لجنة من أولياء أموره، وانتخب ١٤ كأولياء أمره، اختير منهم اثنان كممثلين عن الجامعة، وكلية (Saint Cross College)، واختير ١٢ من كبار علماء العالم الإسلامي، وقرر أن يكون ١١ منهم مسلمين والثلاثة الباقون يختارون من غيرهم، ووضع دستور يشتمل على الأمور الأساسية، وقدم للتسجيل حسب ضوابط المحاكم في بريطانيا، وكان يلزم توقيع ستة أشخاص من أولياء الأمر عليه، فوقَّعنا عليه في ٩/أكتوبر وخمسة آخرون من الأعضاء بمحضر من أحد المحامين، وهكذا

برز هذا المركز للدراسات الإسلامية بأكسفورد بعد تأمل وتفكير دام سنتين إلى الوجود، وأعلن عنه في ١١/أكتوبر أمام مسؤولي الجامعة وكبار رجالها وشخصياتها في جلسة موقرة مهمة.

وقد كانت الجلسة لإعلان إنشاء المركز مشجّعة جداً، افتتحها كاتب هذه السطور بكلمة مختصرة، وقد كانت وجهت الدعوة من قِبل رئيس المركز (كاتب هذه السطور) إلى مائة من الصفوة المختارة على العشاء، حضره الدكاترة والمسؤولون في الجامعة، وكبار الرجال المثقفين في بريطانيا، وشاركوا البرنامج في شوق واهتمام، وقد نظم بعد العشاء حفل ألقيت فيه خطب ومحاضرات، استمع إليها الحاضرون في جوّ من السكينة والهدوء.

وألقيتُ كلمتي باللغة العربية، ونقلها إلى اللغة الإنكليزية الدكتور فرحان، وألقى في هذا الحفل الدكتور (David Browning) والدكتور فرحان نظامي، والدكتور (K.B. Griffon) رئيس كلية ميك والن، والمستر أ. سي بورد عميد كلية سنت كراس (Saint Cross)، والدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي كلماتهم، وكان جوهر خطابي ومُلخّصه كما يلي:

(إن قيام هذا المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد مبشّر بالخير، تنفتح به أبواب جديدة من المعرفة الصحيحة والتفاهُم، وتنكشف سبل جديدة للبحوث والدراسات العلمية، لا بد من تعميم الوعي الصحيح لما قدّمه الإسلام من دروس الإنسانية والسعي لرفع الإنسان نحو الذروة السامقة والقمة العالية، كانت البشرية تئنّ تحت وطأة الدمار والهلاك، وكادت تلفظ نفسها الأخير، فقام النبي ﷺ، ونفخ فيها روح الحياة وبعثها من جديد، وإن التقدُّمات الهائلة التي أحرزها الإنسان في القرون التالية، تدين لهذا الجهاد العظيم في سبيل إنقاذ البشرية، والرسول ﷺ هو الرائد لهذا الجهاد والقائد لهذا الكفاح، ولولا قيامه بهذه الجهود للأخذ بيد البشرية، لما كان لهذه الجامعات والمؤسسات عين ولا أثر، ولا تزال أياديه رحمة للعالم إلى يومنا هذا، فتأسيس هذا المركز الإسلامي ليس فضلاً من الجامعة ومنة منها، وإنما

هو اعتراف بالجميل وأداء للواجب، وإنما هي هدية الحب والتقدير تقدم إلى الإسلام عن طواعية وطيب نفس.

ويقال إن حفلة عشاء لا تقدم فيها الخمور لا تستقطب في أوربا اهتماماً، ولا تنجح، ولكن هذه الحفلة نجحت نجاحاً منقطع النظير في تاريخ الجامعة ستبقى حفلة تذكارية، وقام بعدي ممثل الجامعة ك. ب. كريفن، فقال في كلمته التي ألقاها: (إن تأثير الإسلام على الحضارة البشرية والمدنية الإنسانية تأثير عميق خالد، وذكر شيئاً عن المساجد في منطقة صينية لعلها (سنكيانك) ـ حيث كان قد أقام برهة من الدهر ـ وأنها أُسست في القرن الرابع عشر المسيحي، وقال إن محمداً ﷺ كان في الصين قبل «ماو» و «ماركس»، ولن يزال هناك بعد زوالهما وانقضائهما، وقد كان من الضرورة بمكان أن يقام مثل هذا المركز الإسلامي في رحاب هذه الجامعة).

وقد انتهت هذه الحفلة في العاشرة والنصف ورجع الضيوف إلى منازلهم.

وانتهت في الحادي عشر من شهر أكتوبر أعمال المركز الإسلامي، وانتقلنا في اليوم الثاني إلى لندن، ونزلنا بمنزلنا القديم في بيت الأخ مسرور أحمد اللكهنوي، وكان علينا بعد الوصول إلى لندن سفر آخر إلى لكسم برك، حيث كان جلسة إدارية للمجمع العالمي للبحوث والدراسات الإسلامية، وكان عليّ رئاسة الجلسة، وقد راسلوني لأجل ذلك منذ شهور، وكنت اعتذرت لأسباب صحّية وكثرة الشواغل عن الحضور، ولكني لما سافرت إلى أكسفورد راودني حضور جلسة لكسم برك، فإنها تبعد بمسافة ساعة واحدة بالطائرة، وكنت أعلمت الدكتور جمال الدين عطية ـ الأمين العام لهذا المجمع ـ بوصولي إلى لندن، ثم فاجأني أنني لا أحمل تأشيرة الدخول إلى بلجيم، والموعد ليس موعد فتح المكتبات والإدارات ليمكن الحصول عليها، وكنا ننزل «بروكسلز» ونقطع من هناك مسافة ٢٠٠ كيلومتراً إلى لكسم برك، وهما بلدان مستقلان منفصلان، وكان الدكتور عطية

قد نظَّم لنا رفيقاً في بروكسلز يساعدنا في الدخول، وقد رافقنا الأخ مسرور أحمد أيضاً، ووجدنا مندوب الدكتور عطية في المطار، وتمت إجراءات التأشيرة وسرنا إلى لكسم برك، ووصلنا بحمد الله إليها الساعة الواحدة والنصف.

بدأت الجلسة في لكسم برك لمجمع البحوث الإسلامية الساعة العاشرة صباحاً، وقابلت في هذه الجلسة لأول مرة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي رئيس الدراسات الإسلامية في قسم الديانات في جامعة تيمبل بفلادلفيا (Temple University Philadelphia)، ومن كان يدري حينئذ أنه سيتعرض مع أسرته للحقد والعداوة اليهودية، ويستشهد مع أهله وعائلته على أيدي عدو الإسلام وعدو العرب اليهودي الحاقد؟!.

وقد شكلت هذه الجلسة اللجنة المستقلة، واختير مسؤولون جدد، واستعرضت البحوث والدراسات، ووزع العمل للدراسة والاستعراض في المستقبل على مراكز علمية مختلفة، وكان علينا أن نرجع في ذلك اليوم نفسه إلى لندن، فاسترحنا قليلاً، ثم سرنا إلى مطار لكسم برك، وسافرنا إلى لندن، وقد بقي لنا الآن في لندن يوم واحد وليلتان كانت أثناءها برامج وخطابات في «المركز الخيري الإسلامي» و«مركز المسلمين الخيري» و«المركز الإسلامي» شارع بيكر.

وصادفنا هناك صديقنا القديم الدكتور سعيد رمضان الذي جاء من جنيف للقائنا، وكان قد وجه إليّ الدعوة لزيارة جنيف، ولما اعتذرت عن السفر إلى جنيف حضر بنفسه وقابلني وضمَّني وهو يبكي، ثم جاء إلى منزلنا، وودّعنا في اليوم التالي على المطار، وكان موعد إقلاع الطائرة بلندن الساعة العاشرة صباحاً حسب توقيت لندن، ورجعنا إلى دلهي سالمين آمنين، والحمد لله رب العالمين.

وفاة زميل قديم وعامل اجتماعي مجدّ:

وقع في ٥/نوفمبر ١٩٨٥ م حادث وفاة مدير هيئة التعليم الديني

لأترابراديش: الشيخ محمود الحسن وحرمت هذه الهيئة نتيجة لذلك عاملاً ومراقباً مجداً نشيطاً، وعضواً مخلصاً كريماً، وقد كان هو بعد القاضي محمد عديل العباسي رحمه الله مؤسس الهيئة أكثر الناس إيماناً بضرورة هذه الحركة التعليمية وفائدتها، والتفرس للأخطار المحدقة بالنشء المسلم في هذه البلاد، والشعور بها، وقد جعل عمل الهيئة شعاره ودثاره، ونذر حياته له، وقد كان هذا الحادث بعد حادث وفاة المحامي ظفر أحمد الصدِّيقي حادثاً شديداً أحدث فراغاً لا يُملأ بسهولة، رحمه الله رحمة واسعة، وأدخله فسيح جنته.

الفصل الرّابع

حركة الحفاظ على قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين، محنة جديدة للأمة الإسلامية الهندية، حركة شاملة للهند، تدخُّل محكمة الاستئناف في قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين ومقاومته، ونجاح المسلمين

حركة الحفاظ على قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين، ومسؤوليتها الضخمة:

لقد مضى ذكر حركة الأحوال الشخصية للمسلمين وأهميتها وخطرها، وتكوين هيئة قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند في ٢٧ ـ ٢٨ ديسمبر عام ١٩٧٢ م بمدينة بومباي، بشيء من التفصيل في الجزء الأول، وكان قد اختير سماحة الشيخ محمد طيب ـ رحمه الله ـ مدير دار العلوم ديوبند ـ سابقاً ـ رئيساً لها بالإجماع، وقد وهبه الله تعالى شخصية محبّبة أثيرة، وجمع له العلم والذكاء والخطابة، وأثيرت مسألة تغيير الرئاسة في اجتماع الهيئة السنوي بـ «رانچي» عام ١٩٧٧ م، ورشح لها اسمي، ولكني أفحمت المطالبين بذلك قائلاً: لا تُغيَّر السفينة في اليمّ، وانتهى الموضوع، وكان مما دفعني إلى ذلك أنني كنت أعلم بأننا سوف نفقد بذلك رئيساً مُحبّباً له وقاره ومكانه في القلوب، وأن الشيخ محمد طيب حقيق برئاسة مثل هذه الهيئة المشتركة لقوانين الأحوال الشخصية للمسلمين.

ولكن انتقل الشيخ محمد طيب إلى رحمة الله تعالى في ١٧/يوليو عام ١٩٨٣ م، وأصبح مكان الرئاسة شاغراً، وتقرر عقد الاجتماع السنوي للهيئة

لذلك العام ١٩٨٣ م بتاريخ ٢٧ ـ ٢٨/ديسمبر في مدينة «مدراس»، وكنت بسبب بعض رحلاتي الخارجية، ولـلأسباب الصحّية لم أشارك في بعض جلسات المجلس الإداري للهيئة، وعزمت على حضور هذا الاجتماع، وقد نظّمت جميع أمور السفر، ولكن انتابني وجع النقرس (Gout) الذي أعاني منه من قديم، وقد أُصِبتُ بهذه المرة براي بريلي موطني إصابة شديدة منعتني من الحركة بتاتاً، وكان قرار إلغاء السفر.

وعلمت بعد انتهاء الاجتماع أن اسمي رُشِّحَ لرئاسة الهيئة، والذين يعرفون اتجاهي وذوقي قالوا هناك: إنه لا يرضى بقبول الرئاسة إلّا إذا كان الإجماع على الترشيح، وأخيراً اختير اسمي بالإجماع، وأُعلِمتُ بذلك، فكان أمراً ثقيلاً، وكان هذا القرار لا يتفق مع طبيعتي وحالتي الصحّية، وسنّي المتقدّمة ومسؤولياتي ومشاغلي الكثيرة، فلو كان الأمر أمر منظمة عامة أو جماعة سياسية، وكان قبول الرئاسة فيها موضع فخر واعتزاز لما تردّدت في التنصُّل عنها والتخلص منها، ولكن القضية كانت تختلف، فقد اضطررت لخطورة القضية ـ التي أراها جزءاً من عقيدتي وفي صميم مصلحة الأمة الإسلامية الهندية ـ واحتراماً لفضيلة الشيخ السيد منة الله الرحماني ـ الذي أراعي مكانه دائماً لأنه ابن مُؤسّس ندوة العلماء العالم الرباني الشيخ محمد علي المونكيري رحمه الله تعالى ـ بقبول هذه المسؤولية الضخمة الخطيرة، وقد كان مما دفعني إلى قبولها إشارة الإخوة والأصدقاء بضرورة هذا الأمر لحماية الهيئة من الخلاف والنزاع.

ولم أكن أتصور أنه بعد قبولي الرئاسة ستَمرُّ الهيئة بل الأمة الإسلامية الهندية كلها بمراحل دقيقة خطيرة في تاريخها، لعلها لم يسبق لها مثيل منذ زمن طويل، وتتطلب حزماً وذكاءً وعزيمة صارمة في القيادة، وتنظيماً وضبطاً للأمة، وعلماً دقيقاً ودراسة واسعة وفطنة وتدبُّراً في علماء الدين ورجال القانون، وطاعة وانقياداً وصبراً واحتمالاً وثقة بالقادة واعتماداً عليهم وتسليماً بقراراتهم في العامة من الناس، وأن يثبتوا الصلاحية غير العادية لذلك ويتظاهروا بالوعي الاجتماعي.

الاحتفال العام بكلكته:

عقد احتفال عام لهيئة قوانين الأحوال الشخصية في ٦ - ٧ - ٨/أبريل عام ١٩٨٥ م بكلكته، وحضر هذا الاحتفال عدد كبير من المسؤولين عن جميع الجماعات الدينية والسياسية والمُنظَّمات الإسلامية، ومن مختلف المدارس الفكرية وعامة المثقفين المسلمين، وكبار العلماء ورجال القانون، وكنت لأجل الأسفار والرحلات المتلاحقة والشواغل الكثيرة لم أستطع إعداد كلمة الرئاسة، بل ألقيت مكان كلمة مكتوبة ومطبوعة، خطبة مرتجلة نُقلت من الشريط وطُبعت في رسالة بعنوان «مكانة قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين وأهميّتها»، وقد جاءت فيها الجوانب المبدئية والأساسية للقضية، والخلفيات التي أدَّت إلى سوء التفاهم ونفسيتها، وبيان الفروق الأساسية بين القانون الوضعي والشريعة الإلَهية، وأن القانون المُوحَّد الذي تطالب به بعض الدوائر المغرضة لا يؤثر في توحيد الصفوف، وليس هو معقولاً ومقبولاً، جاء كل ذلك بأسلوب لا يستفيد منه المسلمون فحسب بل فيه مقنع وكفاية لغير المسلمين المنصفين إذا أرادوا الاستنارة به والنظر إلى القضية في ضوئه.

وعقد الاحتفال العام في ٧/أبريل ١٩٨٥ م في ميدان «منارة الشهداء» ويُقَدَّر عدد الحاضرين بنصف مليون إنسان، وقد توارد الناس من كل صوب وحدب، وحضروا من القرى والأرياف على الباصات، وقد كان هذا الاجتماع للمسلمين للقضايا الملّية لم نشهد له نظيراً منذ زمن طويل، وكان الحضور كلهم آذان صاغية، وخاطبت جميع المسلمين هنا بصفة خاصة، وحاسبتهم محاسبة صريحة، وصارحتهم بأنهم هم الذين يُفرِّطون في القانون الإلَهي المقدس الذي أنزله الله تعالى، وجاء به خاتم النبيين محمد ﷺ، فكم من أحكام دينية في معاملاتهم واجتماعهم يتخلّون عنها، وكم من طقوس وتقاليد هندوسية يختارونها، وإلى حد أنهم تأثروا بالمجتمع الجاهلي الموجود والبيئة المنافية للإسلام، ودعوتهم إلى احتساب النفس ومحاسبتها في غير حياء وجرأة، وأن يقيموا المحاكم الشرعية في مواطنهم ليحاسبوا أنفسهم ولينصفوا من ذويهم، ويصدروا أحكام الشرع عليهم أوّلاً، ونبّهتُهم إلى أن مخالفة القوانين الإلَهية،

والتقصير في طاعة الخالق والعبودية له، والخروج عليها وتجاوز حدود الله يُؤدّي إلى ألوان من الفساد وأنواع من المحن، وقد كان هذا الاحتساب لازماً للمسلمين، لأن الغرض الأساسي من إقامة هيئة قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين ليس إلاّ إصلاح المجتمع المسلم، والدعوة القوية لتنفيذ أحكام الله تعالى على المجتمع والمدنية والحياة الأسرية، وقد كان تأثير هذا الخطاب طيباً ملموساً.

كان بدأ هذا الاحتفال العام بعد صلاة العصر، ألقى فيه عدد من العلماء والقادة خطبهم وكلماتهم، وجاء أثناء ذلك وقت صلاة المغرب وقام الجمع بأداء الصلاة هناك، ولم تكن أي فوضى، وبقي الجمع كما كان لم ينقص منهم أحد، وكنت مسافراً في اليوم التالي فقلت لمرافقي ليشترِ لي جميع الصحف اليومية الإنكليزية، ونظرت فيها فإذا بها تجاهلت ـ حسب عادة الصحافة المغرضة المتعصبة ـ هذا الاحتفال العظيم، وذكرت بعض الصحف خبر هذا الاجتماع بأنه حضر فيه مئات من المسلمين ـ Hundreds of Muslims Attended ـ. وهذا إن دلَّ على اللامبالاة وموقف اللامسؤولية، والتجاهل المغرض في الصحافة الهندية، فإنه يدل على قلة النصح للحكومة والبلاد، لأنها تحجب عن الأنظار القضايا الحقيقية في البلاد، وعواطف الأقليات العائشة فيها ومشاعرهم واحتفالاتهم البنّاءة وتظاهراتهم واحتجاجاتهم، وحجمها وقوتها ومساحتها، الأمر الذي لا يمكّنها من التوصل إلى الآراء الصحيحة، والقيام بالخطوات الحازمة الجريئة.

حكم محكمة الاستئناف، تدخُّلٌ سافر في الدين وحملة على الشريعة الإسلامية:

من المثل الأردي القديم «حَلَق الرأس فنزل البَرَد»، لقد كان أمري كذلك، اختاروني رئيساً للهيئة في احتفال ٢٧ ـ ٢٨ /ديسمبر ١٩٨٣ م، وعقد الاحتفال العام الكبير في ٦ ـ ١٧ /أبريل عام ١٩٨٥ م في كلكتة، وقد كنت رئيساً له ثم أصدرت محكمة الاستئناف في ٢٣ /أبريل ١٩٨٥ م، بعد احتفال

كلكتة بأسبوعين في موضوع «نفقة المُطلَّقة» حكمها المعروف الذي كان تدخُّلاً سافراً في الدين، وتفسيراً يمليه الهوى للقرآن الكريم واستخفافاً بالشريعة الإسلامية وحملةً نكراء عليها، هزَّت الأمةَ الإسلامية وزلزلت كيانها، وَوَقَفَتْ بها في موقف شديد حازم من ولائها للشريعة الإسلامية، ووفائها لها وغيرتها عليها، وعزتها وإبائها، نجتزىء ببعض المقتطفات من حكم جندر جور قاضي محكمة الاستئناف في المرافعة التي تقدَّم بها محمد أحمد خان ضد مطلقته شاه بانو:

«لقد كان شارع القانون «منو» قال: إن النساء لا يملكن حق الحرية، ومما يمكن أن يقال بصراحة إنَّ من جوانب الإسلام المظلمة أنه حطَّ من مكانة المرأة (انظر منتخبات القرآن للأستاذ ادوارد وليم لين طبع عام ١٨٤٣ م، والطبعة الثانية عام ١٩٨٢ م، الصفحة ـ XC) ويُنسب إلى الرسول ﷺ، ومن المتوقع أن تكون النسبة خطأ، أنَّ المرأة خُلِقَت من ضِلَع فإن ذهبتَ تقيمُه كسرته، فاستوصوا بهنَّ خيراً.

وإنَّ أيَّ شخص أمر بأداء النفقة وغيرها يفرط في تطبيقه من دون أي عذر مقبول، فإنه يجوز للقاضي أن يصدر حكماً بأخذ النقود المطلوبة تحت منهج أخذ الغرامات، وأن يعاقبه بعد إصدار الحكم لذلك الشخص على عدم أدائه للمبلغ المطلوب كله، أو ما بقي عليه من المبلغ الذي لم يقم بأدائه شهراً كاملاً أو لمدة متعلقة إذا كان الأداء قبل ذلك.

إنَّ آياتِ القرآن رقم ٢٤١ ـ ٢٤٢ لتدل على أنه حسب أمر الرسول يلزم الزوج المسلم بأداء النفقة لمطلقته طول حياته وحياتها، واستشهد سعادة القاضي بما جاء في تفسير الآيات المتعلقة بالتطليق وترجمة كلمة «المتاع» بما جاء في ترجماتِ القرآن لبعض المترجمين من الإنجليز وبعض المُتَسمِّين بالأسماء الإسلامية ممن لم يرسخوا في العلم، ولا في الدين، ولا في معرفة لغة القرآن العربية عن طريق الدراسات المنتظمة الجدية، ويتهم بعضهم بالشذوذ الديني والاضطراب العقائدي».

وقال القاضي الفاضل بعد إيراد هذه الآيات وترجمتها:

«إنه نظراً إلىٰ هذه الآيات لا يبقى أي ريبٍ وشكٍّ في أنَّ القرآن يُلْزِمُ الزوجَ المسلم أداءَ النفقة الدائمة لزوجته المطلقة، أو أن يعطيها من المبالغ ما تعيش به، وكل ما يخالف ذلك لا يقوم على الإنصاف للتعاليم القرآنية».

ومن المؤسف جداً أن بند (٤٤) من دستورنا (وهو البند المتعلق بالخطوط العريضة حول القانون المدني المُوحَّد) لا يزال لفظاً ميتاً، إنَّ القانون المدني المُوحَّد سيقضي على الولاءات الفارغة للقوانين المؤسسة على النظريات المتعارضة ويساعد في الوصول إلى تيّار قومي واحد.

إنه يلزم المحاكم أن تلعب دور المصلح الاجتماعي، لأنَّ العقلية ذات الحسّ المُرهَف لم تعد تتحمل هذا الظلم الصريح، ولكن جهود المحاكم المتفرقة لا يمكن أن تكون بديلاً للقانون المدني الموحَّد في رَدْم الخليج الواقع بين مختلف قوانين الأحوال الشخصية.

حكم محكمة الاستئناف

وموازنته بالقانون الشرعي:

إنَّ حُكم محكمة الاستئناف بالبند رقم (١٢٥) يخوّل للمطلقة حق الحصول على النفقة من الزوج إذا كان حياً موسراً[١]، وإلّا فإن المطلقة لا يبقى لها أي حق في النفقة ولا يبقى أمامها إلّا طريق الاستجداء والسؤال، أما الشريعة الإسلامية فإنها لا تدع المرأة في حال من الأحوال لهذه المذلة، فالمطلقة بعد انقضاء عدتها ترجع إلى بيتها ويجب على ورثتها حسب ترتيب ولائهم وقربهم منها نفقتها، وقد جاء في هذا الحكم بناءاً على بند (١٢٥) في C.R.P.C. قانون الغرامات في الجنايات التصريح بأنَّ المطلقةَ لا تزال

(١) ولا يخفى أنَّ في ذلك أخطاراً خلقيةً اجتماعيةً، أولاً: أن الزوجة تبقى عيالاً على الزوج الذي كرهها وطلّقها، وفي ذلك مسّ بكرامتها كمسلمة ذات شرف وإباء وحساسية، ثانياً: أن بقاء هذا الاتصال ـ ولو في سبيل النفقة بزوجها الأول ـ مثير للغرائز ومجال للريبة والصلة غير الشرعية.

زوجته التي تحصل منه على نفقتها مدة حياتها أو إلى أن تنكح زوجاً آخر.

ولا شك أنَّ هذا الحكم ينمُّ عن التأثُّر بالديانة الهندوسية، فإنَّ الديانة الهندوسية تفيد بأنَّ علاقة المرأة بعد زواجها تنقطع بأسرتها، وتبقى رهينةَ زوجها، ولا يمكنها أن ترجع إلى بيتها، وبناءاً على ذلك فإنها لا تستحق شيئاً إلّا من زوجها، ولذلك جاء الحكم بمطالبة النفقة من زوج المطلّقة، ويختلف القانون الإسلامي في هذا الأمر اختلافاً كلياً، فإنَّه لا يقطع صلة المرأة بأسرتها وبيتها الأول، فالبنت في نظر الإسلام بنت، والأخت أختٌ، وتبقى هذه العلاقة مُدَّةَ حياتها وبعد مماتها، وتقسم التَرِكة بناءاً عليها.

وقد فسّر «المتاع» في هذا الحكم اعتماداً على بعض الترجمات الإنكليزية للقرآن الكريم بأنه «النفقة المستمرة»، وقد استعملت لذلك لفظة «Maintenance» في بعض الترجمات الإنكليزية، وهذا خطأ، فإنَّ المتاع حسب كتب التفسير والحديث والفقه الإسلامي هو ما يقدَّم للزوجة في الظروف الخاصة من هديةٍ وعطيّةٍ، من الملابس أو النقود أو شيء آخر.

وقد كان ذلك تجاوزاً من المحكمة لحدودها المرسومة، وخطوة جريئة خطيرة، إذ إنها تَدخَّلت في موضوع شرح القانون الديني بناءاً على ترجمات أولئك المؤلفين الذين لا يُعتمد على معرفتهم الصحيحة الدقيقة للغة العربية فضلاً عن فهم القرآن الكريم وإدراك معانيه، بدلاً من كبار المفسِّرين المعروفين وأجِلَّةِ العلماء البارعين.

موقف خطير:

لقد فسَّر قاضي محكمة الاستئناف كما تقدَّم كلمة «متاع بالمعروف» بكلمة «Maintenance» بالرغم من أنَّ أكثر المترجمين الأفاضل ترجموا هذه اللفظة بالأشياء والبضائع التي تقدم كهدية كريمة، وأمثال هذه التعبيرات[١].

---

(١) انظر ترجمات القرآن الكريم لمارما ديوك بكتهال، وجورج سيل، ورجرد بل Richard Bell وآرثر جي آربري Arthur J. Arbury، والأستاذ عبد الماجد الدريابادي، والأستاذ المودودي.

ولكن تفسير القرآن الكريم وشرح بعض مصطلحاته الشرعية في لغة أخرى على أساس بعض الترجمات، ثم الحكم بناءاً عليها ومخالفة الإجماع، والتفسيرات المتَّفق عليها، موقف خطير، ومؤشر فظيع يحمل نتائج خطيرة بعيدة المدى، ويعرض النظام التشريعي والديني والاجتماعي كله لخطر كبير.

وقد كان القضاة ورجال القانون في العهد الإنكليزي في الهند أكثر فهماً وذكاءاً ودقة نظر، وأعرف بخطورة مسؤولية المحاكم.

فقد صدر حكم من مجلس الحكم البدائي عام ١٨٩٧ م في مرافعة تقدَّم بها آغا محمد جعفر ضد كلثوم بي بي، جاءت فيه ألفاظ القاضي الإنجليزي كما يلي:

«إنَّه لا ينبغي لهذه المحكمة أن تحاول تفسير هذه الآية بنفسها بغضٍّ النظر عن أولئك المفسِّرين القدامى الذين كانت لهم قدم راسخة فيه»[١].

كذلك صَرَّح قاضٍ آخر في تلك المحكمة في مرافعةٍ أخرى عام ١٩٠٣ م:

«إنَّ الاعتراف بأنَّ علماء القانون المعاصرين يحقُّ لهم أن يضعوا قانوناً بناءاً على نص قديم ما دام علماء القانون القدامىٰ لم يذهبوا إليه، ولم يقوموا به سيكون من الناحية الأصولية خطيراً للغاية»[٢].

ولم تزل محكمة الاستئناف بعد استقلال البلاد تطبِّق هذا الأصل، وتوجد نظائر متعددة في أحكامها لذلك، أكتفي هنا بمثال واحد:

لقد عَلَّق أحد القضاة في حكمه في مرافعة ضد حكم سابق عام ١٩٨٠ م:

---

(١) L.R. 1897.

(٢) L.R. 1903، المجلد ٣٠، ص/١١١ ـ ١١٢، المجلد ٢٦، ص/٢٠٣ ـ ٢٠٤.

«لعلَّ القاضي الفاضل لم ينتبه إلى أن الجزء الثالث من الدستور لا يتعلق بقوانين الأحوال الشخصية للفريقين، فإنه لا يجوز في تنفيذ قوانين الأحوال الشخصية للفريقين إقحام التصورات المعاصرة، بل لا بد من الرجوع إلى مصادر القانون الهندوكي المعتبرة المعروفة مثل «سمرتي» وشروحه وتنفيذ ما جاء فيها»[1].

وقد جاء في حكم محكمة الاستئناف الذي نبحث فيه، تأييدٌ حماسي للقانون المدني الموحَّد فقد قيل فيه:

«وإنَّ من المؤسف جداً أن بند (٤٤) من دستورنا ـ وهو البند المتعلق بالخطوط العريضة للقانون المدني الموحَّد ـ لا يزال حبراً على ورق، وإنَّ القانون المدني الموحَّد سيقضي على ولاءات غير منسجمة للقوانين المؤسسة على النظريات المتعارضة، ويؤدي إلى تيار قومي موحَّد».

حركة شاملة للهند ضد حكم محكمة الاستئناف
وسلسلة من الاحتفالات الضخمة الكبيرة:

ولم يبق أمام المسلمين في هذه البلاد العلمانية القديمة، لإبداء عواطف الامتعاض والقلق والاضطراب ضد هذا الحكم المنحرف عن خط المحاكم ودائرتها، والمطالبة بحريّة العمل بالتعاليم الإسلامية الصريحة والأحكام الشرعية، والنصوص القطعية وبقائها والحفاظ عليها، إلاّ أن يعقدوا مظاهراتٍ ويرفعوا احتجاجات، وينظّموا سلسلة من الاحتفالات الشعبية العامة ضد هذا الحكم، وهذه النزعة الجانحة في طول البلاد وعرضها، وأن يضغطوا بهذا الطريق الجمهوري على إدارة هذه البلاد والمسؤولين عنها، رئيس الوزراء، ورئيس الجمهورية، ووزير القانون، ووزير الشؤون الداخلية والبرلمان، حتى يؤتى في البرلمان بقرار جديد ينسخ هذا الحكم.

وقد قامت هيئة قوانين الأحوال الشخصية في هذا الصَّدد بدعوة جمهور

---

(١) A.I.R. 1980. Page 712 .

المسلمين إلى أن يرسلوا عدداً كبيراً من البرقيات إلى رئيس الوزراء ويعرِّفوا المسلمين في مساجدهم بحقيقة الأوضاع، وعقد الاحتفالات العامة، وجلسات احتجاج ضد هذا الحكم في كل بقعة من بقاع البلاد.

وقد تأثّرت الأمة الإسلامية الهندية بهذه الدعوة ولبّتها، وطبقتها تطبيقاً لم يشاهد مثيله في أي قضية من قضايا الملّة الإسلامية، بعد «حركة الخلافة»، فأرسلت مئات الألوف من البرقيات من مختلف بقاع البلاد وقراها ومدنها ومديرياتها، وألقيت خطب في المساجد، واهتمَّ الناس بالدعاء، وعقدت احتفالات من أقصى البلاد إلى أقصاها.

كان اجتماع مائة ألف، ومائة وخمسين ألف نسمة أمراً هيّناً عادياً، ليس أمراً غريباً، حتى في مدينتنا راي بريلي، وهي مدينة صغيرة، عقد مؤتمر الحفاظ على الشريعة الإسلامية في ٩/فبراير ١٩٨٦ م، حضر فيه حسب إحصاء صحيفة «قومي آواز» الأردية الحكومية السيارة، مائة ألف شخص من مختلف مديريات الولاية، وإن ذلك اليوم ليبقى يوماً تذكارياً في تاريخ هذه المدينة، فقد أغلق المسلمون دكاكينهم، وتركوا عملهم وأقبلوا إلى هذا المؤتمر الذي لم يسبق له نظير في تاريخ هذه المدينة[١]، لقد كان بحر من الناس يموج، وكانت النساء المتحجِّبات اجتمعن في البيوت القريبة وارتقَيْن السطوح، ونظرنَ من البيوت إلى هذا الجمع التاريخي العظيم»[٢].

وهكذا عقدت اجتماعات كبيرة في الأرياف والقرى فضلاً عن المدن الكبيرة، والمواضع الرئيسية المركزية، وقام بعض العاملين النشيطين بحركة جمع التوقيعات لأكبر عددٍ ممكن من الناس، وأرسلت خطابات ورسائل بآلاف من التوقيعات لتأييد الشريعة الإسلامية، ومنابذة الحكم الذي صدر من المحكمة.

---

(١) وليكن بالبال أن عدد السكان في مدينة رائي بريلي يبلغ مائة ألف وكسراً.

(٢) صحيفة «قومي آواز» ١٣/فبراير ١٩٨٦ م.

وقد شوهدت موجة عارمة من الحَمِيَّة الدينية، واليقظة الإسلامية، والوفاء للإسلام، وأذكر أنني كنت أرى في جُنْح الليل، وأحياناً في منتصف الليل، ونحن نسافر بالقطار في أقصى جنوب الهند من منطقة إلى منطقة، الناس يجتمعون على المحطات وينتظرون قدوم الوفد، ليلقوا عليه نظرة، ويرحِّبوا به، ويقولوا لقادتهم وعلمائهم: «فداكم أنفسنا وأموالنا لحماية بَيْضَة الشريعة الإسلامية، نفديها بالمهج والأرواح».

ومما لوحظ في هذه الجولات والاحتفالات سوى أعدادِ الناس الضخمة الكبيرة، ما كان من مشاركة مختلف الفرق الإسلامية، والمدارس الفكرية، والمنظَّمات والحركات، مما لم يشاهد في الاحتفالات الأخرى إلّا قليلاً.

وقد كان من خصائص هذه الحركة القوية، أنه بالرغم من التأييد لحكم محكمة الاستئناف والتطبيل له في الصحافة الإنجليزية والهندية (غير الإسلامية)، وأنه في صالح النساء والإنصاف لهنَّ، وكان يعتقد أنه رمز التقدمية والواقعية والحرية، وكان عدد من المسلمين ـ فضلاً عن غير المسلمين ـ يطبِّلون له ويزمِّرون، كانت أكثرية السيدات المسلمات المثقفات تعارض هذا الحكم معارضةً علنيةً صريحةً، وتدافع عن الشريعة الإسلامية، وتؤيِّد هيئة قوانين الأحوال الشخصية، وقد كان فيهنَّ عدد كبير من النساء المثقفات بالثقافة العصرية خرّيجات الجامعات، ومن صاحبات الوجاهة والبيوتات العالية الكبيرة.

وقد عقدت احتفالات وندوات للنساء خصيصاً في مختلف المراكز، وبعث عدد من النساء المثقفات بيانات وتصريحات إلى الصحف اليومية الأردية والإنكليزية ونشرت فيها.

موقف الصحافة الإنكليزية والهندية
العاطفي المتهور وموجة المعارضة الطاغية:

وقد اتخذت الصحافة الإنكليزية والهندية (التي يسيطر عليها غير المسلمين) في هذه القضية موقفاً شديداً من المعارضة والمجابهة (Opposed

(Tooth and Nail) التي لعلنا لا نجد لها مثالاً حتى في قضية تقسيم الهند، وفي معارضة الجبهة الإسلامية المُوحَّدة، ونظرت هذه الصحافة والجماعات المتعصبة إلى شدة حساسية المسلمين في هذه القضية، ومطالبتهم الحكومة بالسماح لهم في تنفيذ القانون الشرعي في قضية عائلية فرعية، لم تكن تتأثّر بها إلّا طائفة قليلة (المطلقات) من طبقة خاصة (النساء) من المسلمين، ومحاولتهم لتغيير هذا الحكم، كأنَّ قوة عسكرية خارجية تريد أن تغزو البلاد، أو كأنَّ رجفةً تكاد تقع بالأرض، أو كأنَّ بركاناً يتفجَّر أو وباءاً عاماً فتّاكاً يوشك أن ينتشر في البلاد، وقد صرحت بذلك في نقاش وندوة صحفية عقدت بدلهي في ٤/مايو ١٩٨٦ م، فقد تناسى هؤلاء أصل «الشعور بالنِّسَب الصحيحة» (Sense of Proportion) وجن جنونهم.

وقد قلت في الندوة التي عقدت بدلهي في المركز العالمي (-Interna tional Centre) في ٤/ماي ١٩٨٦ م مُعبِّراً عن أحاسيسي ومشاعري:

«يبدو أنه دقَّ جرس الخطر الكبير في طول البلاد وعرضها، الجرس الذي لا يدق إلّا إذا دَهم البلاد غزوٌ خارجي ـ لا سمح الله ـ أو وباءٌ فتّاك، أو عند انفجار البركان، إنه يخالف أبسط القواعد، ويخالف الشعور بالنسبة الصحيحة (Sense of Proportion) الذي يسير عليه نظام الحياة، إنه ينبغي صرف العناية والتفكير والقوة والصلاحية في قضية حسب نسبتها من الحاجة إلى ذلك، وإن صنع القبّة من الحبّة ليس من مقتضيات العقل السليم، ولا العقل العملي (Practical Wisdom).

ولقد كان ينبغي للأخوة المواطنين وفضلاء الأكثرية ومثقفيها وصحافيِّيها وقادة مختلف الحركات والجماعات فيها، تقليداً لقيادة الزعيم غاندي الحكيمة، وموقفه الخلقي الأساسي، إذ إنه قام بتأييد المسلمين ورفع صوته معهم في قضية (قضية الخلافة) لم تكن لها علاقة مباشرة بمسلمي الهند، بل كانت صلتها بقضية الخلافة البعيدة عن ساحة الهند آلاف الأميال ـ وراء البحار التي كان مركزها تركيا ـ.

إنهم إن لم يستطيعوا تأييد المسلمين الصريح في هـذا الأمر فليلتـزموا بالسكوت والحياد، فإنها قضية لم تكن تؤثِّر على قوانينهم الشخصيـة وحياتهم القـومية وحقـوق طبقة النسـاء عندهم، فلو فعلوا ذلـك لأوجدوا جـوّاً طيباً من الثقة المتبادلة.

وقد كانت طبقة النساء عندهم أحق وأجدر بأنْ تُصرَف إليها العناية، فإن مئات بل آلافاً من العرائس يحـرقن أو يقتلن بأسبـاب غير طبيعيـة في حوادث مروّعة فظيعة، تـرجف لها الإنسـانية، وتقشعـرّ لها الجلود، لا بشيء إلّا أنهن لم يوفين بمطالب أصحاب الجشع والنهـامة المـادّيين من أعضاء أسـرة الزوج الخاطب من الأموال والأمتعة والبضائع المطلوبة، ولا يخلو من هذه الحوادث الوحشية يوم، فإنه ـ حسب تصريح الصحافة القوميـة ـ تحرق عـروس جديـدة في كل اثنتي عشرة ساعة بدلهي العاصمة وحدَها.

ومن المحيِّـر لـلألبـاب أنَّ النـاس والصحـافـة الإنكليـزيـة والهنـديـة، والتقدميين الذين كانوا أقاموا الدنيا وأقعدوها عند موافقة البرلمان الهندي على المذكّرة المتعلقة بالقانون الإسلامي للمطلَّقات يوم ٦/مايو ١٩٨٦ م واعتبروها ظلماً وتعدّيـاً على حقوق النسـاء، لم يتظاهـروا بردِّ الفعـل ضد تقليـد «ستي» (Sati) (تحريق المرأة بعد وفاة زوجها) الظالم الذي كان يستحقه.

لقد حرقت بنت لهـا من السنّ ١٨ عامـاً تدعى «روب كنـور» نفسها في ٤/سبتمبر بـ «دورالا» (سيكر) ولاية راجستهان مـع زوجها المتـوفى، بحضور ستمـائة ألف هنـدوسي كانـوا يهتفون «عـاش تقليد ستي، عـاش تقليد ستي» وبالرغم من حكم المحكمة العليا بولاية راجستهان ضد هذا التقليد، ومـرافعة بعض المنـظمات للقضـاء عليه، وكـان الشبـاب الـراجبـوت مصلتي سيـوفهم يحـرسـون ذلـك المكـان، وقـد بيعت في الأيـام القليلة كميـات ضخمـة من النارجيلة بمئات الألوف من الروبيـات، وتباع صـور «ستي» ـ تحريق المـرأة ـ كـل صورة بعشـرة روبيات علنـاً وجهـاراً، واستمـرَّ مجيء النـاس من القـرى البعيدة لزيارة ذلك المكان، ومن الحيرة بمكان أنَّ ما كـان يتوقـع من استنكار

شديد، واحتجـاج صارخ عن طـريق الصحافـة، ومظاهـرات ضد هـذا الفعل البَشِـع المجرم الـذي تقشعرُّ لـه جلود البشر ويتنـدى له جبين الإنسـانيـة، لم يشـاهد كـل ذلك حسب مـا كان ينبغي» (صحيفـة «قـومي آواز» ١٨/سبتمبـر ١٩٨٦ م لكهنؤ).

ومعلوم أنَّ هـذه الحادثـة ليست أولى أو فريـدة من نوعهـا، فقد سبقت مثل هذه الأحداث ولكنها لم تحـرِّك ساكنـاً، ولم تُثِر هَـائجاً، ولم تبعث على الغضب والاستنكـار والاستهزاء، مثلمـا ظهر منهم ـ عمى القلوب ـ في قضيـة المسلمة المطلقة، التي كفلتها الشريعة الإسلامية بشتى الطرق والوسائل.

وقد نشر تصريح لامرأة في صحيفة (Times of India) الصادرة بلكهنـؤ ٦/أبـريل ١٩٨٦ م ذكـرت فيـه أنَّ عـدد المـوتى كـل سنـة بـالإجهـاض غيـر المشروع في الهند وحدها قد بلغ ستة ملايين وستمائة ألف جنين.

لقاءات مع رئيس الوزراء
ومحاولة إفهامه وإقناعه:

وقد شعر المسؤولون عن الهيئة: رئيسهـا وأمينها العـام ـ مع القيـام بهذه السلسلة من الاحتفـالات العامـة التي لا يوجـد لها نـظير بعـد تقسيم الهنـد، وحركة إرسال الرسائل والبرقيات، وصور القرارات والتـوقيعات التي تكفي في عامة الأحوال لإثارة التفكير والبعث على التأمّـل الجادّ في قضيـة من القضايـا في أيِّ حكومة ديمقراطية ـ بضرورة مقابلـة رئيس الوزراء راجيف غاندي مباشرة، وإقناعه في هذه القضية كانت في سلسلة هذه المحاولات تلك المحاولـة التي قام بها وفد مكوَّن من نخبة أعضاء الهيئة في ٣٠/يوليه ١٩٨٥ م لمقابلة رئيس الوزراء، وقُدِّمت إليـه مذكـرة، كما كـانت هناك لقـاءات شخصية أورد بعض تفاصيلها في ما يلي:

كـان يعقـد اجتمـاع للمجلس الإداري للهيئـة واللجنــة التنفيـذيــة في ٢/فبراير ١٩٨٦ م إذ فاجأتني في ٣/فبراير دعوة من رئيس الوزراء، وقيـل لي في مكالمة هـاتفية إنَّ رئيس الـوزراء في انتظاركم فتفضَّلوا، وكنت قـد قرَّرت

أن لا أنفرد بمقابلته نظراً إلى خطورة القضية ودقتها، ولأنَّ الشيخ مِنَّة الله الرحماني ـ الأمين العام للهيئة ـ يملك اطلاعاً واسعاً عميقاً لتجاربه الطويلة الكثيرة في هذا الميدان، ودراساته الواسعة حول جوانب هذه القضية الفقهية والقانونية، فلا يتسنّى لي أن أقوم بهذا اللقاء المباشر لرئيس الوزراء بدون مرافقته، ومساعدته ومداولته للبحث، فأبديت هذه الرغبة تليفونياً أن آتي معي بالشيخ مِنَّة الله، ولكن جاء الردُّ بأن هذه الزيارة شخصية بيني وبين رئيس الوزراء وهو في انتظاري.

فلما حضرت عنده رأيتُ أن وزيرَ القانون أشوك سين موجود هناك، وكان معالي السيد ضياء الرحمن الأنصاري وزير الحكومة المركزية جالساً في الخارج، ولم يكن معي زاد في هذا الطريق إلّا الدعاء والإنابة إلى الله، والتوكل عليه، وأحمد الله تعالى على أنني لم أُرِد من هذه المحاولات واللقاءات تحقيق أي غرض أو مصلحة شخصية أو سياسية، ولم أكن أطلب جاهاً ولا منصباً وقد شاهدت ـ ولله الفضل والمنة ـ تأثير هذه النيّة في كل مقابلة.

قلت لدولة راجيف غاندي: سيادة رئيس الوزراء إنه كما يكون للكتابة الطويلة اختزال، كذلك يكون للسياسة أيضاً طريق قصير، وهو أن يراجع في هذه القضية أصحاب الاختصاص فيها، ومن يتبنّونها ويخلصون لها، وتفهم عن طريق البحث والمداولة معهم، ويحرص على حلها في أقرب وقت قبل أن تصل هذه القضية إلى أيدي السياسيين المحترفين، فيطولوا طريقها ويعرقلوا سيرها للمصالح السياسية والشخصية والحزبية، فتتورط الحكومة في ما هي في غنىً عنه من المعارضات والمشكلات.

ويبدو أن راجيف غاندي أدرك مرامي كلامي، واقتنع بذلك، وعلم أن الذي يتحدث إليه ليس سياسياً محترفاً، ولا قائداً داهية.

وكانت مقابلة أخرى مع رئيس الوزراء في ١٧/فبراير، وقد كان يرافقني الشيخ مِنَّة الله الرحماني هذه المرة، وكان وزير القانون أشوك سين حاضراً في

غرفة الانتظار من قبل، فلما رآني قال لي الوزير: فضيلة الشيخ! (لقد جاءتنا رسائل من بعض القضاة والمحامين المسلمين الفضلاء، يؤيدون حكم محكمة الاستئناف، ولكن مما لا شك فيه أنَّ الأكثرية من المسلمين معكم)، وكنت قد حملت معي رسالتي بعنوان: (الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية) باللغة الإنجليزية، وقد جاءت فيها دراسة مقارنة لحقوق النساء في مختلف الديانات في ضوء شواهد التاريخ وأدلته، فألقى المستر أشوك سين نظرة على الرسالة.

وجاء رئيس الوزراء فدعانا بنفسه إلى غرفة المقابلة، وأخرج وزير القانون على طلب منه مذكرة تشتمل على ثلاث صفحات، وبدأ يقرأ منها بنداً بنداً، وانتهى من قراءة هذه الصفحات الثلاث في ساعة وربع، وقد طمأننا وسرَّنا أن رئيس الوزراء يدقِّق في أمر كل بند ويراجع الوزير ويوجه إليه أسئلة ويشير بأن يشطب كذا ويكتب كذا، وهكذا شعرنا بعنايته البالغة بهذه المذكرة كما شعرنا أيضاً بأن رئيس الوزراء قد أعدَّ نفسه لهذا الموضوع، وكان يسألنا عند قراءة كل بند عن رأينا، ويملي بعد أخذ رأينا والاتفاق معه.

ثم فاجأتنا يوماً دعوة من رئيس الوزراء يطلب ١٧ ـ ١٨ من صفوة أعضاء البرلمان والقادة المسلمين لمقابلته في قاعة من قاعات البرلمان، وكان السيد سليمان سيث رئيس حزب العصبة الإسلامية (Muslim League) أخبرني بأنه يشار على رئيس الوزراء أن ينظر أولاً في قوانين الأحوال الشخصية في عددٍ من الأقطار المسلمة قبل تقديم هذه المذكّرة والموافقة عليها، هل أحدثوا عندهم تعديلات وتطويرات في قوانين الأحوال الشخصية أم لا؟، فإنْ كانوا قد تناولوا قانون الأحوال الشخصية الإسلامي بالتعديل والتغيير فلا بأس بذلك في دولة علمانية كهذه.

وأدركت أنه لو قبل هذا التوجيه طال الأمر، وتعقّد وتعرَّضت القضية للخطر، فألقي في رُوْعي شيء، وكان سهماً مصيباً، فلما اجتمعنا عنده، كان راجيف غاندي أمامي، فقلت له: دولة رئيس الوزراء! إنه لو قيل لكم: إنَّ

هناك أقطاراً مسلمة تطبَّق فيها قوانين الأحوال الشخصية، فلنسْتَفْسِر هل أحدثت حكوماتها تعديلات في قوانين الأحوال الشخصية أو لا؟، فإذا كان الجواب إيجابياً، وتحقَّق أنَّ هذه الحكومات قد تناولت قانون الأحوال الشخصية بتعديل وتغيير، حسب الظروف ومقتضيات العصر، ساغ لكم تقليدها، وكان الأمر بالنسبة إليكم ـ وأنتم تقودون بلاداً علمانية أكثرية أهلها لا تدين بالإسلام ـ أسهل وأهون.

وإنني أرى أنه لا يسوغ لكم أن تقبلوا هذا الاقتراح، فإننا نحن الممثلين للدين الإسلامي، لو رفضنا ذلك مرةً لكان عليكم أن ترفضوه أربع مرات، فإنه فيما يتعلق بقيادة البلاد أنتم الجيل الثالث في القيادة، إنَّ الهند لا تقل ـ بالنسبة للمسلمين ـ علمياً ودينياً، عن أيِّ بلد عربي أو إسلامي، فلها مكانةٌ مستقلة محترمة، ولا يحسن بي أن أقول عن نفسي، ولكن أصارحكم بأنَّ المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي الذي يضمُّ أكبر نخبة من العلماء والفقهاء وأصحاب الاختصاص الفقهي في البلاد العربية والأقطار الإسلامية، وأنا عضوٌ فيه من اليوم الأول، قد حدَث بعض المرات أن جميع أعضاء المجمع كانوا في جانب، وكنت في جانب آخر، وأخيراً صدرت الموافقة حسب رأيي، وأن في هذا المجلس الذي نحن فيه يوجد من العلماء الأفاضل من لو ذُكِرَ اسمه في جامع الأزهر لأحنى الناس رؤوسهم تأدّباً واحتراماً.

وقد كان لهذا الكلام أثر نفسي قوي، وكان سهماً أصاب الهدف، فلم يشر راجيف غاندي بعد ذلك إلى دراسة التطوّرات والتعديلات التي حدثت في قانون الأحوال الشخصية في بلاد مسلمة كتركيا وتونس وليبيا، وزال الخطر.

وجاءت السيدة نجمة هبة الله ـ نائبة الرئيس في البرلمان ـ يوماً بإشارة من رئيس الوزراء إلى لكهنؤ لمقابلتي لتجمع المعلومات الضرورية عن بعض جوانب القضية، وقد شاركنا في الحديث الشيخ مِنَّةُ الله الرحماني.

وعقد اجتماع في يوم من الأيام بإشارة من رئيس الوزراء بمنزل السيدة نجمة هبة الله، حضره الخاصة من أعضاء البرلمان المسلمين ووزير القانون أشوك سين، ونائب وزير القانون للولاية المستر بردواج، واستعرضنا المشكلات التي قد تنتج عند تنفيذ هذه المذكرة من القانون، وقد أُثيرَ فيها تساؤل وهو أنه لو مات جميع أقرباء المطلَّقة، ولم يبق من أقربائها من يكفلها، فمن يكون كافلها إذن؟، فقلنا: إنه يمكن في هذه الحالة تحميل هيئات الأوقاف الإسلامية في الولايات مسؤوليتها، واقتنعوا بذلك.

وتقدَّمَ بعض الأفاضل من أعضاء الهيئة وأعضاء البرلمان من رجال القانون بتعديلات لفظية في هذه الليلة، وقدمت خلاصتها وأجزاؤها الأساسية بعد كتابتها الدقيقة وطبعها على الآلة إلى راجيف غاندي في اليوم التالي، وقلت: إنه ينبغي أن تقدّم المذكرة، في ضوء التعديلات حتى تكون أقرب إلى الكمال والإحكام، ويبدو أنَّ السرعة في تقديمها حالت دون ذلك.

تصريحات راجيف غاندي في الدفاع
عن المذكِّرة وتأييدها:

لقد قال راجيف غاندي في ٢٨/فبراير ١٩٨٦ م في البرلمان، وهو يخاطب جلسة لحزبه (حزب المؤتمر الوطني) عقدت للمناقشة والبحث في قضية المذكِّرة المقدَّمة إلى البرلمان عن المرأة المسلمة المطلَّقة، والحفاظ على حقوقها، قال: (إنَّ المذكِّرة التي قُدِّمت للبرلمان أوسع دائرةً وأكثر حفاظاً على حقوق المرأة المسلمة المطلَّقة، وأكثر فائدةً لها ونفعاً).

وأشار رئيس الوزراء في جلسته إلى أهمية القانون المدني الموحَّد، ولكن صرح أيضاً بأنَّ الحكومة لا تستطيع أن تلزمَ الناس بهذا القانون، لا سيما في بلاد يعيش فيها أصحاب مختلف الديانات والنزعات جنباً لجنب.

وقال راجيف غاندي في مقابلة صحفية مع رئيس تحرير جريدة «تغلق» (Tughlaq) التاملية الصادرة في مدراس، في يناير ١٩٨٦ م: (إنَّ القانون الإسلامي يعطي ضماناً أكبر من قانوننا الوضعي لحقوق النساء ومصالحهن)،

وقال: (إنني علمت بعد مقابلتي للمفكرين المسلمين البارزين ورجال القانون الماهرين، وعلماء المسلمين وتبادل الآراء معهم، أنَّ المرأة في حدود قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين تجد ضماناً كافياً لحقوقها ومصالحها)، وقال: (إن المسلمين يشعرون بأن المحاكم تفسِّر قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين تفسيراً خاطئاً، فلو كانت المحاكم تعبِّر عنها التعبير الصحيح وتفسرها تفسيراً صحيحاً فلا اعتراض لهم عليها)[1].

الموافقة على المذكرة في البرلمان:

كلما كان الموعد لتقديم المذكِّرة في البرلمان يقرب، كانت الصحافة الهندية والإنكليزية والجماعات الهندوسية المتعصبة الطائفية، تثير عاصفةً من المعارضة الشديدة، وكان يُخيَّل إلى الناس أنَّ رجفةً تُزلزل البلاد، وأنَّها تواجه كارثة قاصمة، ولكن رئيس الوزراء راجيف غاندي كان قد قرَّر في نفسه أخذ الموافقة عليها في البرلمان، فقد أعلن في ٢٧/فبراير أنَّ هذه المذكِّرة لا بد من تقديمها للبرلمان، ولا بد من الموافقة عليها، وقد طلعت الصحف الإنكليزية في ٢٨/فبراير بعنوان بارزٍ (إنَّ الحكومة مصمِّمةٌ على إقرار قانون المرأة المسلمة).

وقد أعلن رئيس الوزراء قراره الحازم، ومطالبته الحكومية لجميع أعضاء حزبه بالموافقة على المذكرة، وأنَّ كل من يعارضها يفصل من الحزب، حتى لو غاب أحدُ الأعضاء عن تلك الجلسة في البرلمان التي يؤخذ القرار فيها بالموافقة عليها فسوف يفصل أيضاً من الحزب.

وقدمت المذكرة في ٥/مايو ١٩٨٦ م إلى البرلمان، لقد كانت الليلة بين يومي ٥ ـ ٦/مايو ليلة تاريخية عجيبة، فكم من مسلم أحيا ليله بالدعاء والابتهال، وكانت السيدات في البيوت يشتغلن بالدعاء والختمات، فقد كانت القضية قضية كَرامة المسلمين وكانت جواباً لسؤال: هل المسلمون يعيشون في هذه البلاد بحرّية العمل بدينهم وشريعتهم، وفي حدود ما أنزل الله من

---

(١) صحيفة «الدعوة» الأردية، دلهي، ٢٥/يناير ١٩٨٦ م.

تعاليم وأحكام لا سيما الحياة العائلية الإسلامية ـ التي هي عبادة برأسها، بل مجموع عبادات كثيرة ووسيلة إلى عبادات كثيرة ـ وهل لا يزالون يطبِّقون شرعَ الله ـ تعالى ـ في تقسيم مواريثهم ومناكحتهم وطلاقهم وغيرها من الأحكام الشرعية المتعلقة بهم، أم لا؟.

ولما قام وزير القانون أشوك سين في الساعة ١٢ و ٣٥ دقيقة بعرض هذه المذكّرة التاريخية قامت الأحزاب المعارضة بالصَّخَب الشديد، ورُفِعَتْ أصواتُ معارضةٍ شديدة، وبدأت مناقشة حادّة عجيبة بين المتحدِّث الرسمي بالبرلمان وبين المعارضين، وتداولوا أسئلةً وأجوبةً، ولم تزل الأحزاب المعارضة تثير الاعتراضات البرلمانية ولم يزل المتحدِّث الرسمي يردُّ عليها، وعلى كلٍ فقد حاولت الأحزاب المعارضة بكل ما أوتيت من قوة وقف هذه المذكرة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجابهوا المتحدث، وأعيتهم إجاباته وردوده القوية، وأخيراً جلسوا كارهين، وقدَّم وزير القانون المستر أشوك سين بين هتافات (خجل) (خجل) (Shame... Shame) من أعضاء الأحزاب المعارضة، هذه المذكرة للنقاش، وألقى الضوء على ضرورة تقديم المذكرة، وقال: إنَّ الحكومة لا يمكنها أن تتغاضى عن مشاعر أكبر أقليّةٍ عائشة في البلاد، وأحاسيسها وعواطفها، وإن هذه المذكَّرة صيغت على نفس الخطوط التي صيغت عليها قوانين الأحوال الشخصية في أكثر الأقطار المسلمة ما عدا بعض البلاد، وقد كان دفاع المستر أشوك سين عن المذكرة دفاعاً قوياً لبقاً إلاّ أنَّ أهم شيء عندي أنه ذكر في البرلمان أنَّ عدد المسلمين يبلغ مائة وأربعين مليون نسمة، وقال: إنَّ الإعراض عن رأي هذه الطائفة العظيمة لا يليق إطلاقاً، وأذكر أنَّ الإحصاءات الرسمية السابقة كانت تصرِّح بأن عدد المسلمين لا يتجاوز مائة أو مائة وعشرة ملايين فحسب.

وبعد مناقشة المذكرة لإحدى عشرة ساعة متواصلة، قُدِّمت المذكرة للتصويت، ووافقت عليها الأكثرية.

ويكون من قِلة الشكر والتقدير لو لم أخص بالذكر هنا من قاموا في هذا

الصَّـدد في البرلمـان وخارجـه بالمحـاماة القـوية والـدفاع اللبق عن القضيـة، ومثلوا تمثيلاً صحيحاً عن المسلمين، نخصُّ بالذكر منهم السيد ضياء الرحمن الأنصاري من وزراء الحكومة المركزية، والسيد محمود بنـات والا من أعضاء البرلمان، فإنهم يستحقّون الشكرَ والتقدير من الأمة الإسـلامية الهنـدية كلهـا، فقـد تظاهـر السيد محمـود بنات والا بعـدم إصراره على مـذكرتـه الخاصـة، ومساندته للهيئة بإيثار محمود جليل، وأثبتت السيدة نجمة هبة الله حـرم السيد فخر الدين علي أحمد رئيس الجمهورية سابقاً، والسيدات المثقفـات بالثقـافة العالية، حميتهنَّ الدينية، وعنايتهنّ البالغة بالقضـايا الإسـلامية، وقـد ثبت من ذلك أنه لم تكن هناك طبقة الـرجال وحـدها تشـارك في هذا الجهـد، وتبدي عدم طمأنينتها بحكم محكمة الاستئناف، بل النساء المثقفات يقفن معهم في خط الدفاع عن الشريعة الإسلامية، ويتظاهرن بـرغبتهن الصادقـة في القانـون الإسلامي، واقتناعهن به، واعتقادهن برجحانه وفضله على سائر القوانين.

وقد سَرَتْ موجةٌ من السرور الغامـر في المسلمين بسبب الموافقـة على هذه المذكِّرة، ورأى المسلمون ذلك برهاناً لوحدتهم وثقتهم بقادتهم ومنهجهم الإيجابي البنّاء وإبداء آرائهم بحريـة، ومحاولات الإفهـام والإقناع النـاجحة، وظهـر معنى الآية الكـريمة: ﴿ وَيَـوْمَئِذٍ يفـرحُ المؤمنونَ بنصـرِ الله، ينصرُ من يشاء، وَهُوَ العزيزُ الرَّحيمُ ﴾.

رسالة مُهِمّة إلى راجيف غاندي:

ورأيت من الـلائق أن أوجِّه رسـالة إلى راجيف غـانـدي لمـا تمَّت بيني وبينه من لقاءات في صَدَدِ قضية قوانين الأحوال الشخصية، وما أبـدى هو في أمـرها من اهتمـام وملاحـظة، وثبات على التـأييد والمسـانـدة إلى أنْ أصـدر الحكم لأعضاء حزبه بالموافقة على المذكرة التي تقـدَّمت بها الهيئـة، فأكتب إليـه كمسلم يعترف بـالحق ويقـوم بـواجب الشكـر والتقـديـر بـرسـالـة شكـر واعتـراف، أشير فيهـا عليه كمـواطن يحبُّ وطنه، وكـإنسـان واقعي مخلص، وأحد أصحـاب الـدعوة ورجـال العلم، بتوجيهـات وآراء مخلصة تتصـل بقيادة هذه البلاد وإدارتها، وتقوم عليهـا سلامـة هذه البـلاد وأمانهـا وبقاؤها، والتي

تشقُّ له طريقاً فيه سرّ نجاحه وفضله ورجحانه بين السياسيين الشاطرين والقادة المُحنَّكين والسادة المولَعين بالحكم والسلطة واللعبة السياسية، وقد كتبت هذه الرسالة في يناير أو يوليو ١٩٨٦ م ووصلت إليه وقرأها، أثبتها هنا كوثيقة تاريخية، لعلها تنفع المسؤولين عن الحكم في كل بلد:

«سيادة راجيف غاندي

تحيّات وتمنّيات طيبة

إنّني أريد عن طريق هذه الرسالة مع إبداء عواطف الشكر والتقدير للموافقة على المذكرة المتعلقة بالمرأة المسلمة المطلَّقة، أن أُصرِّح لكم ـ استفادةً من الصلة والثقة التي تحققت بسبب اللقاءات والاجتماعات بكم ـ بدراستي واعتقادي بأنَّ طريق قيادة هذه البلاد والحفاظ عليها ـ في هذه الآونة بالذات ـ تقتصر على الواقعية، والاعتراف بالحقائق والحوادث، والتمسّك بالأصول والمبادىء والجرأة الخلقية وسعة النظر ورحابة الصدر، وهي تلك الطريق التي مهَّدها لنا قادة تحرير هذه البلاد، والرعيل الأول منهم فيها، وأمكن لهم تحرير البلاد عن طريقها.

إنَّ أصح طريق لهذه البلاد التي قُدِّر لها من بدايتها وجود مختلف الديانات والحضارات والمدنيات، واللغات والثقافات فيها، هو طريق الديمقراطية، والعلمانية الصادقة، واحترام كل فرد من سكانها، وإعطاؤه الفرصة الكاملة للمشاركة في رُقيّ البلاد وعمارتها وازدهارها بكل حماس وتفانٍ ونشاط، وإنَّ العصبية والعنف، وضيق النظر والعاطفية، وإيقاظ الأحداث النائمة من التاريخ، يعني إيقاظ الأسد النائم الذي لا يرحم أي فرد بعد قيامه.

إنَّ أكبر خطر على هذه البلاد هو نزعة العنف التي ظهرت في الأعوام الأخيرة، لا سيما في الأشهر القريبة، والتي كان القائد غاندي يعارضها معارضةً شديدةً، ويحسُّ بالخطر البالغ منها، لأنَّ النار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل في الخارج، فإنَّ العصبية والبغضاء الطائفية سوف تتجاوز الطوائف

والفرق إلى الأشخاص والطبقات والأسر وعامة الأفراد، ثم لا عاصم للبلاد منها إلّا الله.

إنني لا أريد أن آخذ من وقتكم كثيراً، إنه ملك للشعب والبلاد كلها، ولكني أريد أن أصارحكم بدون كلفة وفي إخلاص: أنني أراكم الآن حاجة هذه البلاد، ولذلك فإني أقول لكم في صراحة: بأن ميزتكم الأساسية التي تستطيعون أن تنتصروا بها في هذا التسابق للقيادة والمؤامرات السياسية على جميع القادة وتملكون بها قلوب السكّان، هو إخلاصكم، وصدقكم، وجرأتكم الخلقية، وبساطتكم وواقعيتكم التي أصبحت نادرة غريبة في القادة السياسيين المحترفين والمتزعمين.

إن الكتب السماوية والتاريخ البشري لتدل على أن العاقبةَ والنجاحَ للصدق؛ وإنَّ الخطبَ الرنّانة، والذكاء الخارق، والمؤامرات الدقيقة مردُّها إلى البوار والخسران المبين، فمن رأيي المخلص لكم أن تستمروا في السير على هذا الدرب.

إنَّ هذه البلاد ـ الآن ـ تواجه أزمةً وخطراً ينـدر نظيره في التاريخ الماضي، وإنَّ أكبر خطر للبلاد في هذه الآونة إنما هو الظلم والعنف والعصبية الطائفية وعدم المساواة، والفوضى الخلقية والإدارية، وحركة إحياء الطائفية البغيضة، فلا بد من مجابهتها والاستماتة في سبيل القضاء عليها، وإنَّ الله ـ تعالى ـ قد وهبكم الثقة العظيمة وحبَّ الناس لكم في هذه البلاد الواسعة، وخوَّلكم فرصةً مواتيةً قريبةً لرئاسة الوزراء، ورئاسة حزب المؤتمر الوطني الحاكم، فأرجو رجاءاً حاراً مخلصاً أن تنتهزوا هذه الفرصة الثمينة، وتنتفعوا بهذه الموهبة وتستغلوا لأنفسكم مكاناً مغبوطاً في التاريخ، وحبّاً غير محدود في القلوب والنفوس، أعانكم الله ووفقكم.

أبو الحسن علي الندوي

خطر القانون المدني المُوَحَّد:

لقد نجحت الحرب الشعبية الجمهورية ضد حكم محكمة الاستئناف

في قضية نفقة المرأة المسلمة المطلَّقة، ووافق البرلمان على المذكِّرة التي تقضي على هذا الحكم وتزيل آثاره، وهكذا انتهت جهود هيئة قوانين الأحوال الشخصية بالنجاح.

ولكنه كان نجاحاً جزئياً محدوداً، ولم يزل سيف القانون المدني المُوحد مُصْلَتاً على رقاب المسلمِين، فلو نفذ ذلك لكانت هذه المذكرة حبراً على ورق، ولفتحت عشرات الأبواب للتدخّل في قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين، لقد وضع في دستور جمهورية الهند بند القانون المدني الموحّد (Uniform Civil Code) في صورة بند (٤٤)، وهو من البنود الموضوعة كخطوط عريضة هادية (Directive Principals) ونص البند كالتالي:

(ستحاول الحكومة في سائر مملكة الهند، للحصول على القانون المدني الموحَّد لجميع سُكَّان البلاد).

وحينما وضع هذا الدستور اطمأنَّ القادة المسلمون بأنَّ قوانينَ الأحوال الشخصية للمسلمين مصونة محفوظة ببنود الحقوق الأساسية (Fundamental Rights) في الدستور، وأنَّ بنود الحقوق الأساسية أولىٰ من بنود الأصول الهادية، ولكنَّ الأنظار البعيدة النظر، كانت تبصر أنه بالنسبة لقوانين الأحوال الشخصية للمسلمين ونظامهم الاجتماعي - الذي يتصل بدينهم اتصالاً وثيقاً - وضعت هناك في سياج الدستور الهندي مادةً متفجرةً (Explosive Matter) يمكن بأدنىٰ حركةٍ أو بأثر الرياح الحارة أن تشتعل وتحرق جميع الاحتياطات الدينية والقانونية في الدستور إلى رماد، وأخيراً أدّى سير الأحداث الطبيعي ودوافعها عواملها المتنوعة التي قد تتعلق بعدم الإدراك لموضع القوانين الاجتماعية الإسلامية عند المسلمين وصلتها بدينهم وعواطف المسلمين ونفسيتهم وعقائدهم فيها، وضَحالة التفكير وسطحية الرأي وبحركة إحياء الهندوسية (Hindu-Revivalism) وعواطفها الحادّة والمصالح السياسية والانتخابية، والحصول على رضا الأكثرية من السكان، إلى ظهور هذا الخطر، وارتفع هذا الصوت بقوة وحماس عام ١٩٧٢م أولاً بعد صمت

طويل، لبواعث وعوامل متعددة بتوحيد قوانين الأحوال الشخصية، وإصلاح القوانين المتعلقة منها بالمسلمين وإجراء التعديلات فيها، ولم يزل يرتفع هذا الصوت في فترات مختلفة، تارة داخل المجالس التشريعية وتارةً خارجها، ولكنه لم يجد نفاذاً للمصالح السياسية المختلفة وتخوُّفاً من سخط الرأي العام في المسلمين الذي كان تأثيره معروفاً على الانتخابات، وأعلنت الحكومة على لسان كبار مسؤوليها عدَّة مرات أنها لا تنوي ذلك، وأنها لا تُعنَى بهذه القضية ما دامت الطوائف المتعلقة بالقضية نفسها لا تطالب بذلك، ولكن - رغم ذلك - لم يزل أفراد شُذَّاذ من هذه الطائفة المسلمة نفسها ترفع صوتها بذلك داخل البرلمان وخارجه، وأدركت الأبصار البعيدة النظر أنَّ هذا الصوت الذي يردّدونه، ليس صوتَ ضمائرهم بل إنْ هم إلا ببغاوات تردِّدُ ما تلقنته من مربّيها وكفى.

رأيٌ سَطْحيٌّ عابر:

إنَّ الرأي القائل بأنَّ القانون المدنيَّ الموحَّد سيجلب وحدةً وانسجاماً بين مختلف الفرق والطوائف، ويزيد بينهم أواصرَ الحب والمودة، رأيٌ سطحي، لا عمق فيه ولا دراسة، فقد وقعت حربان عالميتان ضروسان في أوربا رغم الوحدة في الديانة والحضارة وقوانين الأحوال الشخصية، ولم تكن آسيا والشرق كله بنجوة عن لهيبها ولظاها، كانت الحرب العالمية أصلاً بين بريطانيا وألمانيا وليست ألمانيا وبريطانيا إلّا مسيحيتين من البروتستانت، ولا فرق بين قوانينهما العائلية والاجتماعية، فلماذا اقتتل هذان البلدان كعدوين لَدودين؟، فلو كان القانون المدني الموحد يستطيع وقف الحروب والاشتباكات وصدام الشعوب وقتالها، لكان أولىٰ به أن يقف هناك، ثم كان حال الحرب العالمية الثانية كذلك، فقد اقتتل البلدان كعدوين ظامئين للدماء، ولو ذهبت أي يوم إلى المحاكم لتجد المُدَّعِي مسلماً، والمُدّعَى عليه مسلماً، تجد مسلماً يريد أن ينتهك عرض أخيه ويسفك دمه ويهدم بيته مع أنَّ قوانين الأحوال الشخصية تجمعهم، بل قد يجمعهم النسب واللون والدم، وهذا حال الطائفة الهندوسية بل أشدّ، فرغم وحدة قوانين الأحوال الشخصية

فيما بينهم فإنهم لا يدّخرون وسعاً في المرافعات، والحروب الداخلية البيتية والمنازعات والخصومات.

الواقع أنَّ النزاع والعداوة، والبغضاء ترجع إلى الأنانية واتباع الأهواء، وجنون حُبّ المال والمادية الطاغية، وإلى الأنظمة والمناهج التعليمية الخاطئة التي أغفلت جانب التربية والأخلاق تماماً، وليست لها أي صلة بقوانين الأحوال الشخصية، وحدتها، أو اختلافها[1].

ومهما كانت الحقيقة فقد ظهر لنا جَليّاً أنَّ عقول المُشرِّعين والمسؤولين في البلاد ليست صافيةً محايدة في هذه القضية، وأن هناك شرارة تحت الرماد، قد تشتعل في أي وقت فلا تُبقي ولا تذر، والعياذ بالله.

طريق الحفاظ على الحقوق في بلد ديمقراطي:

لا ينبغي لنا أن ننسى أبداً أننا في بلد تعيشُ فيه أكثرية غير مسلمة، وأنه بلدٌ ديمقراطي، وأن المجالس التشريعية تشرع فيها القوانين، فإذا كان هذا البلد جمهورياً فلا شك أن البرلمان يحق له تشريع القوانين، وأنَّ من أصول الديمقراطية أنَّ رأي الأكثرية هو الحاكم، وهو المُشرّع، ولذلك فإنَّ الخطر دائمٌ بأن تسنَّ فيه قوانين تتصادم مع عقائدنا الأساسية وأحكام شريعتنا وعواطفنا وحاجاتنا ـ ولعل لسوء النية فيها دخلاً أقل من الجهل وعدم الاطلاع.

وينبغي أن لا ننسى أيضاً أنَّ هذا البلد تقوم فيه حركات قوية متحمسة لإحياء العنف (Aggressive Revivalism) والاستبداد والدكتاتورية على الأسس الدينية والحضارية واللغوية، فعلينا في مثل هذه البلاد الديمقراطية العلمانية، أن نحافظ على شخصيتنا الدينية والحضارية، بالطرق الدستورية

---

(١) مقتبس من كلمة الرئاسة للمؤلف لمؤتمر الهيئة ببومباي، الذي عقد في ١٥ ـ ١٦/ديسمبر ١٩٨٦ م.

المشروعة، ونثبت أهميتنا ودورنا وفائدة وجودنا كمواطنين أوفياء للبلاد، أصحاب خير وفضل ممن تمسُّ إليهم حاجة البلاد، ونطالب بأنَّه لا يجوز أن يسن قانون ينافي معتقداتنا، وشريعتنا وكتابنا السماوي، ونثبت أيضاً أننا نتأذى ونتألم من سنِّ قانون يخالف الشريعة، ويعرِّض وجودنا كأمَّةٍ ذات رسالة ودعوة للخطر، أكثر من حرماننا للطعام والشراب.

ومعلوم أنَّ أيَّ حكومة لا تستطيع أن تمنع أي أقلية فيها الضروريات الأساسية من المأكل والمشرب، ولا تستطيع أي حكومة مهما كانت قوية أن تسنَّ قانوناً بمنع طائفة فلانية من الأغذية أو أن لا يسمح لها بفتح دكان في السوق، أو أن تغلق أبواب التعليم والتربية على أطفالها، لأنه لو حدث مثل هذا لقامت قيامة الناس، فلا بد لنا أن نثبت بأنفسنا عملياً أننا نشعر بهذا القانون أو بهذا النظام التعليمي بالخناق، مثل ما تشعر السمكة لو أخذت من الماء ورميت في البرّ، ويظهر ذلك من قَسَمات وجوهنا وتجاعيد جباهنا، ونظام حياتنا حتى كأنَّنا نتأثر صحّياً، وتضعف قامتنا وأعمالنا ونشاطاتنا، وحتى يُحسَّ الناس بأن هذا الشعب حزين كئيب يأخذهم هذا القانون الجديد بالخناق وهو بمثابة قتل لأولادهم وجيلهم القادم.

والحق أنه لا مجال في بلد ديمقراطي يملك حق التشريع الدائم المطلق عن طريق الأكثرية ـ التي تتغير عواطفها وآمالها ومقاصدها دائماً ـ لأي أقلية أو طائفة، تحمل دينها وشخصيتها وقوانين الأحوال الشخصية المتعلقة بها، وتراها أعزّ عليها من نفسها وحياتها ـ أن تعيش قريرة العين، مطمئنة البال، متغافلةً عن الأحداث والأوضاع ـ وأنه يجدر بها أن تضع وصية سيدنا عمرو بن العاص فاتح مصر نصب عينيها ولا تغفل عنها أبداً، وهو قوله رضي الله عنه للعرب الفاتحين لمصر، وقد بدت طلائع تحوُّل مصر إلى بلد عربي مسلم لعقيدته وحضارته حتى لغته وثقافته، ولكن الصحابي الحازم البعيد النظر لم يطمئن إلى ذلك، وقال لإخوانه المسلمين العرب الذين قرروا بقاءهم في مصر: (أنتم في رباط دائم، لتشوُّف القلوب إليكم . . . الخ).

المسجد البابري:

لقد كنت أثناء لقاءاتي ومقابلاتي مع رئيس الوزراء ومستشاريه في قضية نفقة المطلَّقة المسلمة، وحكم محكمة الاستئناف فيها ـ وهو موضوع هيئة قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين الرئيسي ـ ألفت انتباهه إلى قضية المسجد البابري، وقد راسلته أيضاً مرتين في هذا الأمر، وقدَّمت إليه مقترحاتي والحل المطلوب عندي للقضية، كما طلبت منه مواعيد خاصة للحديث معه في هذا الموضوع ولكن حالت دون ذلك حوائل، وشعرت بالخطر أيضاً من عواطف الأكثرية لا سيما ما أثارته جماعة «وشو هندو بريشد» المتعصبة من حماس زائد مندفع في هذه القضية، ودعواها بأنه مولد إلٰههم «رام» وأن الإمبراطور بابر (مؤسس الدولة المغولية في الهند) هدم المعبد الوثني وحوَّله إلى مسجد كرمز للفتح الإسلامي، وقد وافقت الإدارة المحلية العنصر الطائفي المتحمس وفتحته للهنادك الذين وضعوا فيه الأوثان وأُغلِق على المسلمين.

وقد بحث الموضوع عددٌ من الباحثين المؤرِّخين الأمناء، أثبتوا في ضوء البحث العلمي، وفي ضوء شهادات ووثائق تاريخية أنه لا أساس لهذه الدعوى، وأنَّ المسجد لم يزل مسجداً من أول يوم وقد بُنِيَ على أساس شرعي قانوني مدني، وأنه لا صلة له بالإمبراطور بابر، ولم يكن هنالك مولد لـ «رام» (الإلٰه الأسطوري) الذي لا يستند إلى تاريخ موثوق به ويقوم على الأساطير والشائعات والميثالوجية الهندية.

كانت هذه القضية تتعلق بإدارة ولاية خاصة من ولايات الهند، وأحسست أنَّ راجيف غاندي لم يستطع البتَّ في هذه القضية بالحزم والعزيمة والجرأة المطلوبة لمصلحة البلاد والمغامرة، التي تظاهر بها في الموافقة على المذكرة المتعلّقة بنفقة المطلَّقة المسلمة، والتي كسبت له قلوب أكبر أقلية في الهند.

وأنتج كلُّ ذلك أنَّ القضية كلما مضت عليها الأيام ازدادت تعقُّداً، والتواءاً، وساهمت في خلق جو من الاضطراب والقلق الشديد والإثارة،

وأذكر فيما يلي تصريحاً كنت أدليت بـه للصحافـة في هذا الصـدد، كان هـذا التصريح قد صدر في الأسبـوع الثالث من فبـراير ١٩٨٦ م حيث كـان الجهد لقضية نفقة المطلقة مستمرّاً، وعلى قدم وساق، ولا يزال كـاتب هذه السـطور متفقاً مع هذا الرأي، فلم تغير فيه الأحداث :

(لقد أصيب المسلمون جميعاً في طول الهند وعرضها بالحكم المنحـاز الجانح الـذي صَدَر في قضيـة المسجد البـابري بـأجودهيـا، إنه لا يمكنٍ أن يوصف هذا الإجراء في وقت جُرِحت فيـه عواطف المسلمين بقضيـة التدخُّـل في قـوانين الأحوال الشخصيـة المتعلقة بهم، ويبـذلون جهـودهم في الحفاظ على شخصيتهم الإسلامية والشعائر الدينية، وإنَّ فتح أقفال المسجـد البابـري لطائفة الهندوس والسماح لها بإقامة شعائرها التعبدية فيه، ومنع المسلمين من دخول المسجد، لا يوصف هذا الإجراء بالحكمة والعقلانية والذكاء، فإنَّ هذا الإجراء يثير عواطف المسلمين ويزيد الوقود في النار المشتعلة ويضطرهم إلى الشعور بأنَّ هذه البلاد ليست إلّا لفـرقة واحـدة، وأنها وحـدها تحكم البـلاد، وأنه يخشى دائماً في هذه البلاد أن يحكم فيهـا بالقـوة والإكراه حكمـاً منحازاً لفريق واحد وتداس حقوق الآخرين.

إنهـا لحقيقة تـاريخية أنَّ المسجـد البابـري مِلكٌ للمسلمين، لم يزالوا يُصلُّون فيه منذ أربعة قرون ونصف قرن، وقد سلم ذلـك الحكم الإنجليزي، وسُجّل في مصلحة الأوقـاف الإسلاميـة الحكوميـة، وإنه لأمـر طبيعي أن يثور المسلمـون ويهيجهم هـذا الحكم الـظالم، فـإنـه دليـل لحميتهم الإسـلامية وغيـرتهم الدينيـة، إلّا أنه ينبغي للمسلمين أن لا يتـأثروا بهتـافـات الأحـزاب والمُنـظَّمات الـطائفية المثيـرة التي تستغلّ هـذه القضية لمصـالحها السيـاسية والحزبية، لأنَّ ذلك يزيد الطين بلّة، ويزيد الأمر سوءاً، إنه يلزمهم أن يوحِّدوا صفوفهم، وأن يتظاهروا بنفس الوحدة في هذه القضيـة الدقيقـة التي تظاهـروا بها في قضية قـوانين الأحوال الشخصيـة، وأن يتخذوا مـوقفاً حـازماً صـارماً، ويُقنعـوا الحكـومـة والإدارة أنهم لا يتحمّلون الضَّيْم والـظلم على الأقليـات، ولا سيما الاستيلاء على معابدهم.

وأرى من الضروري أن أنبِّه إلى أنَّ الحكومة لو لم تحترم عواطفَ المسلمين، ولم تقض على الإجراءات الانتهاكية هذه، فإنَّ نتائج ذلك ستكون خطيرةً وخيمة.

وقد اتّخذت هيئة قوانين الأحوال الشخصية في هذه القضية قراراً بعثت به للنشر في الجرائد والصحف.

عدة احتفالات مهمة:

ونخصُّ بالذكر في الاحتفالات والمؤتمرات التي عقدت في هذه السنة، الاحتفال السنوي لهيئة التعليم الديني لعموم الولاية الذي عقد في ٢٢ - ٢٣/نوفمبر ١٩٨٦ م في مدينة بنارس، وحضر فيه عدا المندوبين من خمس ولايات عدد كبير من العلماء والمثقفين ورجال التربية والعاملين في مجالات السياسة والاجتماع، والرجال والنساء من مختلف مديريات ولاية اترابراديش يُعدُّون بالآلاف.

والاحتفال الثاني الذي يجدر ذكره هو الاحتفال الثامن لهيئة قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين الذي عقد في ١٥/ديسمبر ١٩٨٦ م بمدينة بومباي، وقد شارك فيه جميع أعضاء الهيئة من سائر الهند وقادة المسلمين وأعيانهم، وأعضاء الجماعات والمنظمات الإسلامية المختلفة.

وقد جاء في كلمة الرئاسة فيه التي ألقاها كاتب هذه السطور استعراض للأوضاع والظروف بعد الموافقة على المذكِّرة في البرلمان وإنذار صريح من خطر قوانين الأحوال الشخصية المشتركة، أو القانون المدني المُوحَّد، والنقاش حوله، وخطر تنفيذه والدوافع الكامنة وراءه، وتحريض للمسلمين، وترغيبٌ لهم في سِلْسِلَة جهودٍ جديدة طويلة، وخوض حربٍ دستورية جمهورية، لم تكن الحركة الشعبية ضد حكم محكمة الاستئناف في نفقة المطلَّقة المسلمة، والمهمة الشاملة للهند ونجاحها، إلّا جزءاً محدوداً صغيراً منها، ويجمل للموازنة بين الجهدين والمجابهتين الإشارة إلى القول المأثور: «رَجَعْنَا من الجهادِ الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وقـد كانت هـذه الكلمة من بعض الجـوانب استعراضـاً واقعياً شـاملاً، ومبعثَ تأمّل وتفكير ورسالة قوية دافعة.

كذلك لا بد من الجهود لإزالة بعض الأخطاء التعبيرية والقانونية في المذكرة المتعلقة بنفقة المطلَّقة المسلمة ـ التي قدم كاتب هذه السطور مذكِّـرة مشتملة على الإصلاح والتعديـل فيها إلى راجيف غـاندي ـ وجعلهـا جزءاً من القانون الذي تحكم به المحاكم والحكم في ضوئها ـ حتى لا يبقى أي مجال للفـريق المعارض أو المحـاكم أن تحكم بناءاً على حكم محكمـة الاستئناف السابق المنسوخ على الزوج السابق بأداء النفقة لمـطلقته لمـدة حياتهـا أو إلى أن تنكح زوجاً آخر، وقد ثبت أن بعض المحاكم لا تزال تتجـاهل (المـذكرة) التي وافق عليها البرلمان، وتحكم بحكم محكمة الاستئنـاف المنسوخ، وقـد أعـدَّت هيئـة قـوانين الأحـوال الشخصيـة بتـوجيـه بعض رجـال القـانـون المتخصصين من أعضـاء الهيئـة مـذكـرة تشتمـل على بعض التعـديـلات والإصلاحات في المذكرة الأولى، ووضعتهـا الهيئة في بـرنامـج عملها لتبـذل الجهود في سبيلها.

الفصل الخامس

جلسة استشارية لرابطة الأدب الإسلامي بتركيا، والإقامة لعدّة أيام بكراتشي وأهم الخطابات فيها

جلسةٌ استشارية لرابطة الأدب الإسلامي بتركيا:

لقد كانت الجلسة الاستشارية الأولىٰ لرابطة الأدب الإسلامي عُقِدَت في دار العلوم ندوة العلماء بلكهنؤ، الهند، وقرروا فيها عقد الجلسة الثانية في استانبول بتركيا، وعيَّنوا تأريخها، وقد روعيت مصلحتان في اختيار تركيا، لهذه الجلسة؛ إحداهما: أهمية تركيا وعظمتها الإسلامية، وبوادر الاتجاه الإسلامي، وعلائم الخير الظاهرة فيها، والثانية: أنَّ كثيراً من الأساتذة الفضلاء في الجامعات السعودية كانوا يقصدون لُبنان للاصطياف، ولكنَّ الظروف الجديدة لم تدع لهم مجالاً أن يقضوا أيام إجازتهم بها في طمأنينة وراحة، ويشتغلوا بالأعمال العلمية.

وكانت تركيا تمتاز بخصيصتين؛ إحداهما: استقرار الأوضاع فيها، والثانية: الجوُّ الإسلامي، واحترام سكانها للعرب، والرُّخْص، وأن أكثر الأساتذة العرب من أعضاء الرابطة كانوا قد قصدوا الاصطياف بتركيا، وكان منهم من سكن هناك.

اخترنا لاستانبول طائرة تمرُّ بكراتشي، حيث قضينا ليلة وساعات في النهار، وقابلنا بعض الأقرباء والأحبة، خرجنا ١٩/يونيه ١٩٨٦م من دلهي،

وكان يرافقني العزيز الأستاذ مُحمَّد الرابع الحسني الندوي، ووصلنا مطار استانبول ظهر ٢٠/يونيو، وكان ذلك يوم الجمعة، وكان موعد وصولنا بها موعد صلاة الجمعة، ولكن بالرغم من ذلك حضر إلى المطار لاستقبالنا عدد من الأصدقاء العرب والأتراك، بعد أدائهم لصلاة الجمعة وإسراعهم في الوصول إلى المطار، كان عدد منهم من أعضاء المجلس التنفيذي للرابطة، وصديقنا التركي القديم الشيخ أمين سراج ـ خطيب مسجد الفاتح ـ الذي كانت قد توطَّدت به صلاتنا أيام إقامتنا بمصر عام ١٩٥١ م، وكان إذ ذاك يدرس في جامع الأزهر، وقد اختار الأصدقاء العرب والأتراك لإقامتنا شُقّة واسعةً جيدة في عمارة فيها التسهيلات الكافية، تقع هذه الشقة في محلة «أفندي زاده» بالعمارة التي تدعى «كلستان» وعُيِّن لضيافتنا أحد الفضلاء العرب، الدكتور مصطفىٰ الذي يشتغل بدراسة الماجستير في الطب.

عقدت الجلسة الأولى صباح السبت في الساعة العاشرة، وبعد كلمة الرئاسة وكلمة الافتتاح قُدِّمت تقارير مفصَّلة عن مكتب الرابطة الرئيسي بلكهنؤ ومكتب الرابطة للبلاد العربية، ونوقشت القرارات والتوصيات، واستمرَّت الجلسة إلى الظهر، ثم أرجئت الجلسة لليوم التالي.

وذهب بنا الشيخ أمين سراج في المساء إلى بيت أحد التجار الفضلاء الإسلاميين السيد عثمان نوري أفندي، كانت به أمسية أدبية، حضرها الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ محمد قطب، فألقىٰ هو وعددٌ من الأساتذة الفضلاء كلماتهم ومقالاتهم فيها.

أما أنا فقد ذكرتُ في خطابي الشاعر الإسلامي الحكيم جلال الدين الرومي الذي كان له الفضل في ما قام به الأدب الإسلامي في تركيا من دور قيادي ثوري، وذكرت ما كان لشعر الرومي من تأثير بالغ قوي ليس على الأدب والشعر فحسب، بل على الفكر الإسلامي وعلم الكلام، لا نجد له مثالاً عند أيّ أديب أو شاعر آخر، فكم من أديب أو شاعر ملكت الفلسفة اليونانية عقله واستولى عليه الإلحاد والزندقة، أثَّر فيه شعر الرومي فقلب حياته

رأساً على عَقِب، واهتدى به إلى الإسلام، وأصبح ترجماناً له وداعياً إليه، وقد كان الدكتور محمد إقبال يعتبر نفسه تلميذ الرومي يقتطف من ثماره، ويأكل من فُتات مائدته يقول في بيت من شعره:

إنّ المرشد الرومي مرشد بصير منير الضمير
وإنه لأميرٌ لركب الحُبّ والعشق

ويشير إليه في مواضعَ كثيرة من شعره، ويقول في بيت أردي:

إنَّ عيني مستنيرة من قبسه ﴿﴾ إنَّ كأسي لمترعة من بحره

وإنَّ تركيا لا تزال تستطيع أن تُنجب أمثال الرومي، وإنه لم يقم بلد بحراسة العالم الإسلامي وتمثيله القوي لهذه المدة الطويلة مثل ما قامت به تركيا، وإن عليها أن تتقدّم للقيادة من جديد.

وشكا بعض الإخوة الأتراك، أننا ننقل كثيراً مما كُتب في اللغات الأخرى في الأدب الإسلامي والفكر الإسلامي إلى اللغة التركية، ولكن أدباء اللغات الأخرى لا يعيرون اهتماماً للأدب التركي الإسلامي، وكانت شكوى في محلها، فاعترفنا بذلك واتّفقنا على العناية بالأدب التركي، وعلمنا في هذه الجلسة أيضاً أن التيّار الإسلامي، والتمسك بالدعوة الإسلامية وعاطفة العمل بالشريعة الإسلامية في تقدُّم واندفاع الآن في تركيا، وتنقل كتب المؤلفين الإسلاميين إلى اللغة التركية بسُرعة وتنشر هناك وتنتهي بسرعة، تتلقّفها الأيدي المتلهّفة، وقد صدرت لكاتب هذه السطور عدة طبعات لكتبه باللغة التركية، وعلمت أيضاً أن كتابي «العقيدة والعبادة والسلوك» صدرت طبعته الأولى بخمسة آلاف نسخة، ونفدت في شهر واحد، وقام اثنان من المترجمين بنقل بعض كتاباتي، ولا يدري واحد منهما عن عمل الآخر، وذكر لي الأستاذ محمد قطب أن بعض كتاباته العربية صدرت بالتركية قبل صدورها في محلّها بالعربية، وعلمنا أن هناك أفراداً أصحاب اتجاهٍ إسلاميّ وسلوك إسلامي في الجيش والحكومة، لأجل ذلك تراعي هذا التيار الإسلامي.

سـطوة تركية، عقلية هندية،
منطـق عـربـي:

عُقـد يوم الأحـد في الساعـة العاشـرة احتفال كبيـر للأدبـاء، والمُثقّفين الأتراك في قاعة فسيحة ويقدَّر عدد الحـاضرين من الأدبـاء والفضلاء في هـذه الجلسـة بمـا يقـرب من ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص، قـد كـان منهم الصحفيـون، ومُمثّلو الإذاعـات والتلفزيـون، وقدَّرنـا من ذلك أنَّ الحكـومـة شعـرت أيضـاً بأهمية هذه الندوة، وقدَّمت مساعدة لها على مستواها، وقـد رأى الإسلاميّـون هذا الموقف من الحكومة نجاحاً للأدب الإسلامي والفكرة الإسلامية.

وقد اختار كـاتب هذه السـطور للقراءة في هـذه الندوة فصـلاً من كتابـه «روائع إقبال» يشتمل على ترجمة لمنظومة إقبال القوية الحماسية الـرائعة التي أسماها بـ «طلوع الإسلام» والتي تدور فكرتها حول اجتماع القوى الغربية ضدَّ تركيا، وتظاهر تركيا إزاءها بوفائها لـلإسلام، وشجـاعتها، واستقـامتها وثبـاتها وتضحيتها، وقد كان في جانب منّي أحد كبار الأدباء الأتراك، وكان في جانب آخر الأستاذ محمد قطب، فلما وصلت إلى ترجمة هذا البيت:

عطا مومن كوپهر درگاهِ حق سے هو نے والا هے
شكوه تركماني، ذهن هندي، نُطق اعرابي

أشرت عند قولي: السطوة والعظمة التـركية إلى الأديب التـركي، وعند قولي المنطق العربي إلى الأستاذ محمد قطب، وقلت للعقليـة الهنديـة: إنني إن لم أملكها فإنني أُمثّل الشعب الذي يملك عقليـة خاصـة، وقد استخـدمها للإسلام، وكانت قد أُعِدّت من قبل ترجمة تركية لهذه الكلمة، فأُلقِيت بعد كلمتي.

وقـام أحد مسؤولي الـرابطة، وأعضـاء المجلس التنفيذي فيهـا بتعـريف موجز لرابطة الأدب الإسلامي وغاية تأسيسها، وأهدافها.

ثم خطب الأستاذ محمد قطب، وخطب أستاذان فاضلان تركيان بـاللغة التركية أيضاً، افتتح أحدهما وهـو الأستاذ عِـزّت أزود خطابـه بقولـه الشجيّ: إنني كنت قبـل برهـة من الزمن افتتحت خـطابي (ببسم الله الرحمن الـرحيم)

فحدثت ضَجَّة، ولكن الوضع اليوم يختلف عن الأمس تماماً، وإنني أبدأ كلمتي بغاية من الطمأنينة بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، وقد قامت وسائل الإعلام الحكومية بإبراز إجراءات هذه الجلسة، وذكر بعض الأصدقاء الأتراك أنها لأول مرة سمحت الحكومة لمثل هذا البرنامج الإسلامي الخالص أن يذاع في إذاعتها وتلفازها، وهكذا كانت هذه الندوة فألاً طيباً لهذه البلاد وللبقظة الإسلامية فيها.

سعة نطاق «الحياة بعد الموت»:

كان هناك مجال واسع من يوم الثلاثاء إلى يوم الجمعة للقيام برحلة ترفيهية استطلاعية، واختيرت لذلك مدينة قريبة هامّة من مدن تركيا، وهي مدينة «بورصة» التي كانت العاصمة الأولى للعثمانيين، ولا تزال بها آثارهم العمرانية، ويمتاز أهلها بالتديُّن.

وكانت قد نُظِّمت من قبل ذلك جلسة عند الشاطىء الآسيوي لباسفورس، خرجنا إليها الساعة العاشرة، وألقينا نظرة عابرة على السواحل، ثم شاهدنا قصر «دولمة باغيچه» للسلطان عبد العزيز، وقد كان المقرّ الأخير للسلاطين العثمانيين، وعاد الآن متحفاً راقياً متقدِّماً ومكاناً يقصده الناس للزيارة، وزرنا في القصر مركز الأبحاث لمنظمة المؤتمر الإسلامي لكراتشي، وزُرنا قصر يَلْدِز الذي كان قصر آخر السلاطين العثمانيين الكبار السلطان عبد الحميد خان، وقضينا به ساعة، ثم تقدمنا إلى الشاطىء الآسيوي لباسفورس، وقد عبرناه بذلك الجسر العالي الطويل، ووقفنا على هذا الشاطىء الآسيوي بموضع، كان فيه عدد مشرِّف من الفضلاء الأتراك، كان منهم الدكاترة في الجامعات ووزير الداخلية السابق، وعدد من أعيان المدينة والفضلاء العرب، وطلب الحاضرون مني ومن الأستاذ محمد قطب أن نخطب، فقال الأستاذ قطب، اليوم يخطب الشيخ أبو الحسن الندوي فحسبُ، وأستمع، وبدأتُ كلمتي بقولي:

كنت حينما أقْدُم هذه المدينة تحضرني آية قرآنية وتستولي على تفكيري، وهي قوله تعالى:

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَـةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَـا، قَالَ أَنَّى يُحْيِـي هٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَـةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَـهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ، قَـالَ لَبِثْتُ يَوماً أَوْ بَعْضَ يَـومٍ ، قَالَ بَـل لَبِثْتَ مِائَـةَ عامٍ فـانْظُرْ إلىٰ طَعَـامِكَ وَشَـرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّـهْ، وَانْظُرْ إلىٰ حِمَـارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَـةً لِلنَّـاسِ ، وانـظُرْ إلى العِـظَام كيف نُنْشِزُها ثُمَّ نكسُـوها لحمـاً، فَلَمَّـا تَبيَّنَ لَـهُ قَـالَ أَعلمُ أَنَّ اللَّهَ علىٰ كـلِّ شَيْءٍ قَدِيْر ﴾[1].

قلتُ: إنني تلميذ من تلاميذ علوم القرآن الكـريم، وأحاول فهم معـانيه وإدراك مغـازيه، وإنَّ معـانيه ومفـاهيمه لأوسـع وأعمق مما تحتـوي عليه كتب التفسيـر أو تُدرَكُ بـأدنى تأمـل وتفكير، إن الآيـة المتلوة الآن وإن أشارت إلى حادثة خاصة، ظهرت فيها قدرة الله عزَّ وجلَّ، بأنْ أحيا ميتاً بعد مائة عام غضّاً طرياً، وأبقى الطعام ـ الذي يفسد في الفضـاء المنفتح بسـرعة ـ مـائة عـام لم يفسد ولم يتعفّن، إنني أعتقد أنَّ الآية الكريمة تنطوي على معنىً لطيفٍ آخر، وهو أنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ قد يحيـي دينـه ورسالتـه بعد خمـودها وانفصـام صلة الشعب والبلاد بها، وفقْدِ الدفـاع عنها، وضعف الحميـة لها لمـدة طويلة قـد تبلغ مائة سنـة، ويعيد إليهـا النضارة والـطراوة، فإنـه إذا كان قـادراً على إبقاء الطعام طيباً شهياً لمائة عام لم يفسد ولم يأسَنْ، فهو قـادر ـ جلَّ شـأنه ـ على إبقاء دينه بعد مُضيّ مائة عام أو أكثـر عليه في أوضـاع متنكرة وظـروف قاسيـة حَيّاً غَضّاً صحيحاً، وإنني أرىٰ في هذه الآيـة الكريمـة بشرى سـارّة بأنَّ هـذا الشعب وهذه البلاد التي رفعت لواء الإسلام وأرهبت الغـرب المستعمر قـروناً من الزمن ستعود إلى الازدهار والحياة والنشاط[2].

﴿ تـولِجُ الليـلَ فِي النَّهار وتـولِجُ النَّهَـار في الليلِ ، وتُخـرِجُ الحيَّ من الميّتِ وتُخرجُ الميِّتَ مِنَ الحيّ ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٩ .

(٢) وقد ذكر لي بعض الأصدقاء الأتراك أن مدة محنة تركيا الإسلامية تكاد تكون مائة عام.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٢٧ .

ورأيتُ أنَّ هذا الخطاب الذي كان تلقائياً وارتجالاً، وجد آذاناً صاغيةً وقلوباً واعيةً، ورنَّتْ هذه البشرى من الدكتور محمد إقبال في أذني:

(إنَّ إقبال ليس يائساً قانطاً من أرضه القاحلة، فإنها إذا تَندَّت وتبلّلت تعود مخضرّةً رابيةً زاهيةً).

في بورصة:

غادرنا لبورصة يوم الأربعاء ١٥، وتقع هذه المدينة في جنوب مدينة استانبول، ولكن الطريق البرّي ينعرج ويطول إليه لحيلولة جزء شرقي من بحر المرمرة بين المدينتين، ويستغرق السفر لأجل ذلك إلى بورصة ٣ ـ ٤ ساعات بالسيارة، وقالوا: لو قطعنا هذه المسافة بالباخرة لكانت أخصر.

ورأى السيد عثمان نوري أفندي أن نسافر برّاً في الذهاب حتى نشاهد السواحل والجبال، ونعود بالباخرة، وهكذا كان.

ودَنَتْ بورصة، فكان منظراً خلّاباً جميلاً، امتدَّت المدينة على مسافة شاسعةٍ، وبدت منائر المسجد كأطراف المراسم الطويلة، لقد كانت هي مدينة رومية فتحها مؤسّسُ الدولة العثمانية السلطان عثمان خان الأول، وكان فتحاً عظيماً، ولما فتح السلطان محمد الفاتح استانبول انتقلت العاصمة من بورصة إليها.

وصلنا بورصة الساعة الثانية عشر ونصفاً، وخرجنا بعد العصر للتفرُّج على الجبال والمدينة، ثم زرنا نواحي المدينة، وهناك مدرسة الوعَّاظ والخطباء، ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم في عدد لا بأس به، وقيل: إن حوالي ألف طالب يحفظون القرآن الكريم في هذه المدارس بمدينة بورصة، ويوجد عدد كبير في هذه المدينة من المجاهدين البلغاريين الذين فرُّوا بدينهم من بلغاريا وعداوتها للإسلام، وضراوتها بدماء المسلمين وإبادتها العنصرية، وكان نزولنا بمنزل أحد الأخوة البلغاريين، وقد سجّل مضيفنا البلغاري انطباعاتنا عن هؤلاء الإخوة البلغاريين ومواساتنا لهم حتى يُسمِعوها الإخوة الآخرين.

خرجنا من بورصة في اليوم التالي الساعة التاسعة لاستانبول، ووصلنا بعد ساعة بالسيارة إلى «يلودا»، حيث وجدنا الباخرة جاهزة، وكانت الرحلة بها مُمتعة طيبةً، واستغرقت الباخرة ساعة ونصف ساعة حتى وصلت ساحل استانبول، وخرجنا في سيارتنا التي كانت في الباخرة إلى الشارع، وقد كان برنامج المساء عند الشيخ يوسف كارا بمنزله الذي قضىٰ أياماً في دار العلوم لندوة العلماء لكهنؤ، ويعرف اللغة الأردية، وقد قام بنقل عدد من الكتب الأردية إلى اللغة التركية، ثم كان موعدٌ مع الطلبة العرب، وقد كان الوقت متأخراً جداً، ولكنهم كانوا كلهم شوقاً وآمالاً، فحضرنا عندهم، وألقيتُ عليهم كلمةً وجيزةً.

يومان ونصف يوم في كراتشي:

كان اليوم التالي يوم الجمعة يوم الاستعداد للعودة، وقد ضاع وقت كثير في محاولة الحصول على التأشيرة لباكستان، وكنا نريد أن نصلي الجمعة في مسجد الفاتح، ثم نتغدّى ونحضر مؤتمراً صحفياً، ولكن أخَّرنا الحصول على التأشيرة حتى اضطررنا لصلاة الجمعة في مسجد قريب من السفارة، وفاتنا البرنامج في مسجد الفاتح، وغادرنا إلى المطار بعد العشاء، وكان موعد الطائرة الساعة الثانية والنصف ليلاً، ولكنها تأخرت إلى الساعة الرابعة صباحاً، ووصلنا كراتشي قريب الظهر، ولم ندرك من هناك الطائرة إلى دلهي، وأخيراً اضطررنا للنزول بكراتشي وقضينا بها يومين ونصف يوم، وفيما يلي مذكّرات هذه الأيام.

كان وصولنا إلى كراتشي يوم ٢٨/يونيو قريب وقت الظهر، ونزلنا كعادتنا في بيت العزيز السيد رشيد الحسن إمام وخطيب المسجد الجامع ببنوري تاون، وقد كانت هذه الإقامة ليومين ونصف يوم في كراتشي حيث يسكن ثلثا أسرتنا، وعددٌ كبير من أصدقائنا ومعارفنا، ويوجد بها كثير من المدارس والمعاهد الإسلامية والمراكز الدينية، لم تكن هذه الإقامة لِتبُلَّ غُلَّتهم، بل تزيدهم غليلاً، ولكن لم يتَّسِعْ لنا المجال من الوقت، وجاء في هذه المدة القريبة القليلة أصدقاء وأقرباء من إسلام أباد، وألقيت خطابين،

كان أحدهما في فندق ميتروبول في حفلة شاي عقدت ٢٩/يونيو من قِبَل نادي فاران، وقد رأس الحفلة السيد عبد الستار الأفغاني رئيس بلدية كراتشي، وكان الخطاب الثاني بتاريخ ٣٠/يونيو ١٩٨٦ م في المسجد الجامع العظيم بحيّ بنوري تاون بعد صلاة المغرب.

الأخطار الحقيقية على المجتمع الإسلامي:

كان عنوان الخطاب بفندق متروبول (الأخطار الحقيقية على المجتمع الإسلامي وطريق مقاومتها) وكان هذا الخطاب مؤسَّساً على تلك الانطباعات والمشاعر التي اعتملت في النفس نتيجة مشاهداتي أثناء إقامتي المتكررة بباكستان، وقد ظهرت هذه المرة أكثر جلاءاً ووضوحاً، وأَدْعَى للانتباه والتفكير.

وصادف إقامتي ـ وكان ذلك تقدير العزيز العليم ـ مجيء بينيظير بوتو إلى باكستان، وكان العدد الكبير من المُثقَّفين والسياسيين والمعارضين لحكومة الرئيس محمد ضياء الحق، الذين عارضوها من البداية واشتدت معارضتهم أخيراً، يستقبلها استقبالاً رائعاً، كأن مَلَكاً منقِذاً نزل من السماء، حتى زالت في هذا الصدد تلك الحواجز التي فرضتها الشريعة وفرضتها الحضارة الإسلامية، ولقد صُدِمَ بهذه المظاهر قلب المؤلف الذي يستقي فكره وعلمه من نبع القرآن الكريم، وأكبر موضوع يركز عليه عنايته ودراسته هو موضوع الديانات والملل والأخلاق، وتاريخ سقوط الأمم وانحطاطها ورقيها وازدهارها، ونفسية المجتمع البشري وأوضاعه، فألقيت في ضوء كل ذلك خطاباً مفصلاً مؤثراً، ذكرت فيه أن المقياس الذي يعرضه القرآن الكريم أمامنا للمجتمع الإسلامي الصالح هو أن يكون قد أُشرب في قلبه حب الأخلاق الفاضلة والمُثُل العالية التي تتغلغل في أحشائه، وتنطبع بها نفسه، وأن يرفض هذا المجتمع كل دعوةٍ أو حركةٍ مؤسَّسةٍ على الطغيان، واتباع النفس والهوى، وهدر حقوق الناس، وترك الطبيعة البشرية حبلها على غاربها، والتضحية بأكبر المصالح الاجتماعية والدينية لإرواء غلَّة الشهوات وتسلية النفس

والجري وراء العواطف الهوجاء، والأهواء العمياء، وأن يكرهها وينفر منها ويستقذرها.

واستشهدت على ذلك بآيات من القرآن الحكيم، وطبَّقْتُها على الأوضاع المعاصرة وقلت: إنَّ مجتمعنا يتَّبع كل ناعق، ويستمع لكل صوتٍ حسن، ويستقبل كل لاهٍ ولاعب، يمنِّيه بالأماني المعسولة، وينقاد لكل من يرفع لواء القيادة ويتهافت عليه كأنَّه كان له في انتظار، ويعتبر أنه ملأ الفراغ، وإذا سمع صوته الرخيم لم يملك نفسه، وكاد أن يتصدَّع صدره عن قلبه، وفكَّ جميع الأواصر والقيود، وتعدّى الثغور والحدود، إنه مجتمع فاسد متميِّع زائل.

لقد قال سيدنا علي رضي الله عنه، وهو يخاطب أهل الكوفة: (أنتم أتباع كل ناعق).

ثم ذكرت لهم أنَّ هناك قصة ذات عبرة وعظة من عهد سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ قَصَّها علينا القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ وَجَاوَزْنا ببني إسْرَائيلَ البحرَ، فَأَتَوْا على قومٍ يعكفُون على أصنامٍ لهم، قالوا يا موسَى اجعَل لنا إلٰهاً كما لهم آلهةً، قال إنَّكم قومٌ تجهلون، إنَّ هؤلاء متبَّرٌ مّا هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾[1].

إنَّ هذه القصة تحمل لنا في طياتها عبرةً وعظةً كبيرة.

ثم ذكرت أمرين كمثال، فيهما خطر كبير، ودمار لأي مملكة أو مجتمع، أحدهما: وجود الفوضى الفكرية فيه، والثاني: التنافس في جمع الأموال والحرص عليها، والتظاهر بمظاهر الثروة الفاحشة، وقلت: إنَّ نجاح مجتمعكم بكم، لا يصلح الفرد بغير صلاحِ المجتمع، ولا المجتمع بغير صلاح الفرد، فينبغي أن يصرف كُتّابكم ومفكِّروكم وأدباؤكم وعلماؤكم ووسائل الإعلام عندكم العناية البالغة بمقاومة هذين الخطرين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٨.

الشكر على النعم، والموازنة الحكيمة:

وخطبت في المسجد الجامع بحي بنّوري تاون، وكان موضوعه: «الشكر على النعم»، فقلت: إنَّ الشكر ليست كلمةً تقال باللسان أو ألفاظ الحمد والثناء التي يلفظها الإنسان فحسب، بل إنَّ الشكر منهج مستقلّ للحياة وموقفٌ دائم وكيفية نفسية خاصة، ثم لَفَتُّ أنظار الإخوة الباكستانيين لا سيما الذين نزحوا إلى باكستان من الهند، إلى ما أنعم الله به عليهم من نعمٍ وخيرات، نعمة الأمن والسلام، ونعمة المجتمع المسلم والحكومة المسلمة، والفرص المواتية لاستخدام صلاحياتهم وكفاءاتهم بحرية، كم منكم من يذكر وضعه القديم، كيف كنَّا وكيف أصبحنا بفضلٍ من الله ونعمة، وإلى أين وصل مستوى معيشتنا، كم لكم من التسهيلات هنا للعمل بالتعاليم الإسلامية، والبقاء على الشخصية الإسلامية، وكيف حفظكم الله ـ تعالى ـ من كثير من المشاكل والمصائب والتعرض للطائفية الحاقدة، والمذابح الجنسية الدينية، والمضايقات الاقتصادية، فتذكَّروا دائماً ما كنتم فيه من محنة وعدم هدوء واستقرار، وما انتقلتم إليه من سلامة وكرامة، وما أنعم الله به عليكم من رخاء وثراء.

لقد نوّه الحديث النبوي بموضع ضعفٍ في جنس النساء، عليكم أن تجتنبوه، وهو أنه ﷺ قال: «يَكْفُرن العشير، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ دهراً ثم رأت منك شيئاً. قالت: ما رأيت منك خيراً قط»، فاحذروا من نكران الجميل، والتذمّر الدائم، إن هتاف: «هل من مزيد» قد يؤوّل، وقد يكون له مبرِّر، أما هتاف: «هل من جديد» دائماً فإنه ينذر بخطر، ويجعل المجتمع في اضطراب وعدم ارتياح دائماً، ويجعله مستعدّاً لقبول كل شيء جديد، وقد أصبح هو شعار كثير من المجتمعات، ثم ذكرت ما هو واقع في بعض الأقطار الإسلامية من التسرّع والقلق الزائد، والنقد في محله وغير محله، وعدم الاعتراف بما يجب الاعتراف به، والتشكر عليه، فيجب أن يكون منهج عملكم وتفكيركم واقعياً إيجابياً بنّاءاً، ويجب أن تقارنوا بين بلادكم والبلاد الأخرى، وتدعوا الله تعالى أن يُديم عليكم من النعم ما آتاكم، ويزيدكم من

فضله نعماً كثيرة، ولا يجوز مواجهة كل شيء باليأس والقنوط، أو بالمجابهة والمعاكسة، بل ينبغي قبل اتخاذ موقف الهجوم والمجابهة ضد الحكومة والمسؤولين عنها، محاولة إقناعهم بما ترون، وإفهامهم قضيتكم التي تريدون.

وضربت لهم المثل بالهند ـ البلاد العلمانية الديمقراطية ـ التي ليست أكثريتها غير مسلمة فحسب، بل ولدت فيها نتيجة مرورها بمرحلة تاريخية خاصة (بل مراحل متعددة) وظروف وأوضاع خاصة، حساسية زائدة تحول دون التفكير الجادّ الواقعي في قضية من قضايا الأقلية، وعواطفها وضروراتها الدينية، وزد على ذلك موقف الصحافة الهندية والإنكليزية المتنكّر الهجومي، بالرغم من كل ذلك لما استخدمنا طريق الإفهام والإقناع مع رئيس الوزراء فيها، وقدمنا قضية الدفاع عن قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين، بدون تلوين سياسي وحماس مثير، أنتج ذلك أن رئيس الوزراء لم يقتنع بالقضية فحسب، بل تبنّى القضية واحتضنها، ودافع عنها باقتناع وحماس، وعرض المشروع في البرلمان الهندي للاحتفاظ بهذا القانون الخاص بالمسلمين ونقض ما أصدرته المحكمة العليا من حكم، حتى وافق عليه البرلمان وأصبح تشريعاً، ألا يمكن أن تتخذوا هذا الموقف والمنهج في بلد مسلم ومع رئيس مسلم متديِّن؟.

ثم قلت لهم: إنَّ أنجح تجربة للدعوة والإصلاح والثورة البنّاءة هي التجربة التي قام بها الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي، فقد حاول ـ بتعبير أحد العلماء اليمنيين ـ أن يوصل الإيمان إلى أصحاب الكراسي، بدلاً من أن يحاول وصول أصحاب الإيمان إلى الكراسي، فقد استطاع الإمام السَّرْهَنْدي بموقفه الدعوي الإيجابي تحويل أصحاب العرش والسلطة إلى حُماةٍ للإسلام، ورافعي لوائه الذين قاموا بأداء الدور، الذي كان يريد هو أن يؤديه.

وكانت لي محاضرات أخرى غير هذين الحديثين في مدارس وجامعات

ومراكز دينية، واجتماعات إسلامية، وقد صارحت فيها الحضور بأن المدارس والدعوات الدينية لا تقوم على التاريخ الماضي وعلى الرصيد من أعمال الأجيال الماضية، بل تقوم وتعيش على الحركة والعمل وتقديم المزيد الجديد في مجال الدعوة والقيادة، إنه لا يُجدِي نفعاً أن نعتزَّ دائماً بسلفنا وكبرائنا، ونهتف بهم ونردّد أسماءهم، فقد يتضجر بذلك السامعون ويملُّون هذا الترديد في مناسبة وغير مناسبة، ثم أنذرتهم خطر العصبية اللغوية والإقليمية، ونبّهتهم إلى ضرورة الدعوة والإصلاح والتعليم والتربية في هذه المناطق والشعوب التي يُخشى منها هذا الاتجاه المدمّر.

وعدنا بسلامة الله تعالى آمنين في ٣٠/يونيو إلى دلهي.

لقاء أخير مع الرئيس الباكستاني
الجنرال محمد ضياء الحق:

في خلال هذه الزيارة لباكستان، ولعله كان ٢٩/من يونيو، وكنت في منزل أحد أحبائي، وهو منصور بتله، رحمه الله، على غداء، إذ دقَّ الجَرَس، فقال لي المضيف: إن الرئيس يتكلم ويسأل عنك، ولا أعرف كيف علم الرئيس ضياء الحق وصولي، فالتقطتُ السَّماعة، وكان الرئيس يتكلم بنفسه فرحَّبَ بي على وصولي بسلامة في بلاده، وأعرب عن سروره، ووجَّه الدعوة لزيارة إسلام أباد، فاعتذرت وقلت: إن الوقت ضَيِّق، ولا يتسع لزيارة إسلام أباد، وتمَّت المكالمة التليفونية بدون تحديد موعد، وبالليل تلقيت مكالمة تليفونية في مقر إقامتي ببنوري تاون، تقول: إن الرئيس نفسه يصل إلى كراتشي، وطلب مني أن أخصِّص اليوم التالي له، ولا أعطي أي موعد ذلك اليوم لأحد، وكان ذلك اليوم يوم عودتي إلى الهند، وكان موعد الرحلة بعد الظهر، وفي الصباح اتصل بي أحد الضباط العسكريين، وقال: إن الغداء مع الرئيس، وسألني عن أسماء من أريد أن يرافقوني، فذكرت له بعض الأسماء منهم: العزيز المقرىء السيد رشيد الحسن من أحفاد الأمير السيد صديق حسن القنوجي البوفالي، وزميلي القديم الأديب الجليل الأستاذ محمد ناظم الندوي، ومرافقي العزيز محمد الرابع الحسني الندوي.

ووصل الجنرال ضياء الحق كما وعد، وتغدينا معه في القصر الرئاسي، وصلينا الظهر في المسجد الذي يقع في ساحة القصر، وكان هذا اللقاء متواضعاً أخوياً أبدى فيه الجنرال ضياء الحق كل بساطةٍ وثقة.

ومما أدهشني أنَّ الرئيس كان على علم بما اتخذته حكومة المستر راجيف غاندي، رئيس وزراء الهند من إجراء في قضية المرأة المُطلَّقة التي من أجلها شنَّت هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند حركة شاملة عمَّت جميع أرجاء الهند، وكان العلماء قد لعبوا فيها دوراً رائداً، فقدَّمت الحكومة مشروع قانون أعد (بالتشاور مع علماء الهند، وفي ضوء مقترحات هيئة الأحوال الشخصية) وأظهرت حكومة راجيف غاندي في هذه القضية الحكمة والاعتراف بالواقع، وعلمت في ذلك اللقاء أنَّ الرئيس ضياء الحق أعرب عن تقديره لهذا الموقف، كما تعجبت أن بعض الضيوف في تلك المأدبة، كانوا في ظلام بالنسبة لهذه القضية، ولم يعرفوا إلّا بهذا الحديث الذي جرى مع الرئيس.

الفصل السّادس

رحلات إلى إنكلترا، والجزائر، والحجاز، والمشاركة في جلسة المركز الإسلامي بأكسفورد، وملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر، والإقامة بالحجاز لأيام وأحداث أخرى مهمة

في المركز الإسلامي بأكسفورد:

كان موعد الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي بأكسفورد ٢٧/أغسطس ١٩٨٦م، وموعد ندوة مجلس البحوث الإسلامية العالمية لكسمبرغ بالقاهرة في أول سبتمبر، وكانت لي صلة مسؤولية بهما فنويتُ الحضور فيهما، وأردتُ لإلحاح الأستاذ الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر الشريف، على حضوري ومحاضراتي بالأزهر الشريف، أن أعود عن طريق القاهرة إلى الهند، فلما قرر مجلس البحوث الإسلامية العالمية - الذي كان أكثر أعضائه بمصر - عقد جلستها بالقاهرة، كتبت إلى سماحة شيخ الأزهر بأنني أستطيع أن أُلبِّي دعوتكم في عودتي من لندن في الأسبوع الأول من سبتمبر، ووصلنا - وكان مرافقي العزيز محمد الرابع الحسني الندوي - صباح ٢٦/أغسطس ١٩٨٦م إلى لندن وإلى أكسفورد ظُهراً، وأقمنا من ٢٧/ إلى ٢٩/أغسطس بأكسفورد، ثم توجّهنا إلى لندن، وأقمنا بها يومين ٣٠ - ٣١/، وجاء اعتذار من فضيلة شيخ الأزهر عن التاريخ المُقتَرَح من القاهرة، وشعرت بأنهم لم يروا زيارتي لمصر في الأوضاع السياسية المتغيّرة، ونظراً إلى قرب الانتخابات العامة، مناسبة في ذلك الوقت، فرأينا كذلك من غير اللائق أن أسافر

للمشاركة في جلسة مجلس البحوث الإسلامية، وأقيم بمصر من غير ترحيب من جهة الأزهر وموافقة الحكومة المصرية، وألغيتُ برنامج السفر لمصر في تلك الآونة، وقصدتُ حضور الملتقى الإسلامي العالمي بالجزائر ـ الذي كنت حضرته مرة من قبل في يوليه ١٩٨٢ م ـ، وكنت اعتذرت عنه هذه المرة لسفر مصر ودعوة الأزهر، فلما أُلغي ذلك صحَّ العزم على السفر إلى الجزائر، ويمتاز هذا الملتقى بين الملتقيات والمؤتمرات والندوات التي تعقدها الحكومات والمُنظَّمات بالعالم الإسلامي والعربي، بميزات وأهمية خاصة.

في ملتقى الجزائر:

كان عنوان هذا الملتقى الإسلامي بالجزائر: «الإسلام والعلوم الإنسانية»، وكنت قد أعددت محاضرة مفصلة بعنوان: «دور الإسلام الثوري البنّاء في مجال العلوم الإنسانية» وكنت بعثت بصورة منها إلى سكرتير الملتقى، وقد كان يعقد هذا الملتقى هذه المرة بسطيف إحدى المدن المركزية بالجزائر وتقع على بعد ٣٠٠ كيلومتر من العاصمة «الجزائر»، وهي مدينة عامرة من عهد الرومان، ولا يزال لها اسمها الرومي، ومن سعادة حظّ هذه المدينة، أنها كانت مركز حركة التحرير الجزائرية، وموطن قائدها وزعيمها الشيخ بشير الإبراهيمي، كما أنها عاصمة الولاية أيضاً، وكنا حضرنا الملتقى في عام ١٩٨٢ م في تلمسان، ويحاول المعنيّون بالملتقى أن يعقدوه كل عام في مدينة رئيسية جديدة حتى يستطيع الناس من المدن الكبرى الاستفادة منه، ويتيسَّر للمندوبين والضيوف زيارة مختلف مدن البلد والاجتماع بعلمائها وأهل الفضل فيها.

غادرنا لندن إلى الجزائر ظهر يوم الاثنين ١/سبتمبر، ونزلنا بمطار الجزائر وقت المغرب، وقد كان على المطار هذه المرَّة ـ بالعكس من المرة السابقة التي وصلنا فيها متأخّرين ليومين ـ مستقبلون ذهبوا بنا إلى فندق كبير، وتوجهنا صباح اليوم التالي يوم الثلاثاء ٢/سبتمبر إلى قصر الملتقى بمدينة سطيف، وقد أدركنا الجلسة الافتتاحية التي بدأت ساعة ١١ ضُحًى، وقد أتاحوا لي فرصة إلقاء كلمتي في البرامج الأولى من الملتقى، وكانت قد

طُبِعت على الآلة الكاتبة، ووُزّعت على الحاضرين، وكنت أعددت ترجمتها الإنكليزية التي كانت معي، وكان بعد إلقاء المحاضرة نقاش، وصلّينا الجمعة مع الوالي في المسجد الذي بُني حديثاً في المدينة، وسمِّي باسم الشيخ بشير الإبراهيمي، وقد قامت ببنائه وزارة الأوقاف، وافتتح المسجد بصلاة الجمعة فيه، وقد أُلقِيَتْ في هذا الملتقى حوالي ٢٧ ـ ٢٨ محاضرة أعدَّها للملتقى كبار الأساتذة الجامعيين، ورجال الدعوة والفكر الإسلامي.

محاضرتي في الملتقى:

يحلو لي أن أورد هنا موجزاً من محاضرتي، فإنها تشتمل على نقاط مهمة.

أثبتُّ في محاضرتي أوّلاً أن الإسلام قام في مجال العلوم الإنسانية بدور جذري بنّاء، وقد استعرضت فيها العصر الذي بلغت فيه اليونان وإيران والهند ـ التي قادت العالم في فترات مختلفة علمياً وفكرياً وحضارياً ـ أوج ازدهارها ورقيّها وسُلطتها واستيلائها، استعراضاً واقعياً محايداً، وذكرت في ضوء تصريحات المؤلفين والمؤرخين الغربيين ما وصلت إليه العلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والرياضيات والأدب والشعر في هذه البلدان، من أوج الرقيّ والازدهار، وكيف كان فلاسفة هذه البلدان وعباقرتها ونوابغها يصيدون النجوم ويقتنصون المجرات، ويشُقُّون الشعرة، وكيف كان بينها تبادل العلوم والفنون والآراء والفلسفات والحضارات.

ثم صرّحت بنقول مقتبسة من كتابات المؤرخين الغربيين الثقات، بأن هذا العلم والذكاء والعبقرية والدقة والعمق والطيران في الأجواء العلمية والعقلية ـ الذي لم يحفظ التاريخ المحفوظ مثيلاً له في التحليق في عالم الخيال والافتراضات العقلية ـ لم يمنع هذه البلدان الثلاثة ـ اليونان، وإيران، والهند ـ من التعارض والتناقض المحيِّر في عملها وسلوكها، وإلى أن وصل علم الأصنام والميثالوجية اليونانية من السخرية والاستخفاف بالعقل والتسفُّل والتردّي والاعتقاد بالأوهام والخرافات والإفلاس العقلي والعلمي الشائن

القبيح، إلى حد لا يتصور لهوله، وأنه لم يَحُلْ علمها وعقلها ورقيُّها الفكري المزعوم دون هذا الإسفاف العقائدي والانحطاط الخلقي، وقد كانت هذه البلدان كلها، في هذا المضمار على قدم واحد، ثم كانت الفوضى الخلقية والاجتماعية والانحراف والشذوذ، بلغ إلى ما لا يُتصوَّر أكثر منه في هذا العصر المليء بالفتن أيضاً، وقد أوردت في هذا الصدد تصريحات للمؤرخين الغربيين عن اليونان وشهادات المؤرخين الإيرانيين والهنود عن الهند وإيران، يتندّى لها جبين الحياء ويحمرّ لها وجه الشّرف والإنسانية.

ثم تناولت ذكر حركات قامت كردّ فعل لهذا الجنون فعالجت الجنون بجنون آخر، وحيرة مردية وتطرُّف جامح، وفقدت تأثيرها، ولم تحدث أي تغيير، ثم حاولت حل هذا اللغز وكشف النقاب عن حقيقة الأمر والسبب الأصيل الكامن وراء ذلك، وصرّحت في ضوء العلم والمعرفة والحقائق بأن السبب الأصيل وراء كل هذا التناقض العجيب، أن هذا البلدان الثلاثة كانت قد انقطعت صلتها بتاتاً في عصر ازدهارها المادّي وتقدُّمها الفلسفي عن الهداية السماوية والنبوة والرسالة، بل كانت اليونان وبعض البلدان الأخرى تعتزّ بعلومها وفلسفاتها، وتتيه بعبقريتها العقلية المزعومة، وتنظر إلى تعاليم الأنبياء نظرة احتقار وازدراء، وكانوا يقولون ـ قاتلهم الله ـ صلفاً وتكبراً: ماذا يوجد عند الأنبياء من جديد ومفيد حتى يعلّمونا، ويزيدوا في ثروة معارفنا؟، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإعجاب بأنفسهم بقوله:

﴿ فَلَمَّا جَاءتهم رُسُلُهم بالبيِّنات فَرِحوا بما عندهم من العلم وحَاق بَهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[1].

ثم شرحت الحاجة إلى النبوّة والرسالة، وذكرت مُعطَيات الأنبياء، وأنهم يرسون دعائم العقائد والأعمال والحضارة والأخلاق، ثم ذكرت أن العلوم والثقافات والإنتاجات العقلية لم يكن لها أثر في تلك البلدان على

(١) سورة المؤمن، الآية ٨٣.

المجتمع والحياة العامة شيئاً، بل كانت تحدث تناقضاً عجيباً بين العلوم والأخلاق، ووحشة وتنافراً بين العلماء والعامة، وتبعثُراً في الوحدات العلمية وانفصاماً بل تخاصماً وصداماً، فلم تكن هناك أيّ صلة بين العلم والعمل، وأي باعث ودافع للإصلاح والتغيير للمجتمع في العلماء والفلاسفة، وأي شعور بالمسؤولية، بل كانوا يعيشون في أبراجهم الفلسفية العاجية، ويدورون في فلك الحياة الرخيصة المترفة، ويهيمون في دنيا الأحلام والفروض العقلية.

فلما جاء الإسلام تناول هذا الوضع فغيَّره من أساسه، ونفخ في العلوم الإنسانية روحاً جديدة، ووجهها وجهةً صالحة جديدة، وربط صلتها بأهدافها الحقيقية، وأقام علاقتها بفاطر الكون ثم بالكون والحياة البشرية بجميع شعبها وفروعها، وجمع بين الوحدات العلمية المتناثرة وجعلها متماسكة يشدّ بعضها بعضاً، وحوَّل أهل العلم والفضل وأصحاب الوعي والفهم أمناء مراقبين للمجتمع، ومسؤولين محتسبين، وهُداة معلِّمين للجهلة الأميين، وأوجد فيهم ليس الشعور بالمسؤولية أمام الله ـ تعالى ـ فحسب، بل اليقين الجازم والخشية القائمة من رب العالمين، وهداهم إلى بدء سلسلة الدراسة والتعليم والبحث عن الحقائق والكشوف العلمية والحركة التربوية والتعليمية باسم الرب ـ عز وجل ـ والقيام برحلة العلم في هدايته وإرشاده، فإن أودية العلم شائكة وَعِرة مليئة بقُطّاع الطرق تتعرَّض فيها القوافل للغارات جهاراً نهاراً، ويضل فيها المشاة والركبان، فقد بدأ الكتاب الإلهي وحيه الأول بقوله:

﴿ اقْرأ باسمِ ربِّك الذي خَلَق ﴾[1].

ثم ذكرت حركة الإسلام العلمية العالمية وخصائص قادتها وممثّليها ومميّزاتهم، وأوردت نماذج وشواهد على ذلك وقصصت أخيراً على المستمعين ـ لأرفع شيئاً من الملل والسآمة في الاستماع إلى محاضرة علمية طويلة ـ قصة خفيفة مسلّية، فقلت:

---

(١) سورة العلق، الآية ١.

(يُحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنزهة في البحر أو الوصول إلى البر، فتناولوا في الطريق المجدِّفَ للسفينة موضوعاً للتنادُر والتسلية والدعابة، وبدأوا يسألونه عن أسماء العلوم والمعارف التي تلقّوها، هل درست كذا، وقرأت عن كذا؟، فكان يجيب بالنفي، ويبدي جهله بهذه المواضيع، فسألوه عن عمره فلما أخبرهم بذلك، قالوا: إنك ضيّعتَ نصف عمركَ!، وقدّر الله أن هاج البحر وماج، وارتفعت الأمواج، فجاء دور الملاَّح الأمي فتوجَّه بالسؤال إلى أولئك الطلّاب، وقال لهم: هل تعرفون يا أبنائي السباحة في البحر؟، قالوا: لا والله يا عم، هنالك قال الملاح: إذا كنتُ قد ضيَّعتُ نصف عمري فقد أتلفتم عمركم كله، لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد وهو علم السباحة الذي تجهلونه).

كذلك فإنّ العلم الذي تحصل به النجاة ويعبر به بحر الحياة بأمن وسلام، إنما هو العلم الذي يقتبس من مشكاة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات[1] ـ.

مكثنا في سطيف من ٢/سبتمبر إلى الجلسة الختامية للملتقى عصر ٥/سبتمبر، وكان قد حضر هناك مجموعة طيبة من الأساتذة العرب الفضلاء، كان منهم عدد من الأصدقاء القدامى، التقينا بهم وجلسنا معهم، وأجرى هناك معنا ممثل صحفية «الأهرام» المصرية مقابلة صحفية، كان فيها حديث حول القضايا المعاصرة المهمة.

رجعنا يوم الجمعة عصراً بالسيارة إلى مدينة الجزائر، وقد وصلناها وقت العشاء، وكان المسؤولون عن الملتقى حجزوا لنا مقعدين في الدرجة الأولى من طائرة الخطوط الجزائرية إلى القاهرة، ومنها في طائرة الخطوط السعودية إلى جدّة، ولم تكن هناك طائرة مباشرة للخطوط الجزائرية في ذلك

---

(١) نشرت مكتبة الصحوة بالقاهرة هذه المحاضرة بعنوان «دور الإسلام الجذري البنّاء في مجال العلوم الإنسانية».

اليوم إلى جدة، قضينا الليلة في الفندق، ثم غادرنا الصباح إلى القاهرة، وسُرِرْنا بالإشعار المطبوع في الطائرة الجزائرية بأن اللحوم كلها مذبوحة حلال، لا شبهة فيها.

وصلنا القاهرة في الساعة الحادية عشرة، وقد كنت وضعت قدمي بعد ١٩٥١ م أي بعد ٣٥ ـ ٣٦ عاماً على أرض مصر، وقع بصري على لافتة على واجهة المطار، كتبت عليها الآية القرآنية: ﴿ ادخلوا مِصْرَ إنْ شَاءَ اللّهُ آمنين ﴾، ولعله ليس هناك بلد في الدنيا ناسبت لِلافتةِ مدخلها آية مثل بلد مصر، ولكننا لم نجد من المسؤولين والمُوظَّفين في المطار بالقاهرة من المعاملة ما كانت توحي به الآية الكريمة، فقد كانت عندنا تذكرتان للدرجة الأولى، وكان المقعدان محجوزين إلى جدة، ولكن لم يكن هناك من يعتني بنا وييسّر لنا مهمتنا، فكان الموظفون يؤثرون التكلم باللغة الإنجليزية على التكلم بالعربية، وإذا سئلوا عن شيء جاء منهم رد قانوني جافّ، ولا مكان للراحة والاستجمام، ولا تسهيلات للوضوء والصلاة، وإذا توجهنا بالسؤال إلى أحد ردوا علينا بأن انتظروا إقلاع الطائرة.

وهكذا قضينا ساعات من الساعة الحادية عشرة ضحى إلى الساعة السادسة مساءاً، وكان التاريخ غرة محرم و ٦/سبتمبر، وغادرنا أرض مصر وقت المغرب، ووصلنا العشاء إلى جدة، حيث شعرنا كأننا وصلنا إلى وطننا ومكثنا يوماً وليلتين بجدة، ثم توجهنا إلى المدينة المنورة في ٨/سبتمبر حيث بقينا إلى يوم الجمعة ثم سافرنا في ١٣/سبتمبر يوم السبت إلى مكة المكرمة.

وفرغنا بها من أداء العمرة، وأقمنا بها من ١٣/ إلى ١٩/سبتمبر يوم الخميس، وخرجنا عن طريق الكويت إلى دلهي في ٢٠/سبتمبر.

وفاة الصديق والزميل القديم
فضيلة الشيخ محمد عمران خان الندوي:

أخبرني أحد الأصدقاء تليفونياً من دلهي في ١٨/أكتوبر ١٩٨٦ م بحادث وفاة الصديق العزيز والزميل القديم، فضيلة الشيخ محمد عمران خان

الندوي الأزهري، وقد كان هو منذ مدة مصاباً بعدة أمراض، وكان شبه مقْعد، ولكنه كان بفضل قوة إرادته غير العادية وصبره واحتماله وتحمله وطموحه - الخصال التي أكرمه الله منها بنصيب وافر - لا يُشعر الناس بأمراضه الكثيرة الشديدة، وكان قد عقد ندوة في الفترة ما بين ٤ - ٦/سبتمبر ١٩٨٥ م في ذكرى العلامة السيد سليمان الندوي بتاج المساجد في بوفال، كانت ندوة فريدة من نوعها، لم تعقد ندوة مثلها في النظام والإفادة والروعة والإتقان عن العلامة السيد سليمان الندوي في أي مكان آخر. فنزل عليّ هذا النبأ كالصاعقة على الأعصاب، فإنَّ الصداقة والصلة الأخوية والزمالة بيني وبينه تمتدُّ إلى ما لا يقل عن نصف قرن.

كان زميلي في الدراسة، وكان زميلي في العمل في دار العلوم ندوة العلماء حيث تولى منصب العمادة لأعوام، وقد قام بأداء حق الزمالة بطريق حاز به شرف «اليد العليا خير من اليد السفلى» وقد شاهدت فيه أمثلة عجيبة من الكرم والطموح والوفاء والاستقامة، إن لم تكن هذه الأمثلة مفقودة فهي نادرة قليلة.

وكان يقتضي سماع هذا النبأ وصلتنا به أن نتوجّه فوراً وأصدقاؤه وأصحابه بدار العلوم لندوة العلماء إلى بوفال، ونحضر جنازته ودفنه، ولكن ليست هناك طائرة مباشرة من لكهنؤ إلى بوفال فلم يمكن لنا أن نحضر صلاة الجنازة، وكانت المشكلة الثانية انعقاد مؤتمر لهيئة التعليم الديني في اليوم التالي ١٩/أكتوبر بمدينة سيتابور، وكان عليَّ أن أرأسه وأخاطبه.

وأخيراً سافرنا إلى بوفال في ٢٠/أكتوبر، وكان معنا الشيخ محمد معين الندوي، والشيخ أبو العرفان الندوي، والشيخ محبوب الرحمن الندوي والعزيز عبد الرزاق، ولم يكن أهل بيته وأفراد أسرته والعاملون في مدرسة تاج المساجد وأصحاب جماعة التبليغ يستحقون العزاء فحسب، بل كانت مدينة بوفال كلها فقدت ابنها العزيز وعالمها وداعيها الكبير، وكان جامع تاج المساجد الذي يشهد إكمال بنائه على عزيمته الصادقة وهمته العالية،

وطموحه السامق، والذي يعدُّ من مآثره الجليلة، تذكاراً حيّاً لشخصيته، وفيه يعقد أكبر اجتماع سنوي في الهند لجماعة التبليغ، وكان هو الذي بدأ به.

وعقدت في هذا المسجد حفلة تأبينية، قمت فيها بإبداء انطباعاتي ومشاعري، وذكرت مواهبه وميزاته، ونبهت الأخوة الشباب الفضلاء الذين رباهم الشيخ الراحل وزملاءه ومحبيه وأهل المدينة، إلى المسؤوليات الجسيمة التي تقع بعده على عاتقهم، وليست هذه الانطباعات هي مقتصرة على هذه الحفلة وهذه المدينة، بل إنَّ نطاقها واسع جداً، وإن مساحتها الزمنية فسيحة، رفع الله درجاتِه في أعلى عليين، وجعل آثاره نقوشاً باقية وصدقات جارية.

قدوم إمام الحرم الشريف فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله السبيِّل ومعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، إلى ندوة العلماء ـ لكهنؤ:

شرَّف يوم ١/نوفمبر ١٩٨٦ م إمام الحرم المكي فضيلة الشيخ محمد ابن عبد الله بن السبيِّل، ومعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، والسفير السعودي لدى الهند سعادة فؤاد صادق مفتي ومرافقوهم، دارَ العلوم ندوة العلماء على دعوة منها، وقد استقبلهم أهل البلد على المطار لنسبة الحرم الشريف استقبالاً فخماً رائعاً لم يسبق له نظير في استقبال الضيوف الوافدين في تاريخ لكهنؤ، وصادف ذلك يوم الجمعة، وعقد على شرفهم احتفال كبير في ساحة دار العلوم حضره مئات الألوف من الناس، ونشرت الصحف الإنكليزية نبأ الاحتفال فقالت: (كان بحراً مائجاً من البشر) وقد حضر الاحتفال فخامة السيد عثمان عارف حاكم الولاية، ومعالي السيد نياز حسن رئيس المجلس التشريعي للولاية الشمالية، وعدد من الوزراء للولاية وللحكومة المركزية والمسؤولين الرسميين، وكبار رجال التربية وعامة المُثقّفين والعلماء والمشايخ، وأساتذة الجامعات والكليات.

تلوت في خطابي بهذه المناسبة الآية القرآنية:

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الكعبةَ البيتَ الحرام قياماً لِلنَّاس والشهرَ الحرام ﴾[1].

وتناولتها بالتفسير والتطبيق، فقلت: إنَّ نظام العالم مرتبط في باطن أمره ببيت الله الحرام، كما أنَّ نظام العقائد والأعمال والأخلاق مرتبط بالدعوة التي أسس لها هذا البيت.

وقلت: إنني أعترف بقصور باعي في ترجمة « قِياماً للنّاس » وأن الترجمات الأردية للقرآن الكريم التي اطّلعتُ عليها وقرأتها، أعتقد أنها لم تستطع كذلك إيفاء هذه الكلمة حقَّها، إلاّ أنني أحاول أن أذكر مغزى الكلمة ومفهومها، وهو أن الله ـ تعالى ـ جعل الكعبة المُشرَّفة، عماد حياة الناس، وعماد هذا العالم البشري، فليس نظام هذا العالم مرتبطاً بالحكومات ولا بالمُنظَّمات ولا بالقوة العسكرية والفلسفات الخلقية والحضارية، ولا المراكز العلمية، إنه مرتبطٌ بما لا تصل إليه الأفهام ولا تدركه الأبصار ببيت الله الحرام، وبالدعوة التي أقيم لها هذا البيت، وأنها عبارة عن العقيدة الصحيحة الراسخة والسيرة الطّيبة الصالحة، والأخلاق النبيلة الفاضلة، والأواصر البشرية الخالصة، والأخوة الصادقة والمحبة المتغلغلة في النفوس، واحترام الإنسانية، واعتقاد أن الله حاضر سميع بصير.

إنَّ مركز هذا الكون ومحوره هو تلك الدعوة وتلك الأهداف والتربية التي كان سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ داعيها الأول، ومجدّدها وخاتمها ومكمّلها هو سيدنا محمد رسول الله ـ ﷺ ـ الذي كان ولا يزال بيت الله الحرام والمسجد النبوي الشريف يمثلانها ويحتضنانها.

وإنَّ هذه الآية الكريمة تفرض علينا نحن المسلمين الهنود مسؤولية كبيرة، فإننا ـ نحن الأمة المسلمة الهندية ـ نمثّل هنا بيت الله الحرام، فلو هلكت هذه البلاد لأثرتها وجشعها وحرصها على الثروة والأموال وقتل الناس الأبرياء، والتعذيب والإيذاء، والاضطرابات الطائفية والأنانية وخواء الضمير

---

(١) سورة المائدة، الآية ٩٧.

وهدر كرامة الإنسانية، لو وقع ذلك فإننا نحن المسؤولون أمام الله، وسوف يمسك بتلابيبنا محمد ـ ﷺ ـ فإننا أمة نبي وصف بأنه «رحمة للعالمين»، قال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿ وما كان الله ليُعذّبهم وأنت فيهم، وما كان الله مُعذِّبَهُمْ وَهُمْ يستغفرون ﴾[2].

فلا يجوز أن تُدمَّر بلادٌ مع وجود أمة نبي الرحمة التي تحمل تعاليمه وشريعته، والتي هي صنيع تربيته وتعليمه، فإن من مسؤوليتها أن تحافظ عليها والمُثُل العليا فيها، وتحميها من الانتحار الجماعي والدمار الخلقي، والفوضى النفسية.

وقام الضيفان الكريمان بعدي بإلقاء كلماتهما التي كانت تحتوي على نصائح غالية ووصايا طيبة، من التمسّك بالتوحيد والإخلاص، والتقوى والتديّن الصحيح، وحُبّ الوطن وأداء حقوقه، وتلبية حاجاته ومقتضيات العصر.

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٣.

الفصْل السّابع

ندوات حوار بدِلْهي، وناكبور، وبونا

غصن العش:

لقد قال شاعر قبل قرون ـ بُلِيَ فيه المُرَّ من إخوانه ومواطنيه، وابتُلِيَ بجفائهم وقسوتهم وسوء معاملتهم:

لا أذود الطّيرَ عن شجر قد بلوتُ المُرَّ من ثمره

وقال شاعر أردي أيضاً:

(لقد غادر البلبل الحديقة، فما عليه لو عاش فيها البوم (الذي يضرب به المثل في النحس) أو وكر فيها طائر مثل هُما[1] (الذي يُتيَمَّن به ويُتفاءَل).

ولكنَّ الهند وأوضاعَ المسلمين فيها تختلف عن ذلك، إذا نظرنا إليها نظرة مسلم صادق، محبٍّ لوطنه، وذلك أولاً لأنَّ المسلم لا ينحصر في دائرة ضيقة من التفكير، فهو عالمي التفكير، يسبح في الآفاق، وإنَّ دينه يفرض عليه الاهتمام بأمور الناس وأخلاقهم ومصيرهم، ويعتبر الناس جميعاً في أي مكان خلق الله وعياله وأمانته، ويرى من مسؤوليته الحفاظ عليهم وخدمتهم ونصحهم وإرشادهم ودلالتهم على الخير، ولذلك فإنه لا يترك هذا الزرع تحت رحمة الحيوانات التي تعبث فيه، وهذه الشجرة المخضرّة المثمرة تحت رحمة الطيور التي تفسدها.

(١) طائر أسطوري في الشعر الفارسي، يقال: إنه لو جلس على رأس إنسان أو طار عليه آل إليه المُلك وكتبت له السعادة.

وبالعكس مما قال الشاعر الأردي أن البلبل غادر وكرَه في الحديقة، إنّ المسلم الهندي بنى عشه على غصن من أغصان هذه الدوحة، إنه سقاها بدمائه وتعهَّد كل شجرة منها، بل كل ورقة وفسيلة منها بالرعاية والحفظ والحراسة.

فلا يستطيع المسلم لأجل ذلك أن يشاهد متفرّجاً الفساد في البلاد، البلاد التي اتخذها وطناً، والتي لجأ إليها آباؤه وسلفه الميامين وحملوا إليها في الظروف القاسية الشديدة، رسالة التوحيد، والأخوة، والمساواة الإنسانية وآوتهم هذه البلاد واحتضنتهم حين ضاقت عليهم أوطانهم عند الهجوم التتاري المدمّر، واستعصَى عليهم البقاء فيها في عزّ وكرامة، وصيانة وسلامة.

كانت هذه هي الحقيقة والعقيدة وطريقة التفكير التي لم تسمح لكاتب هذه السطور أن يتغاضى عن أوضاع الهند والنزعات الهدامة الآخذة فيها بالنمو والانتشار، والحركات المفسدة الطائفية المثيرة للكراهية والبغضاء، والأحقاد والشحناء، وأنه لم يستطع أبداً أن يتناسى - مع عنايته بقضايا العالم الإسلامي، وأوضاع البلدان المسلمة والصحوة الإسلامية الجديدة التي تلمس آثارها من المغرب العربي إلى بلادٍ في جنوب وشرق آسيا كأندونيسيا وماليزيا، والمشاركة فيها بخُطَبه وكتاباته وحضوره للندوات والمؤتمرات فيها - ذلك الغُصن من الدوحة الذي أنشأ عليه وكره وأسّست عليه الأسرة الإسلامية الكبيرة من الأمة المسلمة العظيمة عُشّها وبيتها، وهي أسرة لم تفقد في يوم من الأيام صلاحياتها العلمية والعقلية والعملية والتفكيرية.

كانت هذه هي العواطف والدوافع التي حملت كاتب هذه السطور على القيام بحركة «رسالة الإنسانية» رغم أنها لم تكن تنسجم مع ذوقه وطبيعته، وانقطاعه إلى الدراسة والتأليف، وحبّ العُزلة واشتغاله بخاصة نفسه، وقام مع عدد من زملائه وأصدقائه بجولات واسعة في البلاد، وخطب في الاحتفالات الكبيرة، وعقد ندوات ومؤتمرات وشاركها بجميع اهتماماته.

إنَّ الاتّجاه الذي اتجهته الصحافة الهندية والإنكليزية، والموقف العاطفي الهجومي المتهوّر الذي اتخذه الكتّاب والمفكرون وعامة المثقّفين من غير المسلمين وزعمائهم وقادتهم، وأنهم جعلوا ذلك قضية كرامة الأكثرية وشعاراً لقوتها واستيلائها وحقّها المطلق في التشريع، بل علامة للقومية المُوحَّدة ومقياساً لها، كل ذلك لفت المؤلف إلى أنَّ الأكثرية في هذه البلاد لا تعرف شيئاً عن معتقدات المسلمين الأساسية وطبيعتهم الدينية، وقضاياهم المهمة وعواطفهم ومشاعرهم الحسّاسة، وهم يفوقون في ذلك أبناء البلاد الأجنبية البعيدة، رغم تسهيلات النشر والتوزيع والأسفار والرحلات، ورغم إمكانيّات التعارف وتبادل الآراء الكثيرة. ثم إنَّ الأمر لا يقتصر ـ بناءاً على الأدب المثير للأحقاد والضغائن والدعاية السياسية والتأريخ الملوّن المسموم، والكتب المقررة والقصص والروايات المزورة فيها، التي تثير العواطف وكوامن النفوس ـ على الجهل السلبي، بل على الكراهية الإيجابية والبغضاء والإثارة والاحتقار والازدراء والإهانة، زد إلى ذلك الخوف والتوجُّس الذي استولى على قلوب مئات الآلاف من الناس ورسخ في عقولهم.

كذلك حملتني التجارب المرَّة التي قاسيناها في قضية نفقة المطلَّقة المسلمة على أن نعقد ندوات ومجالس حوار، باهتمام بالغ وبطريقة مؤثرة في المناطق الرئيسية في الهند التي تصدر منها ـ بصفة خاصة ـ الصحف الإنكليزية والهندية والجرائد والمجلاَّت الإنكليزية والهندية المعروفة، والتي هي مراكز لحركة إحياء الهندوسية والطائفية، ونشاطات قادة الأحزاب والجماعات المتطرِّفة.

ووقع اختيارنا أولاً لأجل هذا الغرض على دلهي، وناكبور (Nagpur) وبونا (Pune) فدلهي عاصمة البلاد، والمركز السياسي والثقافي لها، ومدينتا ناكبور وبونا مراكز لحركة R.S.S. وحركة شيو سينا، الحركتين الطائفيتين المتطرفتين، وقد كان ظهر لنا من التجارب السابقة أنه لا يكفي لعقد هذا الحوار الاكتفاء بإرسال الدعوات والإعلانات عنه في الصحف، بل لا بد من لقاءات شخصية وصلات وزيارات والدعوة الشفوية المباشرة.

وكانت مشكلة كبيرة ودقيقة أننا كنا ـ لأجل الشواغل الكثيرة والرحلات والجولات المتتابعة في مختلف مدن البلاد ـ قرَّرنا تاريخ ٤/مايو ١٩٨٦ م لعقد هذا الحوار، وكان المشروع الخطير المتعلق بنفقة المطلقة المسلمة الذي كانت له رجَّة في البلاد يقدم بعد يومين بالضبط أي يوم ٦/مايو في البرلمان للبحث والنقاش، الأمر الذي جعل جوّ العاصمة دلهي جوّاً مكهرباً مثيراً غير مُتّزن، ومع ذلك فإنَّ الجهود قد بذلت، وأعدّ سعادة السيد حامد نائب رئيس جامعة عليكرة الإسلامية، والشخصية الإسلامية المرموقة، تعريفاً بالعمل ومقترحات مقدمة في الحوار باللغة الإنكليزية، وكنت قد طبعت مقالاً بعنوان: «حاولوا فهمَ قضايا المسلمين وعواطفهم»، ونُشِرَ من قبل مجلس الوحدة والاستحكام لعموم الهند فرع لكهنؤ، بصورة رسالة مُفردة وكانت قد أُعِدَّت ترجمته باللغة الإنكليزية والهندية.

وقد ذكرت في هذه الرسالة خصائص المسلمين الأساسية، وهي العقيدة المُعيّنة الواضحة، والدين الخالص، والشريعة السمحة، وكمال الدين وخلوده، وصلة المسلمين المنقطعة النظير بنَبيّهم ورسولهم محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، ثمَّ صرَّحتُ بسبب أهمية قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين في حياتهم، ثم أشرت إلى حكمة الزعيم غاندي وبُعد نظره، وواقعيته إذ أيَّدَ قضية الخلافة التي كانت تخص المسلمين، وأحدث بذلك جوّاً من الوحدة العجيبة بين المسلمين والهندوس، والثقة المتبادَلة في ما بينهم، والتعاون المشترك والحماس الذي لم نشاهد مثله من قبل ولا من بعد، ثم ضربت لهم مثالاً من تمسُّك رئيس الوزراء الأسبق لجمهورية الهند جواهر لال نهرو بالمبادىء والأصول التي تظاهر بها عام ١٩٥٠ م ضد العناصر المتعصبة من أعضاء حزبه «حزب المؤتمر الوطني» الذين كانوا يتولَّون زمام البلاد ويطالبون بتحقيق مطالبهم، بحجة أنها مطالب الجمهور وأنها الرأي العام، فقد قام جواهر لال في خطابه الذي أدلى به في ٢١/سبتمبر عام ١٩٥٠ م في غاندي نكرناسك (Nasik):

(إنَّ أناساً يأتون إليّ ويقولون إنَّ الجمهور لا يريد أن يسمح الشيء

الفلاني، وإن صوت الجمهور له الحق في التقدم، إنه حجة الجبناء، فإذا كانت الجمهورية تعني الخضوع أمام الزحام فطريقها إلى النار، إنَّ هذه العقلية حيثما ترفع رأسها فأنا أحاربها وأناضل ضدها)[1].

ثم شكوتُ إلى الصحفيين والصحافة الهندية أنهم لا يقدِّمون عواطف مختلف الفرق والطوائف وشكاواهم ومظاهراتهم واحتجاجهم واحتفالاتهم في حجمها الصحيح، مع عرض انطباعات الحاضرين وعواطفهم أمام الحكومة والجمهور حتى يستطيعوا في ضوئها إدراك الحقائق، وتقدير الوضع الصحيح، وضربت لهم مثلاً باحتفال كلكته العظيم الذي عقد في ساحة «شهيد مينار» وحضر فيه ما لا يقلّ عن خمس مائة ألف شخص (نصف مليون إنسان)، ولكن الصحافة الإنجليزية أغفلته، كذلك موقف الصحافة في قضية مذكرة قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين كان موقفاً منحازاً مصرّاً على الانحياز والنظرة الطائفية الضيقة.

ولكن كما أسلفنا لم يحضر - رغم الجهود المتواصلة - من الصحافيين ورجال الفكر والقانون وقادة الأحزاب من غير المسلمين إلاّ قليلاً، لأن الجوَّ كان مكهرباً غير مُتّزن، وكان من الخير أنْ رَأسَ الندوة اندر كمال كجرال (سفير الهند لدىٰ روسيا سابقاً) وحضر الصحافيّ الكبير المعروف كلديب نير (Kuldip Nayar) وهو يعتبر من الصحافيين المُتفتّحين الصريحين، كما شارك الندوة أيضاً مالك رام ومُمثّلان من غير المسلمين عن صحيفة (Statesman)، أما الحضور من أعيان المسلمين ووجهائهم فكان منهم معالي السيد ضياء الرحمن الأنصاري وزير الحكومة المركزية، والسيد بدر الدين طيّب جي نائب رئيس جامعة عليكراه الإسلامية وسفير الهند لدى إيران واليابان سابقاً، والسيد شهاب الدين عضو البرلمان، وأحمد رشيد الشيرواني، وسعادة الحكيم عبد الحميد، وكان فضيلة الشيخ مِنّة الله الرحماني (أمير ولايتي بهارو أريسه الشرعي) أيضاً حاضراً لوجوده بدلهي لقضية المذكّرة المقدمة في البرلمان.

---

(١) صحيفة «قومي آواز» لكهنؤ ٢٢/سبتمبر ١٩٥٠ م.

عُقِدَ هذا الحوار في مركز الندوات العالمية (International Centre) وكانت فيه حفلة غداء، ومما يجدر بالذكر أن الصحافي كلديب نير عند استماعه لملخص مقالي قال: إنَّ رجال الأكثرية هُنا في البلاد يشعرون بالخطر لأنفسهم، ويظنّون أنهم مُحاصَرون وأن السياج من حولهم يضيق عليهم ففي الجوانب الأربعة بلدان مسلمة، ونسبة المسلمين في الهند في ازدياد، فردّ عليه معالي السيد ضياء الرحمن قائلاً: إنها تجربة جديدة في تاريخ البشريّة أن هذه الأكثرية الساحقة تحس بنفسها في خطر وأنها مُحاصَرة.

وبالرغم من أن هذا الحوار لم يستطع ـ لأن الجو لم يكن ملائماً ـ أن يجمع العدد المطلوب من المُثقَّفين والصحافيّين، ولم يهيىء الفرصة الكافية للاتصال بأكبر عدد منهم، إلاّ أنه كان قدر ما يستطاع.

حوار في ناكبور:

وجاءت نوبة ناكبور بعد دلهي، التي هي أكبر مركز لحركة R.S.S.، والتي يسكنها زعيم هذه الحركة وعقلُها المحرِّك بالا صاحب ديورس، وعدد من زعماء حركة إحياء الهندوسية من سلالة المرهتة وجنسيّتهم، المعروفة عداوتهم للمسلمين.

وقد كانت هذه المدينة، وهذه الولاية التي تقع فيها هذه المدينة، قامت بدور قياديّ فعّال في النصف الآخر من القرن الثاني عشر الهجري ومنتصف القرن الثامن عشر المسيحي لإعادة الحكم الهندوسي وإحياء الحضارة والثقافة البرهميتين في هذه البلاد، ولكن قضى عليه السلطان أحمد شاه الأبدالي الذي وفد إلى الهند على دعوة الإمام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله المحدث الدهلوي ـ رحمه الله ـ في أوانه المناسب، وقد كان للإمام الدهلوي فضل كبير في تخطيط تأمين المسلمين من هذا الخطر المُحدِق بهم، وما كان يُخشَى من استيلاء العنصر المرهتي المتحمس الحاقد على هذه البلاد.

وكان من دوافع عقد هذا الحوار بناكبور وجود زميلنا الفاضل في «حركة رسالة الإنسانية» الشيخ عبد الكريم باريكه الذي هو ليس مُتفتّحاً في القضايا المتعلقة بالبلاد والأمة المسلمة فيها فحسب، بل يتمتع باحترام شعبيّ عام بخدماته المخلصة وجهوده في الحفاظ على أمن البلاد وسلامتها، من تمييز بين عنصر وعنصر وديانة وديانة، وقد قبل مسؤولية عقد هذا الحوار وإنجاحه، وقد كان ابنه السيد عبد الغفور باريكه أكثر منه نشاطاً وحركة في هذا العمل، وقد أثبت جدارته وكفاءته العالية في الاتصال بغير المسلمين من كبار المثقفين وتعريفهم بأهداف الحركة وأعمالها.

عُقِدَ هذا الحوار في قاعة عمارة السكرتارية القديمة، ورأس جلسة الحوار المستر جانسركر (Chanserkar) نائب رئيس جامعة ناكبور، وهو شخصية مُوقَّرة معروفة من رجال العلم الفضلاء ألّف عدةَ كتب، وهو من مؤيدي حركة .R.S.S، وقد حضر السيد حامد نائب رئيس جامعة عليكراه الإسلامية سابقاً من دلهي، وقام بعرض أهداف «حركة رسالة الإنسانية» وغاياتها، والتعريف بشخصي الضعيف، والتصوير لوضع البلاد الخطير في أسلوب مؤثّر جذّاب باللغة الإنجليزية، ثم قام المستر جانسركر وأيَّدَها بطريقة مناسبة، وقد حضر هذه الندوة كبار المُثقّفين والعاملين في المجالات الخيرية في المدينة، وبعض الشخصيات الموقَّرة من طائفة السيخ، والشخصيات المحترمة من الهندوس والمسلمين، والمسؤولون عن عدد من المؤسسات الاجتماعية في وسط الهند، وبعض كبار المسؤولين عن مجمع البوذيين الملكي، ومستشار جواين لائي رئيس وزراء الصين المَعنيّ بقضايا عامة البوذيين في الصين، والشاعر الكبير المعروف بمهاراشترا، ورئيس أكاديمية اللغة الأردية بمهاراشترا، والقائد الديني المعروف لطائفة السيخ بمدينة ناكبور، وبعض كبار علماء العلم الحديث الذين يُعرفون في العالم لبعض بحوثهم العلمية الخاصة، وعدد من رجال التعليم يصعب علينا ذكر أسمائهم جميعاً.

وكان مقالي بعنوان: (إنَّ البلاد والمجتمع على مفرق خطير ولا بد من

الإسراع إلى إنقاذهما والتفكير في أمرهما) مطبوعاً، وكانت ترجمته الهندية والإنكليزية أيضاً جاهزة، وقد وُزِّعت بين الحضور وأذكر فيما يلي بعض عناوينها ونقاطها المهمة:

١ - أكبر خطر لأيٍّ مجتمع وجود طبيعة الظلم والعدوان فيه، وأكبر منه عدم وجود من يستنكره، ويستميت في مكافحته وإزالة آثاره.

٢ - إن أكبر قوة وأكبر ثروة لأيّ بلد وجود الناس الصادقين الصُّرحاء الذين يضحّون بالنفس والنفيس لغاياتهم النبيلة.

٣ - إن الإنسانية تعتمد على طبقتين؛ طبقة الناس المتدينين الصادقين، وطبقة العلماء المخلصين، وكبار المثقفين، وهما آخر الطبقات فساداً.

٤ - إن الفترة الأخيرة أخطر الفترات في تاريخ الهند التي وصل فيها الإسفاف الخلقي والانحطاط الاجتماعي إلى آخر حدوده، وقد شغل قادة الأحزاب وزعماء المُنظَّمات بوعظ الآخرين دون محاسبة أنفسهم وجماعاتهم، ودراسة واقعهم دراسة صريحة جادّة.

ثم قدمت بعد ذلك مُخطّطاً يشتمل على أربع نقاط[١]: وقد كنت أثناء قراءتي لمحاضرتي أرتجل الخطاب أحياناً، وقلت في خطابي: إنه لو استمرّت سلسلة الظلم والعسف والوحشية والعدوان وانتهاك المُثُل الخلقية ودَوْس الكرامات، وتحريق الناس، والإبادة العنصرية[٢]، ولم تكن هناك محاولة جادّة لوقف هذا الجنون، وصدّ هذا التّيار، لأُفلِتَ الزمام ولهجمت على هذه البلاد مصائب وأخطار وكوارث ونكبات، وأصيبت بقضايا ومشاكل لا يستطيع أيُّ كاهن أن يتكهن بها، ولا يقدّر أي خبير سياسيّ وأي مفكّر بعيد

---

(١) انظر التفصيل في رسالتي «البلاد والمجتمع على مفرق طرق خطير» طبع ونشر حركة رسالة الإنسانية - لكهنؤ.

(٢) وأظهر مثال لذلك حادث الاضطراب الطائفي بميرت (Meerut) الذي وقع في مايو ١٩٨٧ م وسيأتي ذكر تفاصيلها في محلّها.

النظر أو متفرّس للأحوال أن يخبر بها مسبقاً[1] ، وصارحتُهم بأنهم لو دققوا النظر فيما يجري من مقادير الله ـ تعالى ـ لوجدوا أنه بعد كل اضطراب طائفي : تهراق دماء طبقة خاصة بسخاء، ويحدث من الكوارث الطبيعية والحوادث الشديدة ما يعدل الكِفّة، ويساوي بين الأعداد بل يزيد الظالمين تباراً.

وحضر المستمعون بعد اختتام كلمتي وكلمات أخرى في تأييدها حفلة الغَداء التي كانت نُظّمت تنظيماً متقناً فاخراً، وجاءني عدد من الشخصيات الموقّرة للمقابلة، وأبدوا انطباعاتهم العميقة عن الخطاب.

وعُقِدت بناكبور مقابلة صحفية قلت فيها للصحفيين: ما رأيكم في بلاد يحزن فيها الآباء لرؤية أبنائهم وأحفادهم، ويُهمهم أمرهم بدلاً من أن يُسَرّوا بهم ويقروا بهم عيناً؟، وذلك أنهم يخشون كل ساعة أن تطغى موجة من الجنون والهيستريا القاتلة فتطيح بهذه الأزاهير قبل أن تتفتّح، ويقول القائل: يا أسفىٰ على زهرات لم تجد للتفتُّح سبيلاً.

احتفالات وندوات أخرى:

حاولنا بعد فراغنا من هذا الحوار بناكبور أن نستفيد أكثر فأكثر من إقامتنا بهذه المدينة ـ التي قلّما تسمح بها الفرص ـ فنُظِّمت برأي القائمين على تنظيم الحوار عدة خطابات في مواضع متفرقة، كان منها خطاب المؤلف للطلبة العرب الذين يقيمون بها للدراسة في جامعة ناكبور في عدد كبير، وقد كان المؤلف على اتصال بهم عن طريق كتبه ورسائله ولقاءاته، وكانوا قد حضروا المطار بعدد كبير للاستقبال، وأحاديث أخرى في مناسبات أخرى.

وسافرنا أنا وفضيلة الشيخ مِنّة الله الرحماني وعدد من الرفاق والزملاء من «ناكبور» إلى «برهانبور» التي عقد بها احتفال كبير في الليل، وخطبنا فيه، وألقينا الضوء على قضية هيئة قوانين الأحوال الشخصية وعيّنا للبلد وضواحيه

(١) مثل قضية بوفورس على سبيل المثال التي اتّهِمَ فيها كبار المسؤولين في البلاد بالرشى الخطيرة والتي فتحت مجالاً كبيراً للصراع السياسي، هذا وهناك السيول المدمّرة التي تُهلك الحرث والنسل في جهة، والمجاعة العظيمة في جهة أخرى، وإلى ذلك الفوضى البالغة في صفوف الحزب الحاكم.

قاضياً في حضرة علماء المدينة ومشايخها وأعيانها وبإجماع منهم، ثم سافر الشيخ مِنّة الله إلى «بتنه» وتوجهتُ مع رفقتي إلى «دهارني» التي تقع بمهاراشترا على حدود ولاية مدهية براديش، وقد كانت أقيمت بها قبل مدة من الزمن مدرسة دينية كفرع لدار العلوم لندوة العلماء، وكانت الأرض مُمهَّدة لرسالة الإنسانية أيضاً، واستقبلنا عدد كبير من غير المسلمين ورحَّبوا بنا ونظموا احتفالاً كبيراً لحركة رسالة الإنسانية، أبدوا فيه عواطف وانطباعات وآراء ومشاعر طيّبة صالحة، وهكذا تهيّأ الجو أكثر لعمل الحركة في المنطقة.

بـونـا:

لقد حضر الحوار بناكبور أحد أصدقائنا من مدينة بونا، وهو العزيز أنيس الجشتي، فقام بتوجيه الدعوة لمثل هذا الحوار في بونا ـ المدينة التي هي أكبر مركز ليس في ولاية مهاراشترا بل في عموم الهند ـ لحركة إحياء الهندوسية والعقليّة الطائفيّة الهندوسية، وتقرر تاريخ الحوار ٢١/فبراير ١٩٨٧ م، وقد بذل أنيس الجشتي كل جهوده لإنجاح الحوار، فكتب بمساعدة تلاميذه وأصدقائه ألفاً وخمس مائة رسالة وبعث بها مع النشرات التعريفية لحركة رسالة الإنسانية إلى المؤسسات الكبيرة والضُبّاط الرسميين وكبار المسؤولين والمُدَراء لمختلف المصالح والإدارات وأعضاء مجلس الأمة والوزراء والعاملين في المجالات التعليمية والاجتماعية، وكانت الرسائل مُوقّعة بأيدي عدد من الشخصيات الهندوسية الموقَّرة، وأهم أعيان المدينة والشخصيات المسلمة الكبيرة، ثم بعد تلقِّي الردود المشجعة من كثير منهم، أرسِلت إليهم رسائل تشتمل على بيان أهمية هذا الحوار وأهدافه وموضوعه، وقام كذلك بإجراء اللقاءات الشخصية مع الكثيرين منهم، والاتصال بأصحاب الصحافة، والشرطة والسياسيين، وقد أبدى عدد من الصحف الهندية والإنكليزية والمرهتية والإذاعة والتلفزيون عنايتها واهتمامها في هذا الصدد، وقد شارك في هذا الحوار المستر أوجول تاور رئيس «آريه سماج» سابقاً وسكرتير «لائنز كلوب» (Lions Club) بجهوده الطيبة وعنايته الخاصة بإنجاح هذا الحوار.

الاحتفال:

اختار المؤلف للاحتفال بالحوار لمقاله الرئيسي عنوان: «أمور تدعو الناصحين للبلاد للتفكير والعمل».

بدأ الاحتفال الساعة السابعة والنصف صباحاً في قاعة كلية التجارة ببونا (Pune) وكان يرأسه س، د، واكهـ (S.D. Wagh) رئيس تحرير صحيفة مهاراشترا هيرالد (Maharashtra Herald) وكان المستر أوجول تاور مدير الاحتفال، وقام السيد حامد أولاً بتعريف المحاضر، واستعراض خلفيّاته التاريخية وبيئته الاجتماعية، في اللغة الإنكليزية، وصرَّح بأن المحاضر لو شاء لاشتغل بأعماله التأليفية والكتابية في دَعةٍ وراحة منعزلاً عن الناس، ولكن الوقائع والأوضاع حملته على أن يخرج للاجتماع بالمُثقّفين المسلمين وغير المسلمين، والعاملين في المجالات الاجتماعية، ويتبادل الرأي معهم في صراحة وبساطة حول إنقاذ هذه البلاد وهذا المجتمع من الدمار والانتحار، وهذه السفينة التي نحن رُكّابها جميعاً من الغرق، ونفكر في الخروج من هذه الأزمة التي أحاطت بنا.

وقد كانت ترجمة المحاضرة بالإنكليزية والمرهتية جاهزة، ووُزّعت على الحاضرين، وقد كانت القاعة غاصَّةً بالمستمعين الذين كانوا كلهم آذاناً صاغية.

أهم نقاط المحاضرة:

ذكرت في محاضرتي أولاً ضرورة إيجاد الجو المعتدل الصالح وأهميته، فهو شرط أساسي لكل عمل إصلاحي علمي أو أدبي بنّاء، بل لكل عمل ديني وحركة سياسية صالحة، لا يتم أي عمل بدونه ثم ألقيتُ نظرةً عامة واقعيّة على البلاد والمجتمع واستعرضتها استعراضاً محايداً، وصرَّحت بأن المُثُل العليا والمعايير الخلقية والمقاييس الإنسانية، أصبحت لا تأثير لها ولا دور، وإن من الفساد الكبير أنَّ كل إنسان أصبح نفعياً انتهازياً، يريد أن يستأثر ويحقّق مآربه، ولو كان في سبيل تحقيق مآربه تزهق الأنفس والأرواح، ويقتل

الأطفال والأبرياء، لقد أصبح الإنسان شوكة في عين أخيه، لم تعد أي قيمة لنفسه وعِرضه وماله.

وصارحتُهم بأنه لا بقاء للبلاد مع هذا الفساد والظلم، ولو كانت روسيا أو أمريكا من أنصارها وحلفائها، فإننا لو قرَّرنا الفساد والهلاك فلا أحد يأتي لإنقاذنا، نحن نبني البيت ونحن نهدمه.

إنّ الانفصام لا يتصادم مع الانفصام فحسب، بل إن الوحدة قد تتصادم مع الوحدة، إنَّ الوحدة التي تقوم على أساس خاطىء، التي لا تقوم على الأخوّة الإنسانية والعبودية الخالصة لله ـ تعالى ـ والتقسيم الصحيح العادل للفرائض والواجبات والحقوق وخشية الله واحترام الأنفس والأموال والأعراض، وحدة خطيرة، إنَّ كل خرزة انفصمت عن سلكها لا تبقى في حدودها ودائرتها، فلا بد أن تتصادم بشيء، إن الأنبياء والرسل اجتهدوا دائماً لتنظيم هذه الخرزات البشرية في سلك العبودية للّه الواحد القهّار، ولكن الشياطين والطواغيت حاولوا جهدهم في أن يفصلوها، ويقطعوا سلكها وتتصادم فيما بينها.

إنَّ مصير كل فرد مرتبط بمصير الآخر، فلو حدث فساد في مجتمع أو بلد لا يسع الأفراد فيه أن يقولوا ما لنا وله، نحن في معزل وأمان، فليحدث ما يحدث، فليقتل من شاء ما شاء، وما يضيرنا أن يضرب شخص شخصاً في أقصى البلاد، أو تحرق بيوت أو يُتعرَّض لمسافر، فيطعن بخنجر، إنه لو كان الأمر كذلك، فإنَّ عاقبة هذه البلاد ستكون كعاقبة السفينة التي ضربها محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مثلاً، والتي يخرق رُكَّابها في الدرجة السفلى خرقاً، فلا يأخذ ركاب الدرجة العليا على أيديهم ويقولون: ما شأننا بهم، إنه مثال فريد، لم أجد له نظيراً في الأدب الإصلاحي فضلاً عن عامة الآداب الإنسانية.

ولو شرحنا هذا المثال لقلنا: إنَّ هناك درجتين في هذه السفينة: الدرجة العليا (Upper Class)، والدرجة السفلى (Lower Class)؛ وإن هناك

مسافرين في الـدرجة السفلى عـامتهم من الفقراء وطبقـة الكادحين والعمـال، ولا يوجد الماء العذْب للشرب إلّا في الدرجة العليا ـ فإنه يُراعىٰ حالهم ويهتم بهم أكثر ـ وليس لمسافري الدرجة السفلى سبيل إلّا أن يـرقوا الـدرجة العليـا فيـأخذوا منهـا حاجتهم من المـاء، وإن من طبيعة المـاء أنـه إذا طفـح يفيض ويترشَّح، والسفينة كذلك متحركة، فمهما حاولوا الحيطة والحذر يترشح شيء من الماء لا محالة، وهنا يجلس أمير، وهناك كبير، وهذا رئيس، وهـذا زعيم سيـاسي، وقد صبـروا مرة أو مـرتين ثم تضجَّروا وعيـل صبرهم، وقـالـوا: لا نتحمـل هـذا التشـويش ولا نتفـرج على هـذا اللعب، فهؤلاء يحملون المـاء ونتعب نحن، لا نـدعكم تأخـذوا الماء، فقـال أصحاب الـدرجة السفلى: لا غِنىً لنا عن الماء، ولا يـدعنا أصحـاب الدرجـة العليا نـأخذ المـاء من فوق، فلنخرق من تحت خرقاً نأخذ منه الماء، ولا منة علينـا لأحد، فقـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإذا لم يكن هؤلاء أصحاب الدرجة العليا فاقـدي العقـل واللبّ، وكانت بهم مَسْكـة من عقل، ولم يحن حين هـلاكهم لأخذوا بأيدي رُكَّاب الدرجة السفلى، وتملَّقوهم واسترضوهم، لا يا إخواننا، لا تعملوا كـذا خذوا المـاء من عندنـا، ولكن إياكم أن تخـرقوا خـرقاً، فـإنَّ السفينة إذا غرقت غرقت بالجميع، فلا بقاء لمن هو فوق ولا لمن هو تحت».

ولكن اليـوم كم من خروق أحـدثت في سفينتنـا في هـذه البـلاد، كـل شخص لا يعرف إلّا مصلحته ونفعه المحدود، وقـد أغمض عينيه عن غيـره، فلو سرنا سيرة المجانين ولم نأخذ بأيدي هؤلاء السفهاء لكانت السفينـة غارقـة بالجميع.

ثم قدَّمت أقوال بعض المربّين المصلحين التـي لو عملنا بها لعشنا في راحة وسكينة وطمأنينة وسلام، وتمتعنا بمعـاني الحياة الكـريمة السـارّة، منها قول الشيخ الكبير نظام الدين الدهلوي (م ٧٢٥ هـ):

(لو وضع أحد شوكة، فوضعت أنت شوكة لكـانت أشواك في الـطريق، ولكن لو وضع أحد شوكة، ووضعت أنت زهرة لتبعتها زهرة، فكانت زهرات،

إنه ليس علاج الشوكة بالشوكة، إنَّ علاج الشوكة بالزهرة والوردة).

وقال أيضاً: (إنَّ مبدأ الناس، الذي يأخذون به، نستقيم مع من استقام، ونعوجّ مع من اعوجَّ، وإن مبدئي أنْ أستقيم مع من استقام وأستقيم مع من اعوج).

وحضر أحد مسترشدي الشيخ فريد الدين كنج شكر (م ٦٦٤ هـ) مرةً إليه بهدية مقراض، وكان يُستطرَف ويحمل إلى الخارج كتحفة، فقال له الشيخ: ليس عملنا القرض، وقطع القلوب، إنما عملنا جبر القلوب المنكسرة، ووصل النفوس المنقطعة، فلو جئت إلينا بهدية المخيط والإبرة كان أفضل وأنفع لنا ولغيرنا.

ثم ذكرت أنَّ التاريخ يدل على أن بدء الانحطاط والإسفاف في أي شعب أو أي أمة يكون في أخلاقها وأعمالها، ثم يأتي دور الانحطاط والسقوط السياسي، وأن بلادنا الهند تمر اليوم بهذه المرحلة، فهي مصابة بسقوط وتدهور خُلُقي مشين، وهل أعجب وأخطر من أنه لا يوجد في طول البلاد وعرضها من أقصىٰ الجنوب إلى أقصىٰ الشمال، رجل يرفع صوته ضدَّ هذه الأزمة الخلقية، ويقول للناس أدركوا أخلاقكم الإنسانية قبل أن تسقطوا سقوط الأبد، تعلّموا الإنسانية وأنقِذُوا البلاد فهناك آلاف وآلاف ممن يرفعون أصواتهم لأحزابهم وجماعاتهم وقياداتهم، إنهم لا يشكون أنَّ ما يحدث خطير، بل إنما شكواهم أنَّ ما يحدث ـ سواء كان صحيحاً أو خطأً ـ يجب أن يحدث في قيادتنا وتحت لوائنا فلا أحد يقول الحق، يرفع صوته للّه، يجسُّ النبض الصحيح، ويضرب على الوتر الحساس، ويضع أصبعه على موضع الداء، وينتقد جماعته وأصحابه، وينبّههم على أخطائهم، فهناك من ينتقد الجماعة الفلانية والحزب الفلاني، ويشير عليه بسخاء، فكل أحد شاطر ومحامٍ قويّ في حق حزبه، وضابط منتقد، وشرطي قاس في حق غيره.

إنني أقول لكم كعالم دين وطالب من طلبة علم التاريخ: إن ذنوبنا وآثامنا هي التي تجلب البلاء والكوارث علينا، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يُشهدنا

قـدرتَه، وأنَّ بيـده النفع والضـر، وإنني أخشى ويستـولي عليّ الخـوف كلّمـا أسمـع بحادث ظلم وعـدوان، أن تنتقم من المسؤول عنه قـدرة الله ـ تعـالى ـ وينزل عليه عذاب منه.

ثم دعـوتهم إلى الأمـل في البشـريّـة، وأن لا يَـدَعـوا السبيـل لليـأس، والتفكيـر السلبي، فقلت: إنني أحمـد الله ـ تعـالى ـ على أن بـلادنـا نـامت ولكنهـا لم تمت، والنائم ينتبـه، والميّت لا أمل فيـه، إننـا نمنـا مـراراً وقمنـا مراراً، وإنّ الإنسانيةَ نامت مَرَّاتٍ وصاحت مرَّات، وإنها إذا صـاحت تداركت أيام النوم بأيام الصحو واليقظة.

وقد استغرقت هذه المحاضرة ساعة كاملة، وبقي المستمعون يستمعون إليها بإنصات وهدوء وقد كان الحضور يصفّقون أثناء المحاضرة بشدة، يبدون بذلك تأييدهم وسرورهم، وقام أخيـراً رئيس الاحتفال المستـر س، د. واكهـ رئيس تحرير صحيفة (Maharashtra Herald) بإلقاء كلمة الرئاسـة، أيَّد فيهـا روح المحـاضرة وجـوهرهـا، وقال: إنَّ الأوضـاع رغم خطورتهـا وقساوتهـا لا تدعو لليأس، فلو قام الناس بدعوة رسالة الإنسانية في كل مدينة وقرية لظهرت منها نتائج مشجّعة، وإن مجتمعنا في حاجة إلى أمثال الأستاذ المحاضر.

وقام الناس بعد خطاب المستهـر واكهـ إلى حفلة عشاء، وكـانوا يبـدون انطباعاتهم الطيّبة عن المحاضرة، وقد اتفقت في ذلـك كلمة رؤسـاء الأحزاب وأعيـان المـدينـة والمسؤولون عن مختلف الفـرق والـطوائف الـذين حضـروا الاحتفال، وأذاع راديو بونا (Pune) في اليوم التالي خبر الاحتفال وتقريراً عنـه لسبـع دقائق، ونشـرت الصحف الإنكليزيـة والهنـديـة والمـرهتيـة صـوراً عن الاحتفال وتقارير جيدة عنه وملخّصاً من المحاضرة.

وكانت في بونا نَدَوات واجتماعات أخرى يطول تفصيلها.

الفصل الثامن

ندوات رابطة الأدب الإسلامي

تنوّع المسؤوليات والأذواق عند الكاتب:

إنّ الكاتب بتأثير الأسرة والبيئة وانتمائه إلى طبقة خاصة ومؤسسة خاصة (ندوة العلماء) لم يغفل ـ مع كثرة رحلاته وجولاته وعنايته البالغة واهتمامه الكبير بقضايا البلاد والأمة الإسلامية الهندية ومشاكلها، ودعوة «رسالة الإنسانية» ومشاركته في احتفالاتها المشتركة، وحضوره في ندوات الحوار المفتوح ـ الميول والنزعات الأدبية السائدة في عصره، ودراسة الحركات الأدبية واستعراض آثارها الإيجابية أو السلبية على النشء الجديد وأوساط المشتغلين بالعلم والأدب، والتفرُّس لأخطار تحرُّر الأدب والشعر والفكر والبحث عن رِبْقة الدين والأخلاق، بل معارضتها للدين ومجابهتها له، ونتائجها الخطيرة المريرة، والقيام بمقاومة هذه الفتنة، وتنبيه الناس لها، لم يغفل المؤلف شيئاً من ذلك، وهذا الذي حمله على قبوله لمسؤولية «رابطة الأدب الإسلامي» ورئاسته، وقد ذكرنا نبذة عنها في الصفحات الأولى من الكتاب.

مؤتمرٌ عَالميٌّ لرابطة الأدب الإسلامي
في ندوة العلماء:

لقد عقد مؤتمر عالمي أدبي لرابطة الأدب الإسلامي في ٧ ـ ٨ ـ ٩/يناير ١٩٨٦ م بدار العلوم لندوة العلماء، وقد وضع فيه الدستور في شكله

النهائي، واختير الأعضاء الإداريون، واختير المؤلف رئيساً للرابطة مَدَى الحياة، وشكر جميع المندوبين أساتذة الدار وطُلّابها والعاملين فيها على ما قدَّموا من جهود وخدمات، وقدَّم في إحدى جلساته عدد من الشعراء العرب لا سيما الدكتور عدنان علي رضا النحوي، والدكتور عبد القدوس أبو صالح، قصائدهما في الثناء على الندوة وأصحابها.

وقد حضر في هذا المؤتمر بصفةٍ خاصة الأديب المعروف والشاعر الإسلامي الكبير الأستاذ عمر بهاء الأميري الذي ألقى خطاباً حماسيّاً قوياً في الجلسة الافتتاحية، وقدّم محاضرة أيضاً في جلسة المحاضرات، وهو يعرف اللغة الأردية أيضاً لكونه سفيراً في باكستان لمدةٍ طويلة، وقد نقل بعض شعر الدكتور إقبال إلى العربية، كما حضر بصورة خاصة سعادة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، وحضر مندوبون آخرون من السعودية، وقطر، والبحرين، واليمن، ومصر، والشام، وفلسطين، والحبشة، ومراكش، وبنغلاديش من الأدباء والشعراء، والكتّاب وأساتذة الجامعات، كما حضر المندوبون من جامعة عليكراه، والجامعة المِلّية بدلهي، وجامعة دلهي، وجامعة بنارس، وجامعة إلّه آباد، وجامعة كالي كوت كيرالا، ودار المصنفين أعظم كره، وندوة العلماء، من الأساتذة والفضلاء والأدباء والشعراء.

وألقيتُ في الجلسة الافتتاحية من المؤتمر محاضرتي بعنوان: (المدرسة الأدبية الإسلامية بالهند).

وقد ابتعدت العناصر الدينية للأسف في البلدان العربية والبلدان الأخرى الإسلامية عن مجال الأدب فترةً من الزمان، ولكنَّ الأدب الأردي في الهند يستثنى من هذا العموم، فهنا كان أساطين الأدب الأردي واللغة الأردية، أولئك العلماء الأفاضل الذين كانوا يمتازون بمكانة عالية في العلوم والثقافات، وقد ذكرت نبذة يسيرة في محاضرتي عن العلامة شِبْلي النعماني، ومولانا حالي، ومولانا محمد علي جوهر، والدكتور محمد إقبال، وآخرين من

الشعراء والأدباء الفضلاء، وأشرت إشارات إلى إسلاميتهم، وقد تأثَّر بذلك الضيوف العرب، ولا تزال هذه الانطباعات قائمة، وقد طالب الإخوة العرب في الندوة الأدبية التي عُقِدت بجي فور بنقل الأدب الإسلامي الأردي إلى اللغة العربية.

وقد كان من بركة إخلاص مؤسّسي ندوة العلماء ومسؤوليها أن أُسِّسَت رابطة الأدب الإسلامي وعقد مؤتمرها الأول بعيداً عن مهد العروبة في مدينة لكهنؤ، في رحاب ندوة العلماء.

قلت في حديثي في المؤتمر: الأول: (إنه لا عجب أن يُعقَد مؤتمر للمنظمة الآسيوية أو مؤتمر البلدان المحايدة في الهند، إنَّ العجب كل العجب أن تؤسَّس منظمة عالمية للأدب الإسلامي، يشترك فيها كبار الأساتذة العرب والمتخصّصين في المجالات الأدبية، ويعقد مؤتمرها الأول في الهند، ويقام مكتبها الرئيسي فيها، إنه فضل من الله تعالى، وثمرة من ثمار الإخلاص وحسن النية، والجهود الطيبة التي بذلها مؤسسو هذه الدار).

ندوة أدبية لرابطة الأدب الإسلامي
بجامعة الهداية ـ جي فور:

قرر فرع رابطة الأدب الإسلامي للهند في جلسة مجلس الأمناء التي عقدت في ٢٢ ـ ٢٣/يونيو ١٩٨٦ م باستانبول تركيا، عقد ندوة أدبية لعام ١٩٨٧ م حول موضوع «الأدب الإسلامي والحركات الأدبيّة الغربيّة» في منطقة من مناطق الهند، ودرست صلاحية مختلف المناطق والجهات وأخيراً تقرَّرَ عقدها على دعوة من فضيلة الشيخ عبد الرحيم المُجدّدي أمير الجامعة بجي فور، وإكراماً لشخصيته الموقرة، بجامعة الهداية جي فور، وقرروا تاريخها ١٧ ـ ١٨/فبراير ١٩٨٧ م.

لقد أسَّسَ الشيخ عبد الرحيم المجددي على بُعد عدّة كيلومترات من مدينة جي فور، عاصمة ولاية راجستهان ـ وهي مدينة تاريخية جميلة ـ في ١٧/أكتوبر ١٩٧٦ م جامعة فخمة باسم جامعة الهداية نسبة إلى جده الشيخ

الجليل هدايت علي المجددي، وقد أحيطت الجامعة بالجبال من جوانبها الثلاثة، وقامت بينها في وادٍ أخضر يذكّر بأودية الحجاز، وقد كان عقد الاحتفال الافتتاحي للجامعة في ديسمبر ١٩٨٥ م، حضره كبار العلماء والمشايخ من الولايات الأخرى أيضاً، ورجال التعليم والتربية والمُثقّفون.

فقد أصبح هذا الوادي وادي العلم والهدى، وعادت هذه الصحراء بمباني هذه الجامعة الرائعة العظيمة، وأساتذتها وطلابها كأنها حديقة غنّاء.

نظم هذه الندوة الأدبية فرع رابطة الأدب الإسلامي بالهند، ووُجِّهت لحضورها الدعوة إلى المندوبين من أدباء الهند وكتّابها فحسب، ولكن حضر لمشاركتها خصيصاً نائب رئيس الرابطة وأستاذ الأدب العربي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض الدكتور عبد القدوس أبو صالح، ممثّلاً لمكتب الرابطة للبلدان العربية بالرياض، وشارك في جميع جلسات الندوة، وساهم في الحوار والمناقشة وألقى خطاباً وأنشد قصيدةً وعلّقَ ونَقَد، ورجع مستبشراً بانطباعات طيبة.

وكان عدد المندوبين من مختلف مدن وولايات الهند حوالي خمسين من أساتذة الأدب واللغة والكتّاب المعروفين، وقد زاد جوّ وادي الهداية المنعش الجميل في رونق الندوة وبهائها، وكان وجود شخصية دينية موقّرة كشخصية الشيخ عبد الرحيم بها «نوراً على نور» وقد تحمَّل المندوبون نفقات سفرهم، ومشقّات الطريق، وشاركوا جميع البرامج من أول الندوة إلى آخرها في شوق وتذوُّق.

عُقدت للندوة خمس جلسات، قدَّم في الجلسة الأولى العزيز محمد الرابع الحسني سكرتير الرابطة تقريراً عن أعمال فرع الرابطة بالهند، ثم تلتها كلمة الترحيب والاستقبال من الشيخ عبد الرحيم المجددي، وقد قال فيها بعد بيان تأثير الأدب وقوته وتقديم نماذج من أدب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: إنه يجب علينا أن ننظر ونلاحظ بدقّة ما هي الأعمال والمُخطّطات،

وأين هي، التي توضع لتدمير البشرية وإفسادها، والقضاء على المُثُل العليا، ثم أشار إلى الميول الأدبية المستورَدة من الغرب.

وأذكر فيما يلي موضوعات بعض البحوث التي قدمت في الندوة، ليقدر منها القارىء تنوّع مواضيعها وسعة دائرتها:

(تمثيل الأدب الإسلامي باللغة الأردية في القرن الثالث عشر الهجري) للدكتور عبد الله عباس الندوي، مدير التعليم بدار العلوم ندوة العلماء - لكهنؤ.

(قَسَمات وجه الأدب العربي والأدب الإسلامي) للدكتور محمد راشد الندوي، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكراه الإسلامية.

(الأدب العربي الإسلامي، والفن الغربي لتحقيق النصوص) للدكتور عبد الباري، قسم اللغة العربية بجامعة عليكراه الإسلامية.

(الخلفية الفكرية للحركات الأدبية الغربية) للدكتور محسن عثماني الندوي، محاضر بجامعة دلهي.

(الأدب الإسلامي ونظريات أدبية أخرى) الأستاذ سعيد الرحمن الأعظمي الندوي، رئيس تحرير مجلّة (البعث الإسلامي) - لكهنؤ.

(الأدب الإسلامي والحركات الأدبية الحديثة) للأستاذ محيي الدين.

(الدراسة المقارنة بين الأدب الإسلامي والأدب الرومانتيكي) للدكتور سيد إبراهيم الندوي، رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة العثمانية حيدر آباد.

(ما هو الضرر الذي ألحقته الاشتراكية بالأدب) للدكتور ظفر أحمد الصديقي الندوي، محاضر بقسم اللغة الأردية بجامعة بنارس الهندوكية.

(موقف الأدب الإسلامي من الجنس) للدكتور عبد القدوس أبو صالح.

(انتقاد للمدارس الأدبية الغربية الحديثة) للبروفيسور عبد الحليم الندوي، جامعة نهرو - دلهي.

(الإنسان في العلم الحديث وموقف الأدب الإسلامي)، للسيد جعفر مسعود الحسني الندوي.

(الأدب الرومانتيكي والأدب الإسلامي)، للسيد فريد أحمد الندوي.

(خدمات المستشرقين في مجال الأدب الإسلامي) للسيد شوكت علي خان، مدير المعهد العربي والفارسي طونك.

(الدراسة الأدبية للوجودية) لمحمد فيضان بيغ، محاضر بالجامعة الملية الإسلامية دلهي.

(أدب الأطفال في ضوء التعاليم الإسلامية)، للأستاذ نذر الحفيظ الندوي.

(ضرورة دراسة الحركات الأدبية الغربية وتحليلها العلمي)، للسيد بهاء الدين أحمد طُلَّاب دار العلوم ندوة العلماء ـ لكهنؤ.

(القواعد الغربية الجديدة لتقدير العمران، عدد المسلمين في العهد المكي)، للدكتور ياسين مظهر الصديقي الندوي، محاضر قسم التاريخ، جامعة عليكراه الإسلامية.

وقد أدار الجلسات العزيز عبد النور الندوي، إدارة متقنةً بارعة.

السبب الأساسي لانحراف الأدب
والفكر الغربي وزيغه وقلة نضجه:

وأورد هنا الخطاب الذي ألقيتُه في الجلسة الافتتاحية من الندوة، وقد جاء فيه انتقاد دقيق للفكر الغربي والفلسفة الغربية برُمّتها:

(إنَّ الأمر الذي يجب أن يكون نصب أعيننا، وعلى أقل تقدير لا بد أن يكون ملفتاً لأنظار المشاركين هنا في هذه الندوة، هو أنَّ السبب الأكبر والأساسي لانحراف الغرب وضلاله وزيغه واختلاله، هو حرمانه من نور النبوة والرسالة، فإنَّ النبوةَ وحدها هي التي تخرج الإنسان من الظن والتخمين، وتبلغه إلى

الإيمان واليقين، ولم يزل الغرب رغم جميع فتوحاته وانتصاراته المادّية، وفي رحلته الطويلة في العلم محروماً من نور النبوة.

وتحضرني الآن آيتان من الكتاب الحكيم، تصوِّران الغرب تصويراً صادقاً واقعياً، وقد كشفتا النقاب عن العقلية الغربية، وليحاول علماء اللغة العربية والمتذوّقون للأدب، والمدركون لأسلوب القرآن الكريم وبلاغته وإعجازه التوصلَ إلى أعماق هذه الآيات الكريمة وآفاقها الواسعة، وإنني لعاجز عن ترجمتها الصادقة الجامعة، آية في سورة النمل، وهي قوله تعالى:

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلمُهُم في الآخرة، بل هم في شكٍّ منها، بل هم منها عَمُون ﴾[1].

وإنني أقول معتذراً، ولا أجرأ على الاعتذار إلى منزِّل القرآن الكريم والموحي به، إنما أعتذر إلى بلاغة القرآن الكريم وإعجازه لقصور ترجمتي، وأقول: لقد حدث ثقب في علمهم في الآخرة، ولا أجد تشبيهاً وتعبيراً لوضع علماء الغرب ومفكريه وكشوفهم العلمية ورحلتهم الفلسفية والفكرية، أحسن وأجدر من هذا التشبيه والتعبير الذي تعبر عنه كلمة (Puncture) الإنجليزية[2] كأن سيارةً تسير في طريقها وإذا بها يحدث فيها خلل جليل يمنعها من المسير ويعوقها عن المضي في الطريق، ويشلُّ جميع قواها، فلا أجد لذلك تعبيراً أو وصفاً أجمل من تعبير (بنشرت السيارة) أنظر كيف أنَّ العلم الذي كان يسير سيراً حثيثاً، ويقطع المسافات الشاسعة بكل طمأنينة وثقة، وقد جال وصال في الميادين العقلية والرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعية، حتى إذا وصل إلى مبحث (واجب الوجود) ذاته وصفاته، والآخرة والحياة بعد الموت، فقد «ادّارك»، كأنَّ العجلة (بنشرت)، وأصبحت فارغةً من الهواء، والألفاظ التي تلت هذه اللفظة في الآية الكريمة تعبر عن كيفيات العقلية الغربية المتناقضة،

---

(١) سورة النمل، الآية ٦٦.

(٢) وشاع استخدام كلمة (بنشر) على لافتات المصانع والدكاكين التي تباشر عمل التصليح للسيارات.

المترددة الحائرة، وعن مختلف طبقات الغرب: ﴿ . . . بل هم في شكٍّ منها بل هُمْ مِنْها عَمُون ﴾.

والآية الكريمة الثانية التي جعلها شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أساس مبحثه في كتابه الجليل: (النُبُوّات) هي:

﴿ بَلْ كَذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمَّا يأتِهِم تأويلُه ﴾[1].

إنَّ العقليةَ الغربيةَ الفجَّةَ المختلةَ تقول: بأنَّ كل ما هو غير مشهود هو غير موجود، إنَّ حصرَ الموجودات في المشهودات، لَمِن عثرات العلم الإنساني، والعقل البشري الكبيرة الهائلة، وقد صَبَغتها العقلية الغربية صبغةً علمية فلسفية، وإن ذلك لمن سوء حظ البشرية، وعدوان ضد الإنسانية، وإن هذا هو الفرق الأساسي الكبير بين العلم المحروم من الفيض الإلّهي السماوي وبين العلم المستنير بنور الرسالة السماوية، وقد بيَّن ذلك سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتعبير بسيط واضح:

﴿ أَتُحَاجُّونِّي في اللّهِ وَقَدْ هَدَان ﴾[2].

وهذا هو واقعُ خطابِ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على جبل الصَّفا، فقد كان بقمّة الجبل، والناس في سفحه، فقال ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ وراء هذا الجبل جيشاً يريد أن يغزوكم، أكنتم مصدّقيّ»؟، وقد كان العرب بِدائيين متخلّفين في الفلسفة والمدنية، ولكنهم أثبتوا تفوقهم وفضلهم في سلامة العقول والواقعية، فإنهم لما رأوا أنَّ الشخص الذي يخبرهم بذلك هو على رأس الجبل يرى أمامه وخلفه، وهو لا يكذب ولا يخون، قالوا بلسان واحد: نصدقك يا محمد. فقد توصَّلَ العرب بصراحتهم وإدراكهم السليم للواقع، إلى ما لم يتوصّل إليه اليونان والرومان، ولم يتوصّل

---

(١) سورة يونس، الآية ٣٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٨١.

إليه الغرب حتى الآن، فقد تفوّقوا في الأمر ورأوا أنه لا سبيل للتكذيب بناءاً على أنهم لم يشاهدوا.

وإنني أرى أنه لا بد من ملاحظة هذا الفرق الأساسي بين الحقائق الإسلامية والعقائد الدينية الصحيحة، وبين الأفكار والفلسفات الغربية، كلما قارنّا بينها، فإننا لا نستطيع بدون ذلك أن نمسك بالأصل الذي يمكّننا من الوصول إلى الحقيقة المطلوبة.

القيادة العلمية والأدبية والفكرية
للعالم واجب المسلمين ومسؤوليتهم ومنصبهم:

وأحب أن أذكر فيما يلي مقتطفات من خطابي الختامي الأخير الذي كان في الجلسة الختامية للندوة الأدبية بجي فور، فقد جاءت فيه إشارات إلى حقيقة مُهمة ذات شأن، وصرَّحت فيه بأنَّ القيادة العلمية والفكرية والأدبية للعالم كله من واجبات المسلمين، وهي حق للأمة الإسلامية، وماذا سيجرّ من شقاء وبلاء لو تخلَّت هذه الأمة عن منصبها ودورها القيادي، وما تلحق بها كذلك من خسائر وأخطار:

﴿ إلّا تفعلوه تكن فتنَةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ﴾[1].

سادتي! إنَّ الله تبارك وتعالى عَهَدَ بمسؤولية استعادة حق الحياة على الأرض للجيل البشري مرةً ثانية في التاريخ إلى تلك المجموعة الصغيرة التي كانت متألِّفة من الأنصار والمهاجرين الذين لم يزد عددهم على ألفين، فقد خاطبها الله تعالى بأنكم إذا لم تقيموا صِلة الأخوة الإسلامية في هذه الآونة، ولم تقوموا على أرجلكم لتنقذوا العالم من شفا جُرُفٍ هارٍ، والجيل البشري كله من الانتحار، ولم تسعوا في هذا السبيل، ولم تبذلوا جهودكم فيه، فلا بقاء لهذا العالم وسوف يكتب له الشقاء الأبدي والدمار التام، ويشهدُ التاريخ على أنَّ هذه المجموعة الصغيرة قامت بأداء حق هذه المسؤولية الجليلة المهمة الخطيرة خير قيام.

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٣.

كيف تيسَّرَ كُلُّ ذلك لهذه الجماعة القليلة؟، إنما أمكن ذلك عندما قامت هذه الجماعة على أرجلها، وقدَّمت للعالم خُطّة جديدة للحياة، واسمحوا لي أن أقول: إنها تحملت أمانة القيادة الإيمانية، العقائدية، والعلمية، والفكرية، والمدنية، والثقافية، للعالم البشري والسلالة البشرية، وإنَّ من الواقع أنَّ الأمم والشعوب لا تملك بغير ذلك أن تُحْدِثَ أي تغيير في خريطة العالم ومصاير الأمم، ما دامت لا تثبت جدارتها لأنْ تقدِّم الإيمان واليقين، وتقدِّم كذلك خُطّة جديدة ونظاماً جديداً للحياة، وإنها لا توجه الأجسام البشرية بل توجّه العقليات البشرية والطاقات البشرية والكفاءات البشرية والذكاء البشري، وقُوى الإبداع والإنتاج البشرية وأدبها وذوقها توجيهاً بنّاءاً صالحاً.

هذه المجموعة الصغيرة جعلها الله تبارك وتعالى جديرةً قديرة على قيادة النوع البشري كله، أي إنها لا تؤسِّس مجتمعاً ـ مهما كان هذا المجتمع يمتاز بخصائصه وصفاته ـ فحسب، بل تقود الجيل البشري كله، فكرياً، وعقلياً، وعلمياً، وأدبياً، وتعليمياً، وتربوياً، ومدنياً، وقد أثبتت ذلك فعلاً، فقد قام المسلمون لعِدّة قرون ليس بالقيادة السياسية والإدارية لقطعة كبيرة من العالم، بل قاموا بالقيادة العلمية والفكرية أيضاً، وقد كانوا إلى القرن السابع الهجري قبل غزو التتار على أقل تقدير، هم الحَمَلة الوحيدين لدعوة الإيمان والأخلاق والإصلاح ونشر الحق والعدالة، بل كانوا هم المؤهّلين للقيادة العلمية والفكرية والتعليمية، والأدبية والحضارية، وقد أثبتوا في هذه الميادين كلها جدارتهم وإخلاصهم وخدماتهم الجليلة المشكورة.

وإنني أستطيع أن أقول في ضوء دراساتي التاريخية: إنَّ المسلمين كانوا بجانب استيلائهم السياسي والعسكري وممالكهم الواسعة الفسيحة، يمتازون بتفوّقهم وفضلهم على العالم المعاصر والشعوب المعاصرة لهم علماً وفكراً، ولم تزل الأمة الإسلامية تُنجِبُ النوابغَ والعباقرةَ الذين كانوا يبذّون أقرانهم في الذوق والشَّغَف العلمي، وعاطفة التضحية والفداء، والانقطاع إلى التأليف والتصنيف، ومستواهم في البحث والتحقيق.

وقد ظهر في هذه الأمة الإسلامية من نـوابغِ العلمـاء، ونوادرِ العصـرِ، وأصحـابِ الفضـل، والكمــال من المتكلمين والمؤلفين ـ فضـلاً عن الأئمــة المجتهدين والأئمة المُحدّثين أصحاب الكتب الستـة الذين لا يـوجد نـظيرهم في الشعوب والأمم ـ الذين ينقَطِع نظيرهم في الشعوب المعاصرة المجـاورة، فلو ألقيت نظرة على القرن الرابع الهجري لرأيت الإمام أبا الحسن الأشعري، والقـاضي أبا بكـر الباقـلاّني، والشيخ أبـا إسحـاق الإسفـراييني، وفي القـرن الخـامس ابن حزم الأنـدلسي، والغـزالي، وفي القـرن السـادس فخـر الـدين الرازي، وفي القرن السابع والثامن شيخ الإسلام الحافظ ابن تيميـة والعلاّمـة إبراهيم الشاطبي صاحب «الموافقات»، وفي القرن التـاسع الحـافظ ابن حجر العسقلاني، وفي القرن العـاشر السخـاوي والسيوطي، الأئمـة الكبار، بحـور العلوم والمعـارف، والمؤلفين النوابـغ، ولم تـزل هـذه السِلْسلة مستمـرة، فلو نظرت في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشـر قرون التخلُّف والانحـطاط لـوجدت في الهنـد ـ البعيدة عن مـركـز الإسـلام والعلوم الإسـلاميـة ـ أمثـال العلامة ملاّ محمود الجونفوري، والإمام ولي الله الدهلوي من المجتهدين في العلوم، ومن نوابغ العلماء والمؤلِّفين.

وهـذه هي الشخصيـات التي تـركت آثـارهـا الجليلة في علم العقـائـد والكـلام والتطبيق بين العقـل والنقل والعلوم الشـرعية، وأثبتت فيهـا ذكـاءهـا الخـارق وذاكرتهـا القويـة المُدهشـة، ودراساتهـا الواسعـة ونظراتهـا الـدقيقـة العميقـة، ولكنَّ ذلك لا يكفي لقيـادة العالم العلميـة والفكريـة، فقـد أنجبت الأمـة الإسـلاميـة في مجـال العلوم الجغـرافيـة وعلم الـطبيعـة والنبـاتـات والـرياضيـات والطب والكيميـاء ودراسة فلسفـة التاريـخ، ومختلف الديـانات والحضـارات والفلسفات، ونقـدها واستعـراضهـا، رجـالاً قـادوا ركب العـالم والأوساط العلمية فيه في هذه المجالات العلمية، وتركوا فيها آثارهم البـاقية، من أمثـال محمد بن محمد الإدريسي مؤلّف كتاب «الممـالـك والمسـالـك»، ومحمد بن الهيثم، ومحمد بـن موسى الخوارزمي، ومحمد بن جابـر البتّاني،

وأبو بكر الرازي، وضياء ابن بيطار، وأبو علي بن سينا، وابن خلدون، وأبو الرَّيْحان البيروني[1].

وقد برزت في مجال الأدب والشعر شخصيات عبقرية، استمرَّ تأثيرها على العقول والقلوب، ومنهج التفكير والأسلوب والتعبير لعدة قرون، كان منهم جلال الدين الرومي، والشيخ مُصلح الدين سعدي الشيرازي، والحافظ الشيرازي، والحكيم السنائي، والأمير خسرو، وقد كان تأثير «مثنوي» الرومي أعمق وأوسع وأبقى من كثير من دواوين الشعر والآثار الأدبية والكلامية في الشرق، تأثَّر به الشعر والأدب والفلسفة وعلم الكلام، وقد كان شعره وسيلةً فعالة لإخراج مئات من الشاكّين المرتابين من ظلمات شكوكهم وشبهاتهم، وإرشاد العقول الملحدة اللادينية، وهدايتها إلى طمأنينة الإيمان واليقين.

فلو تخلَّت هذه الأمة عن مسؤولية احتساب الإنسانية ومراقبتها وتنصَّلت عن قيادتها الفكرية العلمية للعالم الإنساني، لكان ذلك جريمة كبيرة في حق النوع البشري، وظلماً عظيماً لنفسها، ولذلك فإنَّ علماءنا وخرّيجي جامعاتنا وأدباءَنا وشعراءَنا وأصحاب الفكر والعلم فينا، لو انعزلوا عن الحياة وبحثوا لهم عن ملجأ وملاذ مطمئن وأحاطوا أنفسهم بسياج من الانعزالية، وتركوا القيادة العلمية والفكرية للنوع البشري، لكان الناس في خطر وتعرَّضت البلاد التي يعيشون فيها لخسائر فادحة، ولحصروا دعوتهم الإيمانية ونعرتهم الإصلاحية في الحدود الضيقة.

سادتي! إنه لقد أكثر المشاركون هنا من ذكر المستشرقين، وإننا نُسَلِّم أنَّ هؤلاء العلماء الباحثين والمحققين الغربيين بذلوا جهوداً شاقةً، وكان لهم دورٌ بارز، واحتلوا مكانة علمية كبيرة، ولكن ينبغي أن لا نتناسى أنَّ الدافع الكبير الأساسي لهذه الجهود العلمية إنما هو إيجاد المستعمرات الغربية، والغزو السياسي والعسكري، الذي كان يقوم به الغرب على الشرق، وقد كان

---

(١) وليس هذا الفهرس مستوعِباً لأسماء العباقرة، والنوابغ، بل سردت ما حضرني من الأسماء في الخطاب المرتَجل.

ذلك يحتاج إلى طليعة علمية من المؤلّفين والكتّاب، وكان المستشرقون هم طليعة هذا الغزو، الذين كانوا يستعرضون حضارة الشعوب المغزوّة المفتوحة وثروتها العلمية، ويبرزون منها مواطنَ الضعف والنقص، وينشئون بذلك الشعور بمركب النقص والدهشة والإعجاب بالغرب، ويثيرون الشبهات حول مصادر الدين القديمة الأصيلة، ويُضْعِفون الثقة بالسلف الماضين، ويهونون شأنهم ويصورونهم كَذَبَةَ مزوّرين، ولكن لما انتهى نظام المستعمرات الغربية، وولّى دور الاستعمار السياسي والعسكري، فإنني أحدّثكم كطالب زار أوربا عدة مرات، بأنَّ الحماس والاندفاع المعهود في الاستشراق، قد ضعف جداً، ووقع فرق هائل وتغيّر كبير في عواطفهم لبذل الجُهد العلمي، وعلوّ همتهم وطموحهم.

لقد ضعف الاستشراق في أوربا وأمريكا، ولم تعد تصدر من مجامعه وأقسامه الكتب العلمية على المستوى المتقدِّم الذي كان في الماضي، وقد كان السرّ في نجاح المستشرقين أنَّهم كانوا يعكفون على موضوع واحد طول حياتهم، ويُضْنُون فيه أنفسهم وأوقاتهم، فيحيطون بذلك الموضوع إلى حد كبير، ولكن من الخطأ البَيِّن أن يظن أنهم كانوا يحيطون بالموضوع من جميع جوانبه، أو أنهم علماء متبحرون، ليس الأمر كذلك، وقد قابلتُ أيضاً ثلاثة من كبار المستشرقين في بريطانيا، ورأيت بعد مقابلتهم أنَّ معرفتهم تضيق دائرتها وتنحصر في الموضوع الذي يدرسونه أو يؤلِّفون فيه شيئاً في تلك الفترة.

هذا وإنَّ شبه القارة الهندية قد أنتجت أعمالاً رائدة جليلة لا نجد مثيلها في أوربا وأمريكا، وإن علماءنا الذين تذوَّقوا العلم وصاروا كالفراش الدوَّار حول سراج العلم المضيء حقَّقُوا من العلوم وأخرجوا من الكنوز ما ينقطع نظيره في العالم الغربي.

وأذكر على سبيل المثال كتاب «الخيَّام» للعلامة السيد سليمان الندوي، فإن كتابه هذا هو خاتمة الكتب في هذا الموضوع، وقد صرَّحَ الدكتور محمد

إقبال بعد قراءته بأنه لا يمكن أن يؤلَّف في هذا الموضوع أحسن منه، كـذلك كتـاب العلامـة شبلي النعماني المعـروف بـ «شعر العجم» لا مثيـل لـه لا في الأدب الفـارسي ولا في الأدب الهنـدي، ويمكنني أن أذكـر في هـذا الصـدد عـدداً من الكتب القيمة ككتـاب «الصلات بين العـرب والهند»، و «المـلاحة عند العرب» للعلامة السيد سليمان النـدوي، وكتاب «الجـزية في الإسـلام»، و «مكتبة الإسكندرية» للعلامة شِبْلي النعماني، وكتاب «الثقافـة الإسلاميـة في الهند»، و «نزهة الخواطـر» للعلامـة السيد عبـد الحي الحسني، فهي كتب لا نظير لها في المكتبة الإسلامية المعاصرة الزاخرة.

ولكني أريد أن أقول لكم ـ ومعذرةً لهذه الشكوى الودّيـة ـ إنَّ جامعـاتنا الحكومية الرسمية لم تخـرج أعمالاً علميـة أصيلة، ولم تقم بالجهـود العلمية الواسعة التي كانت تُرجَى وتُتوقَّع منها.

أما اللغة الإنكليزية فإنه ليس هنـاك إلى الآن كتاب للتعـريف بالإسـلام أقـوى وأنصع وأملك لنـاصية البيـان والبلاغـة اللغويـة، من كتـاب (Spirit of Islam) للسيد أمير علي.

كذلك لا تزال جامعاتنا مضـطرَّة لتدريس كتـاب (A Literary History of Persia) لبراؤن، وكتـاب (A Literary History of the Arabs) لنكلسن، ولا تـزال تستعين بكتاب (A Short History of the Arabs) لبـروفيسـور هتي (Hitti) ولم يقم أساتذة جامعاتنا هذه لـلأسف بإخـراج كتاب يقـوم مقام هـذه الكتب، ويـدرَّس في جامعـات أوربا، أو كتـاب في تـدوين الفقـه الإسـلامي والحديث النبوي والتاريخ الإسلامي يأخذ مكان كتب جولدزيهر (Goldziher) وشاخت (Joseph Schacht) المضلّلة المزورة.

إنه لفراغ كبير يجب أن يُملأ، وإنَّ أهم منـاسبة وأجملهـا للتذكيـر بهذه المهمة العلمية هي هذه الندوة العلمية لرابطة الأدب الإسلامي، فقد حضرهـا فضـلاء الجامعـات وأسـاتـذتهـا، إنني أحب أن أقـول لهم: إنـه يجب عليهم تحمّل مسؤولية القيادة العلمية والفكرية أيضاً مع القيادة الأدبية والفنيّة، فإننا لو

لم نتحمل هـذه المسؤولية لخسـرت مِلّتُنا وأمتنا وجيلنا المثقف النـاشيء، واعلموا أنه لا تستحق أي أمة تقديراً واحتراماً ومكانةً كريمة حتى تكون مكتفيةً بذاتها في العلم والفكر والأدب والفن، بل تملك صلاحية التـأثير في العقـول والقلوب وصياغتها صياغة جـديدة، إنَّ «بـاني الحرم»[1] اليـوم هو من يخـرج السلالة البشرية والمدنية الإنسانية كلها من الجاهلية «العلمية»، إنه يجب عليه التسلُّح بسلاح العلم والأدب والقلم، إنَّ العهد الحـاضر عهـد العلم والثقافـة والتعليم، والكتابة والتأليف والنقد والتحقيق، وقد صرَّح الـوحي الأول المنزَّل على النبي الأمي بأهمية القلم ودوره:

﴿ اقْرَأْ وربُّك الأَكْرَم الَّذي علَّم بالقَلَم، علَّم الإِنْسانَ مَا لم يعلم ﴾[2].

فينبغي أن تكون أمته كذلك صاحبة القـرطاس والقلم، ومُعلِّمـة الأمم. إنها مُعلِّمة للمثقّفين، مُعلّمة للفلاسفة النابغين، مُعلّمة للمدارس والجـامعات ودور التعليم، وإنها وصيَّةٌ مراقِبةٌ على الأدب وميوله ونـزعاتـه وآرائه ونـظراته، وإنها مسؤولةٌ عن قيـادة العالم الفكـرية والعلميـة، وأختم كلمتي ببيت الشاعـر الإسلامي الدكتور محمد إقبال:

(لقد أصبح العـالم من غزو الإِفـرنج وظُلمـه خرابـاً يبابـاً، فقم يا بـانيَ الحـرم، لبناء العـالم من جـديـد، قُمْ من السّبـات العميق الـذي طـال أمـده واشتدت وطأته).

---

(١) إشارة إلى المُسلم.
(٢) سورة العَلَق، الآيات ٣ ـ ٥.

الفصل التاسع

رحلةٌ إلى ماليزيا
وخطب ومحاضرات في مختلف احتفالاتها
وندواتها ومُنظماتها الإسلامية

الرحلة إلى ماليزيا:

تقع ماليزيا التي كانت تسمى فيما قبل ملايا، في صورة شبه جزيرة في شرق خليج بنغال، وتقع بمقربةٍ منها، وعلى جوانبها جزرٌ كثيرة تُكوِّن جزءاً من الشرق البعيد، وتقع ماليزيا في الجانب الغربي من هذه المنطقة، ومن بلدانها المجاورة لها: أندونيسيا، والفلبين، وبورنيو، وبورما، وتايلندا.

إنَّ اتجاه رحلات المؤلف أكثر الأحيان كان إلى الشمال والغرب، تحتوي من البلدان الإسلامية على الجزائر ومراكش والرباط، ومن البلدان غير الإسلامية أوربا وأمريكا وكندا، وقد سافرت مرَّةً إلى سري لنكا في الجنوب، وإلى بورما، وبنغلاديش مرة في الشرق.

لقد تخرَّجَ عدد من شباب ماليزيا في دار العلوم لندوة العلماء، وامتازوا بصلاحهم وصلاحيتهم، كما تخرَّجَ عدد من شباب أندونيسيا في دار العلوم، ثم اختاروا ماليزيا لقربها من أندونسيا ووحدة اللغة والجنسية والطبيعة، مجالاً لنشاطاتهم الدينية والتعليمية والدعوية، ويشاهد في هذا البلد في الآونة الأخيرة اهتمام زائد بالدعوة والأخوّة الإسلامية وحماس بالغ لها، وقد حاز الخرِّيجون الندويون لعلمهم وثقافتهم وجدّهم واجتهادهم واتجاههم إلى

العمل الدعوي، مكانةً محترمةً في الأوساط الإسلامية الدعَوية والتربوية، وحظوا بثقة واعتماد من منظماتها وحركاتها الإسلامية، وقد قام وفد مكوَّن من أستاذين من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء: الشيخ نذر الحفيظ الندوي، والشيخ شمس الحق الندوي بجولة في هذه البلاد، وكانت جولتهما أيضاً من دوافع توجيه الدعوة إلينا من جهة بعض مُنظَّماتها، فقد اتصل الفضلاء الندويون ببعض المنظمات الإسلامية لا سيما حركة «أبيم» (أي حركة الشباب المسلم) النشيطة القوية، ووجَّهُوا إلينا عن طريق هذه المنظمة دعوةً لزيارة ماليزيا، وإلقاء محاضرات وخطبٍ بها، وألحُّوا عليّ لصلتهم وعلاقتهم بالندوة.

وحركة «أبيم» هناك أقوى الحركات الشبابية وأكثرها تأثيراً، تحمل الفكر الإسلامي والأهداف الإسلامية السليمة، وتعمل في مجال الدعوة نظراً إلى الخطوط العقلية الجديدة، وتملك عقلية متفتحة، وإدراكاً لقضايا العصر ومشكلاته، وبصراً بالأوضاع والظروف، وتخطّط برامجها مع مراعاة هذه الأمور، ويشغل رئيسها السابق السيد أنور إبراهيم الآن منصب وزارة التربية في البرلمان، وقد أبْدت المنظمات الأخرى كـ «الحزب الإسلامي»، والعاملون في المجالات الدعوية، وأصحاب جماعة الدعوة والتبليغ، عنايةً كبيرةً برحلتنا هذه، وبذلوا جهودهم في الانتفاع بهذه الزيارة والاستفادة منها وإنجاح برامجها، وكان على رأس الواضعين والمخطّطين للبرامج والمرافقين مدّةَ إقامتنا بها، العزيزان الفاضلان من خرِّيجي الندوة ـ حديثاً ـ: العزيز أحمد فهمي زمزم، والعزيز علي رجب.

من دلهي إلى كوالالمبور:

اخترتُ لمرافقتي بادىء الأمر في هذا السفر إلى ماليزيا العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي الذي كان الخريجون الندويون على صِلَةٍ قويّةٍ به، وكان أكثرهم من تلامذته وخريجيه، ولكني رأيت بناءاً على التجارب السابقة في الأسفار الطويلة، ولضعفي وكِبَر سنّي أنْ آخذ مرافِقَين، ولقد كان سماحة

الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أشار عليّ بأن أستصحب في أسفاري الخارجية مرافِقين، ولم تكن قد اتّضحت لي أهمية ذلك، ولكن التجارب أيّدت هذا التوجيه والوصية.

وقد كان من تأييد الله ـ تعالى ـ ورحمته الخاصة في هذا السفر أن رافقني العزيز السيد غلام محمد الحيدر آبادي الذي كان يعمل مهندساً في مطار جدّة سابقاً، ورجع إلى وطنه حيدر آباد، وكان يحب أن يرافقني في الأسفار الخارجية، فلما علم بهذا البرنامج تقدَّم برغبته في المرافقة على نفقته، وألحَّ على ذلك، فرأيت للصلة الخاصة به ولحاجتي قبول هذا العرض.

وسافرنا نحن الثلاثة يوم الخميس ٢/أبريل ١٩٨٧ م إلى ماليزيا بالخطوط الروسية، ولم تكن هناك طائرة مباشرة ذلك اليوم إلى كوالالمبور إلّا هذه الطائرة الروسية، ووصلنا إلى مطار كوالالمبور حيث جاء نائب رئيس الجامعة العالميّة الإسلامية بكوالالمبور الدكتور عبد الرؤوف المصري، وعدد من الأخوة الندويين والمُمثّلون لجهات مختلفة ومنظمات متعددة، كان منهم مدير إدارة جمعية التربية الإسلامية بقَدَح الشيخ نعمت يوسف الماليزي، ولم تأخذ الإجراءات الرسمية لمكان هؤلاء المستقبلين الذين كان لهم تأثير ونفوذ وقتاً كثيراً، ووصلنا إلى مقرِّنا الساعة الثانية والنصف.

والفرق بين الهند وماليزيا فرق ساعة ونصف ساعة، وقد زيدت فيه ساعة لمراعاة المواقيت في زمن الصيف، وقد استغرقت الرحلة من دِلْهي إلى كوالالمبور خمس ساعات أصلاً، إلّا أنه لو راعينا الفرق في المواقيت لكانت سبع ساعات ونصف، كنا خرجنا في الصباح ووصلنا ظهراً.

كوالالمبور أكبر مدينة في ماليزيا، وعدد سكّانها مليون نسمة، ولا تقلّ في نظافتها ونظامها ومدنيّتها ومستواها المدني عن أي مدينة متوسطة في أوربا، ومطارها كذلك يساوي مطارات أوربا، ومستواها في عمائرها وشوارعها وأسواقها ومواصلاتها ونظامها مثل مستوى أوربا، ولكن بما أن أكثرية سكّانها

مسلمة، تجد هناك سِمَةً ظاهرة من أخلاق المسلمين وعاداتهم.

أما المسلمون الهنود الذين يزورونها فإنهم لا يشعرون ـ سوى فارق اللغة والجنسيّة ـ بأيٍّ وحشة أو غربة، بل قد لا يشعرون في أوساط المثقفين لاشتراك اللغة الإنكليزية وشيوعها فيما بينهم بأي فارق.

لم يكن هناك أيّ برنامج لأي احتفال أو ندوة يوم وصولنا إلى ماليزيا، إلّا أنه زارنا بعد المغرب المسؤولون عن حركة «أبيم» الذين كانوا مُضِيفين وأصحاب الفكرة في هذه الزيارة، وكانت جلسة معهم أخوية خفيفة، وقد ألقيت بعض الكلمات حول صفات الداعية وأصول الدعوة، وضربت لهم أمثلة من التاريخ الدَّعَوي الإسلامي، وانفضّ هذا المجلس بعد التعارف والأحاديث المتبادلة.

السفر إلى ترنكانو والمحاضرات بها:

ووضع برنامج السفر يوم ٣/أبريل إلى ترنكانو الولاية الشمالية الشرقية بماليزيا، وكان علينا أن نتوجَّه إليها صباحاً بالطائرة ونرجع إلى كوالالمبور في المساء، وتقع هي على بعد ٢٥٠ كيلومتراً من كوالالمبور، فخرجنا مبكّرين إلى كوالا ترنكانو عاصمة ترنكانو، ويوجد بها أحد الدعاة الفضلاء الشيخ عبد الهادي الحاج أونج الذي تخرَّجَ من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم عمل بعد عودته إلى الوطن في المجالات التعليمية والتربوية والدعوية، وله نفوذ وتأثير شعبيّ كبير، يخطب كل يوم الجمعة في المسجد الكبير بها، حيث يحضر العدد الكبير من المصلين المستمعين.

وقد كان الشيخ عبد الهادي أعلن عن قدومنا، فكان الجمع لذلك كبيراً جداً، وألقيت قبل صلاة الجمعة خطاباً بالعربية نقله الشيخ عبد الهادي إلى اللغة الماليزية، وكان عنوان الخطاب «إلى الإسلام من جديد»، وقد ذكرت فيه بأمثلة مختلفة أنَّ لكل شيء فائدةً خاصة وضرورة مستقلّة، وتُعيَّنُ قيمته وثمنه بناءً على فائدته وضرورته، وأشرت بعصاي التي كنت أحملها، وإلى الساعة التي كانت أمامي، أنَّ هذين الشيئين لو تركا عملهما ولم يُستفَد منهما

الفائدة المطلوبة منهما، لكانا شيئين مُهْمَلين، لا يفيد الاحتفاظ بهما.

ثم ذكرت لهم ما هو سبب بعثة هذه الأمة المسلمة، واصطفائها وتكريمها واختيارها؟، وما هو منصبها وواجباتها؟، وما هي ضرورة هذا العصر وهذه البلاد إليها، وما هو الفراغ الذي يحدث إذا قَصَّرت في أداء واجبها، وما هي الأخطار التي تواجه البلاد إذا نسيت دورها؟، ثم شرحتُ لهم أنَّ المسلمين إذا اختاروا منهجهم القديم ونظامهم الصالح للحياة والمجتمع، كانت لها آثارها الكبيرة العميقة على هذا المجتمع والبلاد، وذكرت لهم مثال صلح الحُدَيبية الذي كان قد هيَّأ الجوَّ للقاءات المفتوحة الحرّة بين المسلمين وغير المسلمين، واستطاع بذلك مشركو مكة ـ إذ لم يكن هناك خوف على الأنفس والأرواح لمعاهدة الصلح ـ أنْ يجتمعوا بأقربائهم وإخوتهم المهاجرين الذين يتَّصلون بهم قرابة ونسباً ولغةً وطبيعةً، وشاهدوا التغيير الجذري الهائل الذي أحدثته صحبةُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أخلاقهم وعاداتهم ومعاملاتهم، رأوا فرقاً شاسعاً جليلاً بينهم وبينهم، رغم الوحدة والمشاركة في اللغة واللون والدم، والحضارة والاجتماع، فقد بلغ إعجابهم بذلك وتأثيرهم إلى حد أنهم دخلوا في الإسلام في مدة سنتين أو ثلاث، في عدد لم يدخلوا به في مدة ١٥ ـ ٢٠ سنة، ويجب عليكم إذن أن تتظاهروا بهذا الفرق والميزة في الأخلاق والاجتماع التي ميَّزكم الله تعالى بها عن طريق الإسلام، الأمر الذي يرغّب الناس في دراسة هذا الدين، ويدعو للتفكير والتأمّل في أسباب هذا الفرق الشاسع والميزة البارزة، التي ميَّزت بين طبقتين هذا التمييز الخلقي والاجتماعي، رغم الاشتراك في اللغة والجِنسيّة والوطن.

وضربت لهم في هذا الصَّدد مثلاً بالمجاهدين الذين كانوا في عسكر الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) وفتحوا مدينة بشاور، فقد سأل أهلها بعض العسكريين الهنود في جيش الإمام: هل عيونكم سليمة تبصرون بها من بعيد؟، فرجعوا إليهم بالسؤال، وما الداعي إلى هذا الاستفسار؟، فقالوا: إننا رأينا أنَّ أيَّ عسكريٍ منكم رغم بُعده عن وطنه وأهله لأعوام، لا

يـرفع بصـره إلى أي امرأةٍ، ولا يلقي لهـا بالاً، ولـو كانت هـذه التجربـة مـع شخص أو شخصين، قلنـا: إنَّ بهم زهداً أو تـورعاً بـالغاً، ولكن العسكـريين كلهم يمثِّلون هذه السيرة، فقالوا: إن ذلك فيض من تربية إمامنا وقائدنا، إننـا نعمل بقول الله تعالى:

﴿ قُـلْ لِلْمؤمِنينَ يغضُّوا مِنْ أَبْصَـارِهِم، وَيَحْفَظُوا فُـرُوجَهُم، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُم إنَّ اللّهَ خَبيرٌ بِمَا يَصْنَعُون ﴾[1].

ومكثنا في بيت الشيخ عبد الهادي إلى العصـر، ثم خطبتُ بعـد العصر في قاعة زين العابدين خارج المدينـة، ثم كان النقـاش وانتهىٰ البرنـامج قبـل المغرب.

وخرجنا من هناك إلى مركز التبليغ بكوالا ترنكانـو الذي يقع في مسجدٍ واسعٍ كبير، بناه أحد الأثـرياء المـاليزيين الصـالحين الحاج مـودة، وتُعقَد بـه اجتماعات حركةِ الدعوة والتبليغ، وتوجد في المسجد مـدرسة لتحفيظ القـرآن الكريم، وتحدَّثت مع الطلاب والمـدرسين، وألقيتُ الضوءَ على أهميّـة العلم الديني، وبركة حفظ القرآن الكريم، وأهميّة الدعوة الدينية، ورَجَعنا بعد ذلك بالطائرة إلى كوالالمبور.

أسباب القلق في البلدان
والمجابهة بين الشعب والحكومة:

كان البرنامج في اليوم التالي ٤/أبريل زيارة قسم الشريعـة في الجامعـة الوطنية، والاجتماع بأساتذتها وإلقاء خطبة فيها، وكان خـطابي في المساء في مسجد الجامعة التكنولوجية القـريبة من مقـرِّنا، حيث حضـر عدد مُشـرِّف من أساتذتها وطلابها.

وذهبنا في النهار الساعة الحادية عشر إلى الجامعـة الوطنيـة، وهي تقوم في عمارةٍ فخمةٍ رائعةٍ، وفي موقع جميل في ناحيةٍ من نـواحي المدينـة، وقد

---

(١) سورة النور، الآية ٣٠.

كان هناك أساتذة كلية الشريعة والمسؤولون عنها في انتظار للاستقبال، وكان الاحتفال في قاعة الجامعة، وكان الحضور من الأساتذة والطلاب الذين يشتغلون ببحوثهم العلمية، وكان الخطاب حول موضوع تعليمي، وقد أُلقِيَ فيه الضوء على أسباب المجابهة والصراع بين الطبقة الحاكمة والشعب المسلم في البلدان المسلمة والإسلاميين وغير الإسلاميين، وقد يؤدي ذلك إلى ثورات وانقلابات ـ وأمثلتُها نادرة قليلة في البلدان غير الإسلامية ـ والسبب الحقيقي في ذلك يرجع إلى أنَّ الأنظمة التعليمية المطبَّقة في البلدان المسلمة لا تتّفق مع عقائد الأكثرية المسلمة ومسلَّماتها وعواطفها ودينها، بل تصادمها، فالشعب والجمهور المسلم في واد، وأصحاب السلطة والحكومةِ والأنظمة التعليمية، والواضعون للقانون، ونظام المجتمع والتعليم والتربية في وادٍ آخر، وبسبب ذلك يقوم عَداءٌ ووحشة وعدم ثقة، وصراعٌ بين هاتين الطبقتين، فتحاول الطبقة الحاكمة أن تُجفِّف منابع الدين والعواطف الدينية أو تميتها في الشعب، وتعيش في خوف منهم وتوجُّس وسوء ظن، ويحاول الشعب والإسلاميون ـ كلما وجدوا فرصة ـ أن يطيحوا بهذا النظام، ويثوروا عليه، وهكذا يستمرّ الصراع والحرب الداخلية الطاحنة.

وكان بعد الخطاب نقاش وأسئلة مُوجَّهة من الطلاب، رددت عليها بما يناسب.

وكان الخطاب بعد العشاء في مسجد الجامعة التكنولوجية.

وتقرَّر خطابٌ في اليوم التالي أي ٥/أبريل ١٩٨٧ م في قاعة المدينة الكبيرة الواسعة التي سُمِّيت بقاعة تنكو عبد الرحمن، رئيس وزراء البلد الأسبق، وقد حضر فيها لسعتها ومكانها، ولأنه كان يوم الأحد عددٌ كبير من المثقفين ورجال الفكر والعلم، بدأتُ الخطاب الساعة الحادية عشر نهاراً، واستغرق ساعةً كاملة، وقام بالترجمة للخطاب نائب رئيس حركة «أبيم» الشيخ عبد الغني شمس الدين، وهو رجل فاضل، وبارع في اللغتين العربية والماليزية.

السفر إلى «قدح» وخطاباتي فيها:

وسافرنا اليوم التالي ٦/أبريل إلى «قدح» وهي منطقة ذات أهمية في غرب ماليزيا، وتكفي حاصلات الأرزّ بها لسائر البلد، والمسلمون بها في أكثريةٍ ساحقة، ولم يصل إليهم كثير من سيّئات الحضارة الجديدة، وشخصيتها الإسلامية وصلتها بالصحوة الدينية أبرز وأظهر، فأنت ترى فيها ملابسَ عربية وعمائمَ عربية كثيرة، والشعور بالأُخوّة الإسلامية أقوى، وهي منطقةٌ قريبة من «فطاني» الحدود الجنوبية لحكومة تايلندا، والتي أكثريةُ سُكّانها مسلمة، وتعيش تحتَ وطأةِ ظُلم الأقلية الحاكمة في البلاد.

كان موعد إقلاع الطائرة من كوالالمبور إلى قدح بعد المغرب في ٥/أبريل، والمسافة بينهما حوالي ٢٠٠ ـ ٥٠٠ كيلومتراً، وقد جاء جَمْع كبير للاستقبال على مطار قدح، استقبلنا ورحَّبَ بنا بحفاوةٍ بالغة، ومشاعر الأخوة الإسلامية، والحب الإسلامي الصادق، وكان مقرُّنا الذي ننزله بعيداً عن المدينة في قرية، ووصلناها والناس واقفون صَفَّيْن للاستقبال ويوجد بهذه القرية «معهد التربية الإسلامية» الذي يشكّل الخرِّيجون الندويون أكبر جزء من مدرّسيه، وعلمنا بعد الوصول إلى القرية أنَّ الناس جاؤوا من مسافاتٍ شاسعة ينتظرون في الاحتفال، وقد حملت عشرات من السيّارات جموعاً من الناس إلى القرية، وكان الاحتفال في ساحةٍ واسعة أمام مكتب المعهد، وقد كنا بعد شواغل النهار واحتفالاته ولقاءاته وهذه الرحلة إلى قدح مُتعَبين، ولكن هذا الاستقبال، والحب الدافق، والأخوة الصادقة وَلَّدت فينا نشاطاً وانتعاشاً وقوة.

وكان الخطاب في اليوم التالي ٦/أبريل في الساعة العاشرة نهاراً أمام أساتذة المعهد وطلابه، ثم وضعتُ الحجر الأساسي لقسم من أقسام المعهد باسم «المعهد العالي للدعوة»، وألقيت خطاباً في المساء في «مدا» مُؤسَّسة الشؤون الزراعية المركزية بقدح التي هي أكبر مؤسَّسة وطنية زراعية للبلاد، وقد حضر هذا الاحتفال عددٌ من المسؤولين الرسميين وأعيان المدينة،

فاغتنمت الفرصة للتوجيه إلى أمور مهمة، ونبَّهتُ المسلمين إلى مسؤولياتهم الدعوية والخلقية وللأمور الخيرية.

وقضينا الليل بقدح ثم سافرنا صباح ٧/أبريل بالطائرة إلى كوالالمبور، وكان في نفس اليوم برنامج احتفال وقت الظهر في الجامعة الماليزية، فتوجَّهنا إليها من المطار، وكان هناك خطابان آخران بعد العصر في نفس اليوم أحدهما: في مركز جماعة التبليغ للمدينة، والثاني: في مركز حركة «أبيم».

خطورة مسؤولية الشباب الدعاة
ومراحل الحياة الإيمانية:

وبما أنَّ هذه الرحلة إلى ماليزيا كانت بدعوة مُوجَّهة من مسؤولي حركة «أبيم» ويؤمَّل فيهم في مجال الدعوة القوية المؤثرة وتطبيقها على الحياة والمجتمع تطبيقاً عملياً في خضمِّ التحدّيات الجديدة، وأوضاع البلاد المتغيِّرة، ويتوقّع منهم العمل البنَّاء القويّ أكثر من غيرهم، لمستواهم الثقافي وعواطفهم الدينية الجيَّاشة، لذلك انشرح صدري في الحديث معهم أكثر بالنسبة إلى المناسبات والفرص الأخرى، ويبني مركز هذه الحركة في منطقة واسعةٍ في إحدى نواحي المدينة، وقد حضر أعضاء الحركة والمسؤولون عنها من مختلف المناطق، وكانوا في أحد مُخَيّماتهم التربوية.

وقام أولاً رئيس الحركة الشيخ صدِّيق فاضل بكلمة تمهيدية عرَّف فيها بالمؤلف، وأشار إلى أهم مؤلفاته ومواضيعها وفكرتها المركزية، الأمر الذي يندر في كلمات التعريف بالخطيب.

ثم ألقيت خطاباً وبدأت خطابي بتلاوة قوله تعالى:

﴿ إنَّهُم فتيةٌ آمَنُوا بربِّهم وزِدْناهم هُدى، وَرَبَطْنَا عَلى قُلوبِهِم إذْ قَامُوا، فَقَالُوا رَبُّنَا ربُّ السماواتِ وَالأرضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِه إلَهاً، لَقَدْ قُلْنَا إذاً شَطَطاً ﴾[1].

---

(١) سورة الكهف، الآيتان ١٣ ـ ١٤.

وذكرت خطوة هؤلاء الفتية المؤمنين الجريئة البطولية التي خطوها ضدَّ الديانة الشركية السائدة، والسلطة القوية القائمة، التي كان أكثر كبارهم وأقربائهم موظَّفين فيها متطفِّلين عليها.

قلت: إنَّ هذه الآية الكريمة تناولت مراحل اعتناقهم للحق وإيمانهم واهتدائهم واستقامتهم وثباتهم عليه بترتيب لطيف خاص، وهو الترتيب الصحيح لمراحل الإيمان والدعوة المتسلسلة المترابطة، فقد صَرَّحت الآية الكريمة بأنهم جَسَروا أولاً على نبذ دينهم السابق واعتناق الحق، وقبول الدعوة الدينية ﴿ آمنوا بربهم ﴾ ثمَّ زادهم الله هدىً وثباتاً، ثم لما دخلوا مرحلة الابتلاء والمحنة رَبَط الله على قلوبهم وثبَّتهم على الإيمان ورزقهم الاستقامة ﴿ وَرَبَطْنَا عَلى قُلوبِهِم ﴾، وهذه هي المراحل الطبيعية الشرعية التي يأتي معها نصر الله وتأييده.

وقلت أيضاً: إنه ينبغي أنْ يُلاحَظَ أنَّ الله تعالى استعمل هنا جمعَ القِلَّة، فقال: ﴿ إنهم فتية ﴾، وذلك لأنَّ الشباب المستميتين للدين، الذين يُغفلون جوانب رقيِّهم الماديّ ورغد العيش والراحة، لا يكوّنون إلّا قلة في كل عصر.

ثم لفتُّ أنظارهم إلى أن الله تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع صفة الربوبية، فقال: ﴿ إنَّهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم ﴾، وقال: ﴿ إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السماواتِ والأرض ﴾، وذلك لأنَّ الناس كانوا يتصوَّرون انحصار رُقيِّهم وازدهارهم وكفالة حاجاتهم وقضاء متطلباتهم في الوفاء للحكومة والوظائف والمناصب، ولم يكونوا يتصورون الراحة والطمأنينة والعيش الهنيء بدون ذلك، فإنهم بقولهم ليس لنا مُربٍّ وكافل إلّا الله رب السماوات والأرض لا حكومة تربّينا، ولا مخلوق يرزقنا، ضربوا على تلك العقيدة الجاهلية الفاسدة والتصوُّر الجاهلي الذي يشرك مع الله آلهةً وأرباباً أخرى، وأعلنوا أنَّ رزقَهم ونفعهم وضررهم راجعٌ إلى الله وحده، وقد أحيَوا بذلك مثال سيدنا صالح

عليه الصلاة والسلام وقد يكون وقع في أُسَرهم من ردَّة الفعل لإعلانهم ما وقع لأسرة صالح حينما قالوا له:

﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا ﴾[1].

قلت: إنَّ كل آيةٍ في القرآن الكريم معجزة برأسها، ولكنَّ هذه الآية لاشتمالها على بيان ترتيب عجيب دقيق لمراحل الإيمان والدعوة، والثبات والاستقامة، وإعلان الحق والصبر عليه، معجزة خاصة وترتيب ربّاني لطيف.

ثم نبَّهتُ الحاضرين وكان أكثرهم من الشباب الذين يعملون في مجال الدعوة، إلى صفات الداعية المسلم ومراحل الدعوة ودِقّتها وخطرها، وذكرت لهم ضرورة صَبْغِ المجتمع المسلم بصبغة التعاليم الإسلامية والحياة الإسلامية، وليس في الإسلام انفصالٌ بين «الحكومة» و«الكنيسة»، والحياة الفردية والحياة الاجتماعية، والعبادات والمعاملات.

وتَرْجَمَ الخطاب إلى اللغة الماليزية نائب رئيس حركة «أبيم» الشيخ شمس الدين الذي يملك صلاحية وملكة جيّدة في اللغتين العربية والماليزية، وانتهى الاحتفال بنجاح وتأثير جيد.

آخر يوم في كوالالمبور:

كان يوم الأربعاء ٨/أبريل آخر يوم لرحلة ماليزيا، وكان من برامج ذلك اليوم زيارة الجامعة الإسلامية العالمية، وخطاب في مركز الحزب الإسلامي، فقد ذهبنا الساعة الثانية عشر نهاراً لزيارة الجامعة التي تقوم في مبانٍ جميلة واسعة مبنيّة على أحدث طراز، يدرس فيها ليس الطُلاّب الماليزيون فحسب، بل الطلاب الوافدون من مختلف أقطار العالم، وتشرف على الجامعة عدة بلدان مسلمة، ونائب رئيسها أحد الفضلاء العرب الدكتور عبد الرؤوف المصري الذي بقي مديراً لزمن للمركز الإسلامي بواشنطن، ولعلّي كنت قابلته في واشنطن، وقد استقبلنا بحفاوةٍ وسرور بالغ، وذهب بنا إلى قاعة

---

(١) سورة هود، الآية ٦٢.

الجامعة الحديثة الفسيحة، حيث كان المُوظَّفون مشغولين برقابة الاختبارات، وعرف هو بالخطيب، ونقل كلمته إلى اللغة الإنجليزية، وكانت هناك حفلة غداء بعد الخطاب.

خرجنا بعد العصر إلى مركز «الحزب الإسلامي»، وألقيت هناك خطاباً ذكرت فيه أهميّة المعاملة الرفيقة الودودة في إنجاح العمل الدعوي، ونتائجها الطيبة المثمرة، وكان بعد المغرب احتفال عام وكان فيه جمع كبير من الحضور، وقد جاؤوا من أماكن بعيدة، وحضر فيه كبار قادة الحزب وأعيانُه.

ورجعنا اليوم التالي يوم الخميس ٩/أبريل ١٩٨٧ م بالخطوط الماليزية إلى مدراس، ومكثنا ساعات عند مضيفنا القديم السيد عماد الدين خطيب، ثم عُدنا بالخطوط الهندية إلى دِلْهي.

الفصل العاشر

معارضة الخميني، انتقادات لمعتقدات الفرقة الاثني عشرية المعروفة، وتأليف كتاب «صورتان متضادّتان». . . .

الثَّوْرة الإيرانية وتأثيرها وسِحرها:

لمَّا قام الخميني بدعوته قبل أعوام ونادىٰ بتأسيس الحكومة الإسلامية وقلب نظام المملكة البهلوية، وبدأ عهداً جديداً، توقَّعَ الناسُ ـ وقد توافرت لذلك دلائل وعلامات ـ أنه لكي تعُمَّ دعوته ويكسب إعجاب الناس وقبولهم، سوف لا يفتح صفحاتِ تاريخِ الخلافات المُستمرّة القديمة بين الشيعة وأهل السنة، وإذا لم يتمكن من سلبها من الكتب، فلن يفتحها من جديد على أقل تقدير، وكانوا يتوقعون أنه إذا كان لا يستطيع أن يُعْلن براءته من معتقدات الفرقة الإمامية، نظراً إلى مصالح سياسية أو محلّية، فعلىٰ أقل تقدير لا يقدِم بإعلانها وإظهارها، بل كان يتوقع من زعيم ديني جريء شجاع استطاع بجرأته وبصرف النظر عن العواقب والنتائج وبخطابته وتصريحاته الساحرة أن يطيح عرش المملكة البهلوية، التي عرف العالم وفرة قواتها وتدبيراتها الهائلة لتوطيد دعائمها، ـ أن لا يتأخّر ـ على أساس دراسته وفكره العميق توخّياً لتوحيد صفوف المسلمين، ومن أجل جرأته الخلقية ـ في إعلان الحق: أنه لا مجال الآن لهذه المعتقدات ولا حاجة إليها، المعتقدات التي تزعزع أساس الإسلام، وتنال من سُمعَته وقيمته في العالم، والتي هي عائق كبير في توجيه دعوة الإسلام إلى غير المسلمين، لأنَّ مفادَ هذه

المعتقدات أنَّ جماعة الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - التي بلغ عددها في حَجّة الوداع فقط إلى أكثر من مائة ألف صحابيّ، ما بقي منهم على الإسلام إلّا أربعة فقط بعدما لحق النبيُّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - بالرفيقِ الأعلى، أما غير هؤلاء الأربعة فقد سلكوا سبيل الردة - والعياذ بالله - والقرآن مُحرَّف بكامله، وكان أئمة أهل البيت - من وجهة التقيَّة التي تعتبر واجباً دينياً وعزيمة - كاتمين للحق وساترين للقرآن عن أعين الناس، بعيدين عن كل ما يهدِّد سلامتهم ويكدر عيشهم ويلقنون أتباعهم ذلك[1]، ويشكِّلون حركة سريّة كالماسونية (Free-Mason) أو جماعة «إخوان الصفا» على الأقل، تلك المعتقدات التي أنتجتها مؤامرة خطيرة مناوئة للإسلام منذ القرن الأول وعهد الصحابة والتي تحققت نتيجة لأخذ الثأر للامبراطورية الفارسية القائمة من قرون طويلة، بادت على أيدي العرب المسلمين.

وكان المعقول أن يقول بصراحة: يجب علينا أن نتناسى الماضي لإعادة سلطة الإسلام وقوّته ولإصلاح الأقطار الإسلامية وللقضاء على الفساد المنتشر في المجتمع المسلم، حتى تبدأ صفحة جديدة تتمثَّل فيها صورة الإسلام الماضية والحاضرة المشرقة، وتقبل شعوب العالم الأخرى على الإسلام، وتبرز أمام الناس أمثلة تأثير دعوة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي يزخر القرآن الكريم بالأدلة والشواهد على نجاحه المنقطع النظير وتأييد الله - تعالى - له ونصره إياه، الأمثلة الرائعة المعجزة في التعليم والتربية، وإبراز نموذج جديد رائع للإنسان، وإحداث التغيير الجذري العظيم الذي لا نجد له مثالاً في عهد من عهود التاريخ البشري، باعتراف من المؤرخين المنصفين للعالم[2]، وأنَّ القرآن الكريم مصونٌ من أيِّ تحريفٍ وتبديل وتوجد على ذلك - عدا إجماع الأمة واتفاقها قاطبة - شهادات غير المسلمين الصريحة[3].

(١) انظر «أصول الكافي» و«فصل الخطاب» وكتاب «كشف الأسرار» للخُميني.

(٢) انظر تصريحات الفضلاء الغربيين مثل كايتاني، والدكتور ليبان، وايدورد جبون، وفيليب حتّي، وسروليم ميور، ومقتطفات كتبهم من كتابي «صورتان متضادّتان...» ص/٢٣ - ٣٣.

(٣) انظر تصريحات وليم ميور، وهيري لين بول، وباسورث اسمت، والبروفيسور أرنلد، وفيليب =

ولكن بالعكس من جميع الآمال والآثار والدلائل، تمثَّلت أمام الناس رسائله وكتبه وكتاباته الصادرة عن قلمه تحدَّث فيها بكل قوةٍ وصراحةٍ عن نفس تلك المعتقدات الشيعية.

إن كتابه «الحكومة الإسلامية» أو «ولاية الفقيه» يتضمَّن أفكاراً عن الإمامة والأئمة ترفعهم إلى مكانة الألوهية، وتثبت أن الأئمة أفضل من كل نبي ومَلَك، وأنَّ هذا الكون خاضعٌ لهم وتابع لسلطتهم بطريق تكويني[1]، وكذلك كتابه الفارسي «كشف الأسرار» لا يتناول صحابةَ الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولا سيما الخلفاء الثلاثة بالجرح والنقد فحسب، بل يحتوي على كلماتِ السبِّ والشَّتْم المُوجَّهة إليهم التي يمكن أن تطلق على جماعة ضالّة مضللة، فاجرة فاسقة، زائفة مزيفة، ذات مؤامرات[2]، وقد تغلغل في أحشائها حُبُّ الدنيا والتنافس فيها والتكالب على حُطام الدنيا.

وقد كان من المتوقَّع ـ نظراً إلى هذا الخداع والنفاق ـ أنَّ دعوته سوف لا تنال قبولاً وإعجاباً في طبقة المسلمين السنّيين (وهي الكثرة الغالبة في المسلمين) بل ترفض رفضاً باتاً، خصوصاً بعدما ثبت زيف معتقداته وأساسه ونقضه لعقيدة التوحيد الأساسية للأمة الإسلامية وعقيدة المشاركة في النبوة (التي هي النتيجة الحتمية المنطقية لتعريف الإمامة وامتيازات الأئمة) وبعدما تحقق طعنه وتجريحه لشخصيات الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ الذين يحتلّون أرفعَ محلٍ في قلوب المسلمين بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الحبِّ والتعظيم، وكان عهد حكمهم أمثل عهد وأفضل نموذج للحياة، لا في تاريخ الإسلام فحسب بل في التاريخ الإنساني في العالم كله، كان من المتوقعِ أن لا يعتبر الخميني بعد ذلك كله حامل لواء الثورة الإسلامية، ومؤسِّس الحكومة الإسلامية، ومنشئها والقائد المثالي لدى المسلمين السُنّيين على أقل تقدير.

= حتّي، في حفظ القرآن وعدم تحريفه في كتابي «صورتان متضادّتان...» ص/٧٦ ـ ٧٨.

(١) الحكومة الإسلامية، ص/٥٢.

(٢) كشف الأسرار، ص/١١٢ ـ ١١٤.

ولكن الذي يبعث على الأسف والاستغراب أن بعض أوساط المسلمين التي تحمل لواء الفكر الإسلامي وتتمنّى للإسلام الازدهار والغلبة وتدعو إليه، أحلّته محل «الإمام المنتَظَر»، وأبْدَت له من الإعجاب والحُب ما بلغ إلى حدٍّ العصبيـة حيث لا تحتمـل كلمـةَ انتقـادٍ لـه في أيِّ حـال، ولم يعـد مقيـاس المدح والذم والانتقاد والتقريظ في أوساط كثيرة، هو الكتاب والسنة وأسوة السلف وصِحّة العقائد والمذهب، بل إنَّ الهتاف بإقامة حكومة مطلقة باسم الإسلام والفوز بالقوة أو توجيه تحدّ إلى معسكر غربي وإحداث العراقيل في طريقه، يكفي لمن يتولّى ذلك أن يكون قائداً مُحبَّباً مثالياً.

من أجل ذلك الانتصار الذي أحرزه الخُميني على إمبراطورية الشاه محمد رضا البهلوي، ومن جرّاء تلك الثورة التي حـدثت في المجتمع الإيراني بشكل خاص، وما شاع من روايات الحَماس والتفاني في الشباب الإيراني، هذا مع تذمّر طبقة كبيرة من الشباب المسلم في العالم الإسلامي من ذلك الانحطاط الخُلُقي والديني والأوضاع السّيئة، ومواضع الضعف التي تسود فـي عـدة دول مسلمة وعربية، وأصبحت شعاراً لها، وإعجاب هذه الطبقة من الشباب بكل ما يصادفونه من شهامة وطموح ومغامرة يقترن بها اسم الإسلام، من جرّاء هذه الأسباب كلّها نال منهم الإمام الخُميني إعجاباً يشبه ما قد ناله من الإعجاب فيما مضى كمال أتاترك وجمال عبد الناصر في أوساط القوميين الأتراك والعرب.

أسباب السِّحر والتأثير والجاذبية:

يشهد التاريخ وتدل التجارب النفسية المتكررة، أنه كلما اجتمعت مظاهر القوة والطموح والإقدام والمغامرة والتقشّف والشظف في أيّ حركة أو دعوة، رغم انحراف معتقدها وزيغها وضلالها، فإنها تملك من السحـر والتأثير وخلابة العقول ما يصعب معه حماية أذكى الأفراد المتدينين الدارسين المُطّلعين من تأثيرها ونفوذها ونهيهم عن الثناء عليها، وإطرائها، تشهد عليه مواقف الشباب الطامحين الذين يتهافتون على السُّلطة والقوة السياسيـة،

تهافت الفراش على النُّور، ويجرون وراء كل حركة ترفع صوتها بالقوة والثورة، من حركة الخوارج في القرن الأول، وحركة الباطنيين في القرن السادس والسابع، ومنجَزات حسن بن الصباح والفدائيين في قلعة «الموت»، وكذلك عدد من الحركات والمنظّمات العسكرية في الهند، وتكون هذه الفترات التاريخية محنة كبيرة لمن يرىٰ الحقَ والهدايةَ مقياسه الأصيل، ويغار على المعتقدات الصحيحة والنصوص الدينية الثابتة، وتدعوه إلى إعلان الحق الصريح الذي يعدّ «كلمة حق عند سلطان جائر» في جوّ السحر والتأثير والإعجاب الشديد.

كتاب فضيلة الشيخ محمد منظور النُعماني
«الثورة الإيرانية والإمام الخميني والشيعية»:

لقد أصبح الوضع في شبه القارة الهندية عام **١٩٨٤** م أن أصيب المسلمون المتذمّرون من تزمّت العالم الإسلامي وجموده ومعارضة عددٍ من البلدان المسلمة للحركات الإسلامية، والتجائها إلى المعسكر الشرقي أو المعسكر الغربي، وارتباط مصير عدد من البلدان العربية والمسلمة بأمريكا وروسيا والعيش في ظلّهما، بحالة نفسية تعتبر الخميني في هذا الجو المُكفهّر الكئيب نجماً متلألئاً من الأمل والنور وأنه «الإمام المنتظر»، وبدأ كثير من الكُتَّاب الإسلاميين الذين كانوا يمتازون بدراساتهم الجادّة، يدافعون عنه بغضّ النظر عن آثار حركته ودعوته على التراث الإسلامي وجهود النبوة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - ونتائجها والدور الإسلامي التاريخي الكبير، ومن دون تمييز بين العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة، وبين الضلال والهُدَى.

هذا الوضع دفع زميلنا المحترم فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني الذي هو متخصّص بارع في الدراسات المقارنة بين مختلف الديانات والفرق والملل، وأحدُ الجنود المجاهدين في مَيْدان المناظرة والمحاجة العلمية والعقلية، وقد درّس مدة طويلة في مدرسة «دار المبلّغين» التي أسَّسها إمام

أهل السنة الشيخ عبد الشكور اللكهنوي، وهي مدرسة متخصصة في موضوع الردّ على الشيعة، إلى أن يؤلِّف كتاباً قوياً رغم انحراف صحته وضعفه وعلوّ سنه، بعنوان: «الثورة الإيرانية والإمام الخميني والشيعية» وقد أورد فيه شواهد كثيرة من كتب الفرقة الاثنـي عشرية على مواقفهم المشينة إزاء الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - والخلفاء الراشدين منهم بصفة خاصة، وعقائدهم المنحرفة في الإمامة والأئمة الاثني عشر وتحريف القرآن، ثم أثبت بدلائل قوية وشواهد مقتبسة من كتب الخميني أنه كذلك يعتقد بكل هذه الأباطيل وأنه سائر على مذهبهم المعروف[١].

وقد طلب الشيخ من كاتب هذه السطور لصلته القديمة أن يكتب مقدمة لهذا الكتاب، فقام بهذه الخدمة أثناء إقامته ببومبائي في أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر ١٩٨٤ م، وقَدَّم تعريفاً إجمالياً بالكتاب.

«صورتـــان متضـــادتـــان» . . . :

ولكنّي شعرت أثناء مطالعتي لكتاب الشيخ محمد منظور النعماني، بأنَّ هناك حاجـة إلى تأليف كتـاب آخر مستقـلّ، بعيد عن أسلوب الجـدل والمناظرة، يكون دليلاً ومرشداً للقُرَّاء المنصفين من أصحاب الفطرة السليمة والعقل العام، والذين تخلو أذهانهم من الخلفيّات والرواسب المذهبية، ويحكم هذا الكتاب على الحركة الشيعية والخميني ومعتقداته بناءاً على العقل السليم، والفطرة البشرية الصحيحة، وفي ضوء دراسة تاريخ الديانات والنِّحَل والاطّلاع على نفسية الشعوب والمِلَل والأفراد، واستعراض نتائج الجهود الإصلاحية والحركات الثورية في التاريخ البشري الطويل، والذي يُصدر حكمه ويقضي بأنَّ الدين يخاطب النوع البشري كله ويدعوه إلى العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة والسيرة الطيبة، وينظم المدنية البشرية والمجتمع الإنساني تنظيماً جديداً، ويتعرض لشرح هذه الحقيقة الأساسية أنَّ

---

(١) وقد نقل هذا الكتاب من الأردية إلى مختلف اللغات العالمية، وصدرت له عدة طبعات في الهند وباكستان، ونشر في باكستان بصفة خاصة بصورة حركة قوية.

الدين الذي هو رسالة الله الأخيرة الخالدة الذي يبقى إلى يوم القيامة ويقوم بمسؤولية تعليم الناس، وتربيتهم، كيف ينبغي أن تكون نماذجه الأولى التي تربت في أحضان النبي المؤيَّد المنصور من الله ـ تعالى ـ الذي أكرمه الله ـ تعالى ـ بالمعجزات والآيات الباهرات، كيف تكون سيرة الرجال الذين تلقَّوا تربية النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ المباشرة وصحبوه، وهل يكون موقف النبي الذي يقول: «اللهم لا عيش إلّا عيش الآخرة»، ويقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» ويدعو بذلك ويناجي به ربه، مع أهل بيته، كموقف مؤسّسي الدول والحكومات والفاتحين المستأثرين العنصريين، الذين لا يكون همهم من كل محاولاتهم وحروبهم وطموحاتهم إلّا تأمين السلطة والدولة وحياة الترف والبذخ، ومنصب القيادة والإمامة، لأسَرهم وعوائلهم لأجيال وقرون، وتوجد أمثلتها الظاهرة في تاريخ سلاطين الأسرة الساسانية وقادة المجوسية الدينيين بإيران.

وقد استخدمتُ لعرض هذه الحقائق النصوص القرآنية والشواهد التاريخية المعتبرة وتصريحات العلماء والمؤرخين الغربيين، ثم وجَّهتُ سؤالاً إلى القارىء أي الصورتين أبعث على الأمل وأدعى للجرأة والشهادة بالنظر إلى رفعة مكانة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومقاصد البعثة الأساسية الجليلة، والفطرة البشرية الصالحة وتقبُّلها للخير والصلاح؟، وفي ضوء شواهد التاريخ المحايد المنصف، هل تلك الصورة القاتمة المظلمة التي يقدِّمها أولئك الذين يحكمون على النبي بالإخفاق في مهمته وتربيته، والانخداع بأصحابه، أو الصورة الأخرى المشرقة الشفّافة التي تعرض النماذج البشرية الرفيعة والنّتاج العظيم لتربية النبي الجليلة المغيّرة للنفوس؟.

وقد كان من دواعي التأليف للكتاب بهذا الأسلوب أنَّ المؤلف قد جرَّبَ تجارب عملية بمشاهداته الشخصية ودراساته المتنوعة والأعمال الدعوية، أنَّ العدد الكبير من مُثقَّفي الجيل الجديد لم يدرسوا ـ لتأثير التعليم الحديث والبيئة الحديثة ولقلّة الاطلاع على الكتب العلمية والتاريخية باللغة

الأردية ـ الكتب المؤلفة في موضوع السيرة النبوية وسيرِ الصحابة رضي الله عنهم وتاريخ العهدِ الإسلامي الأول، فلم يقرأ العدد الكبير منهم كتاب «الفاروق» الرائع العظيم للعلامة شِبْلي النعماني، و «سيرة الصديق» المعجب المؤثِّر للعلامة الأمير الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني، وكتاب «أسوة الصحابة» العلمي الأدبي للشيخ عبد السلام الندوي، وسلسلة «سِيرَ الصحابة» الصادرة من دار المصنفين.

فإنهم لو قرأوا نصوصاً ومقتبساتٍ طويلةً من كتب الفرقة الاثني عشرية عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يُخشَى على كثيرٍ منهم أن يجدَ الشك في مكانةِ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومنزلتهم العالية، إلى نفوسهم سبيلاً[1]، ولذلك فإنَّ الحاجة ماسة إلى إيراد شواهد وتصريحات ومقتطفات من التاريخ المستفيض المتواتر، ومن كتب بعض المؤلفين الشيعة المنصفين، والكتّاب والمؤرخين المستشرقين، والفضلاء الغربيين، عن الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ والعهد الإسلامي الأول الزاهر.

نظراً إلى هذين الغرضين وضعت هذا الكتاب الذي نشر أولاً بالأردية في أوائل عام ١٩٨٥ م ونقل إلى العربية بعنوان: «صورتان متضادّتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية» وإلى الإنكليزية بعنوان (Islam and the Earliest Muslims two Conflicting Portraits).

قام المجمع الإسلامي العربي بلكهنؤ بإخراج الطبعات الأردية والإنكليزية والعربية، ثم صدرت طبعته العربية في عَمّان والقاهرة وقطر وبيروت، كما صدرت طبعاتٌ متعددة في مختلف اللغات الغربية المحلّية، وأقنع هذا الكتاب طبقة علمية لا تألف في البحوث العلمية أسلوبَ الجدل والمناظرة القديم بل تستوحش منه، وأثَّر فيها وغيَّر رأيها.

هذا موقف علمائنا الأجلة من عهد الإمام أبي الحسن الأشعري،

---

(١) وقد حدث ذلك فعلاً، وجاءت إلى المؤلف رسائل تحمل هذه الانطباعات.

والغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، إلى الإمام ولي الله الدهلوي، والشيخ عبد العزيز الدهلوي، وقد طمأنتني رحلاتي الحديثة إلى ماليزيا وإنكلترا، والرسائل التي تلقّيتُها من بعض العلماء والدعاة وأكَّدت أنَّ هذه الفتنة من أدهى الفتن، وأنَّ هذه المغالطة العلمية ـ لاجتماع العناصر التي أشرتُ إليها في هذه الدعوة والحركة المضلِّلة ـ بلغت من العمق والسَّعة ما أكَّد ضرورة محاسبتها العلمية واستعراضها ودراستها الناقدة.

ونحمد الله ـ تعالى ـ على أن وفّقنا لإنجاز هذا العمل في أوانه، ولا تزال أهميّته وفائدته، فإنَّ الثورة الإيرانية ونوعيّتها وإهراقها للدماء وعنفها وضراوتها، والحرب المستمرة الطاحنة بينها وبين العراق التي مضى عليها سبع سنوات[1]، كلُ ذلك خطر رهيب على الخليج كله، وأشد من كل ذلك وأنكى مظاهرة الإيرانيين الهجومية العنيفة عام ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م في موسم الحج بمكة المكرمة ومُخطَّطاتهم الخطيرة ـ التي لقيت حالياً إخفاقها وفشلها ـ عن الحرمين الشريفين أكَّدت الحاجةَ من جديدٍ إلى عمليّة الانتقاد والاحتساب لموقف الحكومة الإيرانية ومسؤوليها الشيعيين الذي ظلَّ خطراً شديداً على العالم الإسلامي، والذي يحاول تشويه الصورة الإسلامية في أنظار غير المسلمين، وترويج المغالطات والأكاذيب والظنون السيئة عن الإسلام والتاريخ الإسلامي.

استغراب من بعض المعارف
واقتناع المؤلف:

بالرغم من أنَّ هذا الكتاب لم يُؤَلَّف في أسلوب جَدَلي كلامي، وقد كانت متعة أدبية تاريخية لمتذوقي البحث العلمي والتاريخي، لم يعجب

(١) كانت الحرب بين إيران والعراق قائمةً على قدم وساق عند كتابة هذه السطور، وقد ساد وقف النار على الجبهتين بسبب مساعي منظمة الأمم المتحدة (ولرغبة القوىٰ الكبيرة في انتهاء هذه الحرب لمصالحها السياسية بالأصح) ولضعف الجبهة الإيرانية أفرادياً واقتصادياً، في شهر أغسطس ١٩٨٨ م.

بعض أصدقائه ومعارفه الذين كانوا يرون فيه داعياً دينياً إيجابياً، مؤلفاً لكتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وكاتباً يدعو العالم العربي والإسلامي إلى الإصلاح والثورة الإيجابية، وأبدى لذلك عدد من الأصدقاء حَيْرتهم واستغرابهم وصرَّحوا بأنَّهم كانوا يتوقعون مني أن أحصر نشاطاتي وجهودي التأليفية في دائرة المقاصد الدعوية الإصلاحية والتاريخية والأدبية والاجتماعية، بدلاً من أن أتناول القضايا الخلافية التي أُلّفت فيها مئات من الكتب والرسائل، ولم أشعر عندما أثيرت مثل هذه الأسئلة والاستغراب من بعض الأوساط بأيِّ نَدَم أو اعتذار، ولست نادماً أو معتذراً الآن، والذين قرؤوا المجلد الأول من «مسيرة الحياة» لاحظوا أنني بالرغم من جميع نشاطاتي وجهودي واشتغالي وعنايتي بالأدب والتاريخ وشواغلي الدعوية والتأليفية، كتبت عام ١٩٥٨م في موضوع القاديانية، وقد نال كتابي ذاك الشهرة والقَبول، وطُبِعَ ونشر باللغات الأردية والعربية والإنكليزية، ويعتبر مرجعاً مهماً من المراجع الرئيسية في هذا الموضوع.

والواقع أنَّ إنكار ختم النُبوّة قَدْرٌ مشترك بين القاديانية والشيعية[1]، ثم إذا تجاوزت أي فرقة أو حركة أو دعوة حدود الإسلام وتخطَّت ثغورها، فلا مجال حينئذٍ لأيِّ داعية وكاتب إسلامي ـ مهما كان رَحْب الصدر سمح السلوك ـ إلّا أن يفضّ ختم السكوت والعيِّ والحياء، ويعلن الحق، ويظهره ويحاسب محاسبة صريحة قوية.

---

(١) اقرأ المعتقدات الشيعية ونظرتها إلى الإمامة والأئمة، ومنافاتها لختم النبوة ووحدة النبيّ في كتاب «صورتان متضادّتان. . .»، ص/٨٢ ـ ٨٧.

الفصل الحادي عشر

الاضطراب الطائفي الرهيب في ميرَتْ، رحلات داخل البلاد وخارجها

الاضطراب الطائفي الرهيب لميرت:

لم تعد الاضطرابات الطائفية بعد عام ١٩٤٧ م (عام التقسيم) حادثاً غريباً نادراً، فلم تزل تقع في مختلف ولايات الهند بعد فتراتٍ طويلة أو قصيرة اضطرابات طائفية، ذكرت منها (في المجلد الأول من «في مسيرة الحياة») بشيء من التفصيل الاضطراب الطائفي الذي وقع بمراد آباد يوم العيد في المُصلَّى، والذي استهدف فيه الأطفال البريئون أيضاً الذين جاؤوا فَرِحين في ملابس العيد الجديدة مع آبائهم وأقربائهم إلى المُصَلّى، ماتوا بطلقات البوليس، وكانوا هدف هذا الاضطراب، وقد وقع هناك عدد من الاضطرابات الطائفية في مختلف المناطق في نطاق ضيِّق أو واسع.

ولكن الاضطراب الطائفي الذي وقع عام ١٩٨٧ م **لميرت (Meerut)** لعلَّه كان أفتَك هذه الاضطرابات وأهولَها وأفظعها، وكان ذلك لسوء الحظ في شهر رمضان، وكثير من المسلمين الذين تعرَّضوا لهذا الاضطراب كانوا صائمين، ولا يزال هذا الاضطراب إلى هذه الساعة ـ وقد مضى عليه أربعة أشهر ـ موضوع النقاش بين المسؤولين عن مُنظَّمات الفريقين والناصحين للبلاد، المتوجعين للأوضاع.

ويحتاج بيان خلفيات الاضطراب، ودوافعه وأسبابه، والإجراءات

الـوحشية الـرهيبة، ونتـائجها وآثـارها، إلى كتـاب بـدلاً من مقـال أو فصـل، ويمكن أن يكـون قـد صـدرت هنـاك كتب عن هـذا المـوضـوع في مختلف المناطق، والبحث التحليلي في هذا الموضوع، والتعليق الـدقيق عليه خـارجٌ عن نطاق هذا الكتاب.

ولكنني لا يمكنني أن أُغفل ذكر هذا الحادث الـذي وقع في مـدينة في ولايتنا اترابـراديش لها تـاريخها العلمي والقـومي والديني، وقـد اشتعلت فيها الجمـرة الأولى لحـرب التحـريـر عـام ١٨٥٧ م، والتي تقـع في ضـواحيهـا وبجوارها مراكز علمية كبيرة طبَّقَ صيتُها شبه القارة الهندية[1]، ومراكـز روحية وتربوية معروفة، وقرى منجبة، أنجبت الشخصيات التاريخية الكبيرة، ثم إنها تقع على مقربة من دِلْهي عاصمة البلاد.

أكتفي هنا بتصريحات ثلاثة أدلَى بها الكتّاب والصحفيون البـارزون من غير المسلمين:

كتب المستـر نكهـل جكـرورتي (Nekhal Chakravarti) الصحـافي والكاتب الهندي المعروف في صحيفته الأسبوعية: (Main Stream) التي لهـا رواج وقبول في طبقة المثقفين:

(إنَّ ما حدث في ميرت بشهر مايو يختلف تمـاماً عمـا يحدث في عـامة الاضطرابات الطائفية، فلمـا انتهى خَطَر التجـول أو خُفِّف فيه، وانتهى حَـظْر اتصال أفراد تلك المنطقة بالناس في الخارج، بدأت تتسـرب روايات تقشعـرُّ لهـا الجلود وترجف الأبـدان، وبدأت تتسـرَّب قصة ميـرت لعـام ١٩٨٧ م في طيات شعورنا، ولكنها لم تستكمل فصولها بعد، وقليل من الناس من يـدرك جميـع أسرار هـذه القصة، فقـد هجمت فصائـل .P.A.C في بعض المناطق الخاصة، وقرعت أبواب بيـوت المسلمين واقتحمتها، وأخـذت من استطاعت أن تأخذهم لا سيما الشباب منهم، وشحنوهم في شاحنـات .P.A.C، وذهبوا

---

(١) تقرب من ميرت مركز هذه المذبحـة، معهد ديـوبند الكبيـر في مديـرية سهـارنبور المجـاورة، ومعهد مظاهر العلوم في مدينة سهارنفور.

بهم إلى مكـان بعيد، وأنـزلوهم هنـاك، ثم أطلقوا عليهم الرصاص، وقتلوهم صَبْراً ورموا بجثثهم في النهر)[1].

وفي ما يلي مقتطف من تقرير شري شنكر كرشن تهاكر (Shri Shankar Krishna Thakur) الذي نشر في صحيفة (The Telegraph):

(إنَّ وضع «مليانة» اليوم يدعو للأسى والحزن الشـديد، فقـد طرد فيهـا الناس رجالاً ونساءاً وأطفالاً، لجـأوا إليها ليجـدوا فيها مـلاذاً ومأمنـاً وشُرِّدوا، وأطلقت عليهم النيـران ورقي شبـاب .P.A.C سـطوحَ بيـوت المسلمين، وأطلقوا منها النيران على المسلمين العُزَّل في صحن بيوتهم، وحرق كثير منهم وهم أحياء، واستمرّ إطـلاق النار من قِبَـل شباب .P.A.C الضـاري بـالـدمـاء والسَّلب والنهب ثـلاث ساعـات متواليـات، ولما انتهت عمليـاتهم الـوحشيـة المدمّرة، شوهد ٢٦ بيتاً عاد كومةً من أنقاض، ولقي أربعون شخصاً حتفهم، ولم يُقـدّر إلى الآن عدد جميـع القتلى والشهداء، فـإنَّ كثيـراً منهم لا يُـدرَى عنهم شيء).

ويقول الصحافي الشهير كلديب نير (Kuldip Nayar):

(إنَّ المجـزرة الرهيبـة المنتنة التي وقعت في «مليـانة» على مقـربـةٍ من مدينة ميرت، لا يمكن لأي عبارة أن تصفهـا وصفاً صحيحـاً، فليس هناك من بيت إلّا وعليـه آثار من الـطلقات، وليس هنـاك من أسرة إلّا وبعض أفـرادهـا هلكوا على أيدي السفّاكين، وقد زرتُ تلك المنطقة بعـد ٢٤ ساعـة من هذه المأساة، فكانت تخيَّل إليَّ هذه المنطقة كأنها دُمِّرت في حـربٍ طاحنـة، وقد فرَّ الرجال منها ليجـدوا ملجأً، وإنَّ الـظلم والوحشيـة التي كنتُ شاهـدتُها في حادث التقسيم على حدود البلدين أعيدت روايتها هناك مرة ثانية).

وقد وضعت صحيفة «التايمز الهنـدية» لمقـال المستر نكهـل جكرورتي عنوان: (البربرية الهتلرية في ميرت) في عددها ١٤/يونيو ١٩٨٧ م.

---

(١) تايمز أُف إنديا (The Times of India) ١٤/يونيو ١٩٨٧ م.

ولم تزل تقع بعد مُضيّ مدة لا بأس بها على هذا الحادث أيضاً حوادث وحشية سفاكة، يتندَّى لهـا جبين كل محب للوطن، محتـرم للإنسـانية خجـلاً وحياءاً، فقد تعـرَّض المجرمـون في ليلة ٢٢/يوليـو ١٩٨٧ م لركّـاب حافلتين مُسلِمين، وأنـزلوهم من بـاصاتهم، وضـربوهم وعَـذَّبوهم واستشهـد منهم اثنا عشر مسلماً فيهم النساء والأطفال أيضاً، وتفيد الإحصـائيات غيـر الرسميـة أنَّ عدد الشهداء أكثر من ١٥ شخصاً مسلماً، وحسب تصريـح حاكم المـديريـة ـ الذي نشر في صحيفـة «التايمـز» ٢٥ / يوليه ١٩٨٧ م ـ لقدَ سجل نفيس أحمد الـذي كان مسـافراً إلى دلهي من بجنـور هذا الحـادث في مركـز الشرطـة أنه أوقف الحـافلة (Bus) ثلاثـون شخصاً قبـل «وليد بـور» في الساعـة العـاشْـرة وخمـس وأربعيـن دقيقـة، ثم اقتحمـوا السيّـارة، فلمـا وصلت البـاص إلى وليـد بور أوقفهـا جمع ثـائر قـرب مصلّى العيد، ثم أنـزلوا أفـرادَ فرقـةٍ معيّنـة (المسلمين) وأنزلوا بهم العذاب الشديد، وضربوهم ضرباً مبرِّحاً قاسيـاً، لقي إثره ثمانية أفراد منهم حتفهم، واستشهدوا في نفس المكان.

وقد وقع مثل ذلك حادثان آخران تقشعرُّ لهما الجلود، وجاء ذكرهما في بعض التقـاريـر الـرسميـة، وتصـريحـات بعض الجـرحى الـذين أُدخلوا في المستشفى.

وعيَّنت الحكومة لجنـة مُكوَّنـة من ثلاثـة أفراد للتحقيق في الاضـطراب الـطائفي بميـرت، ونشـرت صحيفـة التـايمـز أنَّ اللجنـة تـوصلت في بحثهـا وتحقيقهـا إلى أنَّ الاضـطراب كـان مُخـطَّطاً مُبـرمجـاً من سـابق، وأنَّ حكـام المديرية تساهلوا وأبـدوا غفلةً شديـدةً، فلم يستطيعـوا مواجهـة الوضـع الذي ازداد تعقُّداً وسوءاً وقساوةً، وقد صُرِّح في تقرير اللجنة الذي قُدِّم إلى الحكومة بتاريخ ١٨ /سبتمبر بأنَّ قضيـة المسجد البـابري ومـولد رام استخـدمت لإثارة العواطف وإشعال نار الطائفية، وقد كان الفريقان على أشد الخـلاف والعداوة والثورة قبل ١٨ /مـايو، وقـد خطَّأت اللجنـة دعوى اليـد الباكستـانية في إثـارة الاضـطراب، أو أنَّ الأسلحة الخـارجية المستـوردةمن أيِّ بلد استعملت فيه، وصرَّحت بأنَّه تظاهر الحكام بقوةٍ وبطشٍ وفتـك شديـد في التفتيش والتحقيق

مع الناس في مواضع كثيرة، ويقال: إن البوليس استخدم قوته وعنفه الشديد في منطقة هاشم بوره، ولا بد لوقف هذه الاضطرابات الطائفية من الإسراع في حل قضيّة المسجد البابري، وأنْ تُتَّخذ الإجراءات الكافية لضمان الأمن والشعور بالسلام في فرقة الأقلية.

وقد اتهمت لجنة الأمن الدولية أيضاً البوليس و (P.A.C.) بصفةٍ خاصة، وأنَّ موقفها كان عدائياً وأنها قَتَلت عشراتٍ من الناس العُزَّل.

السّفر إلى لندن والكُويت:

قدم العزيز الدكتور فرحان أحمد النظامي مدير المركز الإسلامي بأكسفورد في الأسبوع الثاني من أغسطس إلى لكهنؤ، وألحَّ عليَّ بالحضور إلى الجلسة السنويّة لأمناء المركز الإسلامي التي كانت تعقد في ٢٧/أغسطس ١٩٨٧ م بأكسفورد، وقد أُرسِلت الدعوة إلى سائر الأمناء، وكنت لو لم أشارك فيها لكان يؤثّر ذلك على بعض الإجراءات القانونية، لأنَّ مشاركة رئيس المركز في هذه المناسبة كان أمراً لا بُدَّ منه، وحاولت الاعتذار لأجل المرض والضعف الذي حصل لي في آخر رمضان، وبرَّح بي حتى قضيت فترة من الزمان في المستشفى في دلهي والاستجمام في بمبائي، ولكن ألحَّ عليَّ الأصدقاء نظراً إلى أنه سيمكن هناك إجراء الفحوص الطبّية أيضاً على أيدي كبار المتخصّصين، والحصول على بعض التوجيهات الطبّية، ثم إنَّ الجوّ سيتغيَّر وننجو من هذه الحرارة الزائدة، فأستريح قليلاً، ثم إنني لا أملك قوةَ مقاومةٍ في نفسي لطلب الأصدقاء والأحباب، وأخيراً تهيّأت نفسي شعوراً بالمسؤولية ولإلحاح المخلصين وتشجيعهم للسفر، وقد كان الدكتور فرحان حجز مقعدَيْن بالدرجة الأولى في طائرة B.O.A.C. لي ولمرافقي العزيز محمد الرابع الندوي الذي هو أحد أعضاء المركز وأمنائه.

وطلب مني الدكتور فرحان نظامي أن أُعدّ مقالاً في موضوع يتعلق بالإسلام وموقفه من العلم، ألقيه في الجامعة، فأعددت مقالاً بعنوان: «دور الإسلام التاريخي في نشر العلم النافع الصحيح وقيادة البشرية وإصلاحها عن طريقه» وقد نقله إلى الإنكليزية الأستاذ محيي الدين بسرعة وبإجادة وإتقان.

توجّهنا في ٢٦/أغسطس ساعة ٧ صباحاً بطائـرة .B.O.A.C عن طريق دُبَي والكـويت إلى لندن، وقـد تطوَّع العـزيز محمـد إسحاق صـاحب شركـة صناعة الجلود بكانفور للمرافقة والـزمالـة في هذه الـرحلة الطويلة، وقـد طال هـذا السفر لنـزول الطائـرة بدُبَي والكـويت، ومكثنا في الـطائرة ١٤ سـاعـة، ووصلنـا لندن السـاعة الـرابعة مسـاء حسب توقيتهـا المحلي والساعـة الثامنـة والنصف حسب توقيت الهند، ووصل إلى المطار الـدكتور فـرحان نـظامي في سيـارة الدكتـور بـراونـك (DR. Browning) الـذي هـو من أعضـاء المـركـز النشيـطين والمسؤولين عنه، وكـان عميد إحـدى كليات الجـامعـة سـابقـاً إلى المطار، وصلَّينا العصر بالمطار، ثم خرجنا معهم إلى أكسفورد التي تقع على ٧٠ ـ ٧٥ كيلومتـراً من لنـدن، ووصلنـا أكسفـورد مُتعَبين مجهـودين وشعـرت لقرب برئـي من مرضي ونقاهتـه ومخلَّفاتـه، والجلوس أربعة عشـر ساعـة في الطائرة تمتَّعنا في أثنائها باستراحة قليلة، بإعياء وإرهاق بالغ.

في أكسفورد ولندن:

عقدت جلسة المركز في ٢٧/أغسطس وسُررت بوجود معـالي الدكتـور عبد الله عمر نصيف، ومعالي الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، وغيرهما من كبار الأعضاء، ورأيت أنَّ مجيئي كان خيراً، وقـد حضر الجلسـة الدكتـور كامل الباقر نائب رئيس جامعة أمّ درمان الإسلامية سابقاً، والشيخ عبد العـزيز علي المُطوّع أحد أصحاب العلم والفضل والخير بالكويت.

وقـد تقررت جميـع الأمور المهمـة في الجلسة في سهـولة ويُسـر وثقـة وتعاون، ورأيت من الأنسب نظراً إلى صحتي المتدهورة وأمراضي وسنّي، أن يُختـار لي نـائبٌ ينـوب عني إذا غِبْت عن الجلسـات، ورشّحتُ لـذلـك اسم معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف، وقدَّمتُ اسمه باستشـارة الأصدقـاء لنيابـة الرئاسة، وقد وافق الأمناء والأعضاء عليه.

وتم افتتاح سِلْسِلة المحاضرات باسم الشيخ عبد العـزيز المُـطوِّع بكلية سينت كراس بمقالي الـذي كنت أعددتـه، وألقيت أولاً كلمةً تمهيـديةً بـاللغة

العربية، ثم طلبت من الدكتور فرحان النظامي أن يقرأ مقالي على الحضور، فقرأه بإحسانٍ، وأَصْغَتْ إليه الآذان، ويمكن تقدير محتوى المقال بعناوينه الجانبية، وأذكر في الأخير مقتطفاً منه لأهميته:

(معجزة النبوة المحمدية ومأثرتها الجذرية.

الدعوة إلى التأمل والتفكير في الأنفس والآفاق وتاريخ الشعوب والأمم وآثار ذلك وفوائده.

الربط بين الوحدات العلمية المنثورة.

دور الإسلام في يقظة الغرب وبدء عهد جديد للعلم والحضارة.

فضل المسلمين العلمي وتفوّقهم في العالم القديم وقيادتهم في ميدان العلوم التجريبية.

المخترعون البارعون والمتخصّصون في العلوم من المسلمين).

وأورد فيما يلي قطعةً أخيرة من المقال:

(إنني قبل أن أختم مقالي هذا أريد أن ألفت انتباهكم إلى هذه الحقيقة الأساسية، أنه لا يجوز لنا أن ننسى أنَّ الإنسان ليس إلّا خليفةً، استخلفه الله ـ تعالى ـ في الأرض، أنه ليس مصدراً للعلوم ولا منتهى لها، إنَّ عليه أن يحقق مرضاة الله ـ تعالى ـ ومشيئته، وأنْ يقوم بأداءِ حق الخلافة، إنَّ الله تعالى ذكر «تعليم الأسماء» لآدم بعد ذكر استخلافه وفي سياقه، الأمر الذي يدلُّ دلالةً صريحة على أنه مأمور باستخدام علمه كخليفة.

ولقد كان من مأساة تاريخ العلوم؛ بل تاريخ العالَم أن الإنسان نسي أو تناسى أنه خليفة، وأنه حمل أمانة هذه الأرض، إنه لم يُبعث فيها سيّداً مطاعاً أو مالكاً مطلقاً ليستخدم خزائن الأرض المودعة في باطنها أو الظاهرة على وجهها لمصالحه الشخصية، أو القوميّة، أو السلالية، أو الطبقية، أو للسيادة السياسية.

ولقد كان يوماً مشؤوماً لتاريخ البشرية والعلم، حينما اختارت هذا الطريق للهلاك والدمار، إنَّ هذا الشعور وحده بأن الإنسان مستخلَفٌ في هذه

الأرض وأنه ليس مالكاً لها وسيّداً، لقادر بأن يثبته على الصراط المستقيم، إذ أنَّ إدراك هـذه الحقيقة ليحـول بينه وبين التصـرفـات العشـوائيـة التي يمليهـا الهوى).

أقمنا بأكسفورد ثلاثة أيام بمنزل السيد فرحان، وقد استفدنا أثناءهـا من مجالس الأستاذ الكبير البروفيسور خليق أحمد النـظامي[1]، وتمتعنا بمجـالسه العلمية المفيدة، إذ لـم يكن لنا عمل هناك غير هاتين الجلستين، وإنَّ ما يمتاز به البروفيسور خليق من الدراسة العميقة الواسعة للتـاريخ الإسـلامي في الهند قَلَّ من يشاركه في هذا المضمار في شبه القـارة الهنديـة، ولما أنَّ كـاتب هذه السطور له مشاركة في هذا الموضوع فكانت متعته لأجل ذلك مضاعفة.

وقـد كنت متعوداً بلنـدن منذ زمن طـويل أن أنـزل ببيت العزيـز مسرور أحمد اللكهنوي، وقـد مرض منـذ أيام فلم أر إرهـاقه بـالضيافـة، ولكنه جـاء بسيارته وذهب بنا إلى بيته، ولـم يدَّخر وسعاً في الضيافة والإراحة رغم مـرضه وضعفه ووحدته في البيت.

العـودة إلـى الهنـد:

كنت قــد أكَّـدتُ على الإخــوة المضيفين بلنــدن نــظراً إلى نقــاهتي ومخلَّفات مرضي، أن لا ينظموا برنامجـاً، وقد أخـذوا بهذه الـوصية، وأخيـراً غادرنا لندن في ٦/سبتمبر بالخطوط الكويتية، وأحببنا النزول بالكويت ليومين تحرُّزاً من طول المسافة، واستمرار السفر إلى الهند، وحاولنا هناك أيضاً أن لا ينظم أي حفل أو بـرنامـج، إلاّ أنَّ سعادة الشيـخ عبد الله العليّ المـطوِّع ألحَّ على حضور حفلة غداء عنده كان قد نظَّمها على نطاق واسع في منزلـه، ودعا إليها معارفنا وأصدقـاءَنا بـالكُويت، ثم حضـرت في نفس اليوم نـدوة عقدتهـا جمعية الإصلاح الاجتماعي وُجّهت فيها أكثـر الأسئلة عن الصحوة الإسـلامية المعـاصرة في العـالم وكيف تستمر ويستفـاد منها، وشـارك في الإجابـة عليها

---

(١) من كبار علماء التاريخ، وأصحاب الاختصاص في تاريخ الهند الإسلامي ومُؤلِّفيه، كان رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكراه الإسلامية، وسفير الهند في سورية.

فضيلة الشيخ بدر الحسن القاسمي، العزيز محمد الرابع الحسني الندوي، وقد نشر تقرير عنها في مجلة «المجتمع».

مكثنا يومين في الكويت في ضيافة العزيز السيد إبراهيم الحسني، والعزيز السيد منظر عالم الندوي، ثمَّ توجَّهنا يوم ٨/سبتمبر الساعة الرابعة إلى دِلْهي، حيث نَزَلنا لعدة ساعات ثم غادرناها إلى لكهنؤ، والحمد لله أولاً وآخراً.

الفصل الثاني عشر

السفر إلى الحجاز، المشاركة في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي العامّ الثالث، أعمال ومشاغل ومحاضرات في الحجاز

المؤتمر العام الثالث لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة:

لقد قررت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي الذي لم يزل كاتب هذه السطور عضوها التأسيسي، عقد مؤتمرها العام الثالث في ١١ - ١٥/أكتوبر ١٩٨٧ م الموافق ١٨ - ٢٢ صفر ١٤٠٨ هـ تستعرض فيه الأوضاع والظروف الراهنة في العالم الإسلامي، وتفكر في الجهود والمحاولات والخطط التي تساعد في حل القضايا المعاصرة.

وقد كان موضوع هذا المؤتمر - الذي كان يُعقَد بعد فترة طويلة - تنشيط العمل الإسلامي، والدعوة الإسلامية، ونفخ الروح فيهما في ضوء الواقع المعاصر وإرهاصات المستقبل، وقد بعث الدافع إلى عقد هذا المؤتمر - عدا الحاجة إلى استعراض قضايا العالم الإسلامي وأوضاعه وظروفه المعاصرة من وجهة النظر الإسلامية، واستعراض جهود الرابطة ودورها في التوجيه والمساعدة - الحادث المشؤوم الذي وقع بسبب شغب الإيرانيين وغوغائهم في نفس أيام الحج، أي في اليوم السادس من ذي الحجة وقررت الأمانة العامة للرابطة أن توجِّه الدعوة إلى كبار العلماء والموجّهين والقادة في العالم

الإسلامي وزعماء الحركات والمسؤولين عن المُنظَّمات والمؤسسات الكبيرة في عدد كبير، ليبدوا مشاعرهم وانطباعاتهم حول الحادث وحول مسؤولية الحفاظ على قداسة الحرمين الشريفين واحترامهما، وأداء الحج في جوٍّ من الأمن والسكينة والطمأنينة، المسؤولية التي لا تنفرد بها الحكومة السعودية، بل يشارك في مسؤوليتها جميع البلدان الإسلامية والمسلمون بصفة عامة.

وقد كنت متردِّداً غير جازم بمشاركتي في هذا المؤتمر لانحراف صحّتي ولتجربتي في أكثر المؤتمرات الكبيرة، أنها لا تُنتج ولا تؤدي إلى مُخطَّط عملي يؤخذ بالتطبيق ـ إلّا قليلاً ـ، ولكنّي قررت أخيراً أن أسافر وأشارك في المؤتمر بمناسبة مهمة كهذه تجتمع فيها الشخصيات العلمية الموقرة، وعدد من القادة والزعماء والمسؤولين من البلدان الإسلامية، ولا سيما من المملكة السعودية، وشعرتُ بضرورة ملحّة في هذه الأوضاع الدقيقة المُعقّدة التي ولدتها الثورة الإيرانية والحرب الخليجية، ونظراً إلى الأخطار التي تعرَّضت لها الجزيرة العربية التي تواجه مشكلات عديدة في سبيل الاحتفاظ بمكانتها الدينية القيادية، ووضعها الاقتصادي والاستراتيجي، وهي في حاجة إلى صمود وإلى حركة إيمانية قوية، تحمل روح المغامرة والمخاطرة والاستماتة والتضحية والإيثار والمثابرة ـ شعرت بضرورة مُلحّة إلى أن تُقَدَّم لهذه البلدان ولا سيما السعودية توجيهات صريحة جريئة واقعية، وأن تُبَصَّر بالحقائق والأخطار ـ لم أكن أتوقّعها من المشاركين الآخرين في المؤتمر ـ وأخيراً تقرَّر السفر وأعددت على استعجال محاضرة بعنوان «الجبهات الحاسمة للدعوة الإسلامية في العصر الحاضر ومجالاتها الرئيسية».

وقد كانت الأمانة العامة للرابطة قررت أيضاً أن تعقد جلسات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمجلس الأعلى العالمي للمساجد، والمجمع الفقهي فيها في هذه الفترة، يستطيع أعضاء هذه المجالس المشاركون في المؤتمر أن يحضروها قبل المؤتمر وبعد المؤتمر، وكنت من أعضاء المجالس الثلاثة.

السَّفر إلى مكة المكرمة
ومشاغـل المـؤتمـر:

سـافرت يـوم الجمعة ٩/أكتـوبر ١٩٨٧ م من لكهنؤ إلى دِلْهي بـطائـرة الصباح، يرافقني العزيز الأستاذ محمد الـرابع الحَسَني النـدوي الذي أكثـر ما يـرافقني في رحلاتي إلى الحجـاز وغيرهـا، لمعرفتـه بشخصياتهـا ومُؤسَّساتها وظـروفها وأوضـاعها، وغـادرت دِلْهي عن طريق بـومبائي بـطائـرة المسـاء في ١٠/أكتوبر، وقد كان المهنـدس محمد عثمـان الحيدر آبـادي في المستقبِلين بمـطار الريـاض، وانتهت بوجـوده الإجـراءات بسـرعـة ويُسْـر، وتـوجَّهنـا من الرياض إلى جدة حيث وصلنا السـاعة الثـانية ليـلاً، وكان هنـاك على المطار مضيفنـا في جدة سعـادة محمـد نـور ولي، وبعض أفـراد أسـرتـه، وعـدد من أصدقائنا من مكة المكرمة، والمدينة المنـورة، وكنّا قـد أحرمنـا من بومبـائي، وكان علينا حضور الجلسة الأولى للمؤتمر في قاعـة التضامن الإسـلامي بفندق أنتركونتيننتال بمكة المكـرمة، التي كـان معالي الـدكتور عبـد الله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي يُقدِّم فيها تقرير الأمانـة العامـة، وشاركنـا في الجلسة الأولى للمؤتمر، ثم جئنا إلى مقرّنـا القديم بيت الـدكتور عبـد الله عباس الندوي بشارع المنصور بمكة المكرمة.

وقمنا بأداء العمرة بين العصر والمغرب.

خطابي في موضوع حرمة
الحرمين الشريفين واحترامهما:

بـدأت الجلسة الثـانية للمؤتمر في اليـوم التـالي ١٢/أكتـوبـر المـوافق ١٩/صفر في الساعة الثامنة والنصف صباحـاً، ورأيت أنّ عدداً كبيـراً من قادة وزعمـاء الحركـات والمُنظَّمـات والجمـاعـات الإسـلاميـة والمسؤولين عنهـا، والعلماء ورجال الفكر من مراكش إلى أندونيسيا من بلدان العـالم الإسلامي، ومن أوربـا وأمـريكـا إلى أقصى الشـرق في العـالم الخـارجي، حضـر هـذا المؤتمر، وأنَّ عددهم لا يقل عن سبعمائة مندوب، وعلمت هناك أنه نُشِـر في البطاقة المتعلقة بالبـرامج والمحـاضرات والخـطب لهذا اليـوم خطاب لي في

موضوع حرمة الحرمين الشريفين، وقد سُررت لأهمية هذا الموضوع ومناسبته، لأن أتقدَّم ببعض الكلمات المهمة الضرورية، وقد ألقىٰ عددٌ من المحاضرين كلماتهم في مختلف المواضيع.

وقد شعرتُ في هذا الخطاب ببركةٍ عجيبة، لعلها بركة هذا المكان، وشعرت بنفحاتٍ طيبة منعشة من نفحات الحرم، بدأتُ خطابي بآية من سورة الحج، وهي قوله تعالى:

﴿ ومن يُرِدْ فيه بإلحاد بِظُلمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أليم ﴾[1].

وقد أشرتُ في كلمتي إلى أنَّ من إعجاز القرآن أنه أشار إلى نوعٍ جديد من الهجوم والغزو للبلد الأمين، والبيت العتيق، لم يجرّبه العرب في العصر الجاهلي وفي زمن البعثة، وهو حرب المؤامرات والدعايات والدعوة إلى إثارة الفتن، وأشرتُ في ذلك إلى الاستراتيجية الإيرانية العقائدية والسياسية، التي ظهرت طلائعها في موسم الحج الماضي، وقلت: إنَّ العرب لم يكونوا يعرفون إلّا الحرب السافرة والهجوم العَلَني، والذي كان من نماذجه غزو أبرهة بجيشه مكة، الذي جعله الله هَباءاً منثوراً، أما إرادة الإلحاد بظلم فلم يعرفها العرب، وأنذر بها القرآن الكريم وهدَّد عليها بقوله: ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾، وهو مصير هذه المُخطَّطات الرهيبة الدقيقة التي يفكر فيها المتقنّعون بالإسلام، الهاتفون بقيام دولته ومجده كذباً وزوراً.

وختمتُ الكلمة بقولي: (وعلى غلوة من هذا المكان الشريف، جرى الحوار بين سيد قريش عبد المطلب ورئيس الحبشة أبرهة حين أبدى عزائمه في إهانة البيت والقضاء عليه، واستغرب كيف لم يكلِّمه سيد قريش عن البيت الذي هو مركز دينه وعبادته وسأله ردَّ الإبلِ التي استاقها رجال جيشه، فقال عبد المُطّلب: (أنا رب الإبل، وإن للبيت ربّاً يحميه).

ولا يزال كذلك مهما تغيَّرت الظروف وتجدَّدت الأخطار والمخاوف، فللبيت ربٌّ يحميه في كل زمان.

---

(١) سورة الحج، الآية ٢٥.

جلسات أخرى، ومحاضراتي
وخطابي الأخير:

وجاءت نوبة محاضرتي في اليوم الرابع من المؤتمر يوم الأربعاء ٢١/صفر ١٤٠٨ هـ بعد صلاة المغرب، وكنت قدَّمت فيها نقاطاً معينة مرقمة للعمل على إيقاظ الوعي الإسلامي، وإيجاد الصحوة الإسلامية، في العامة والخاصة من الناس، وتربيتهم، كانت أكثرها مقتطفةً من خطابي السابق الذي نشر بعنوان: «القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع» ولكن أهم جزء من هذا الخطاب كان الجزء الأخير الذي تجشَّمتُ له هذا السفر، والذي كتبته في ضوء الأوضاع المعاصرة والحقائق والأخطار التي تمرُّ بها البلدان العربية، ولا سيما مركز الإسلام ومهبط الوحي، وأورد هنا في ما يلي هذه القطعة من المحاضرة:

(وأخيراً لا آخراً، هو ما تفرضه طبيعة الإسلام وتاريخه المجيد، وتقتضيه الفطرة السلمية، ونفسيّة الإنسان الدائمة والأوضاع السائدة، هو وجود حركة إيمانية دعوية وإيجابية قوية، في العالم الإسلامي تقترن بصفات الرجولة والطموح وعلوّ الهمة وبُعد النظر، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملّكت زمام قيادة البشرية وأصبحت تتحكَّم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية ـ من غير حق ومبرِّر ـ وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة والدعوة القوي، وثقتهم بفضل الإسلام وحاجة البشرية إليه.

ويقترن نشاط هذه الحركة أو الدعوة الإسلامية بروح التضحية والبطولة والجلادة والتقشف والقُدرة على المغامرات ـ إن كان لا بد منها ـ فإنَّ الناس ما زالوا مفطورين على تقدير الإيمان القوي، والاعتزاز بالعقيدة والمبدأ، والاستهانة بالمادة واللذّة والعزّة وروح المخاطرة، وعلى الإجلال لشيء لا يوجد عندهم، فالضعيف مفطورٌ على احترام القوي، والفقير مفطورٌ على احترام الغني، والأمّي مفطور على احترام العالم، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم، ولأنّ تاريخ الإسلام مليءُ بالبطولات والمغامرات، ولأنّ

الواعين والمتتبعين لواقعِ الأمم والبلاد وأصحاب الضمائر الحيّة قد سئموا وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات والقيادات الغربية والشرقية، وأصبحوا يمقتونها ويكرهونها كرهاً شديداً.

إنَّ وجود هذا الفراغ ـ عدم وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية، ومجتمع قوي سليم من أدواء العصر الحديث والحضارة المادّية الراعنة، يقوم على تعاليم الإسلام وقِيَمه ومثله ـ خطرٌ كبير على الوجود الإسلامي، وعلى العقيدة الصحيحة، والحياة الإسلامية، فإنَّ وجود الفراغ في شيء ضروري وفي مصلحة بشرية، شيء غير طبيعي لا يصلح للبقاء طويلاً، وقد يُسبّب ذلك نشوءَ حركةٍ منحرفةٍ زائفةٍ فاسدةِ العقيدة والمنهج، سلبيّةٍ هادمةٍ مدمِّرة.

ويعرف الدارسون لتاريخ الديانات والدعوات والحركات وللتاريخ العام، أنه إذا وُجِدت هذه الحركة المنحرفة واقترن نشاطها ودعاويها بالتضحيات والمغامرات وبالتقشُّف، ومظاهر الزهد وهتافات التحدِّي للطاقات الكبيرة، ومواجهتها لتهديداتها وأخطارها بشجاعة وصمود، ونقدها للأوضاع الفاسدة السائدة في بعض أجزاء العالم الإسلامي التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام وقِيَمه ومُثُله ـ ولو كان في ذلك نصيب كبير من الدعوة، والمظاهرة، ووسائل الإعلام الجبّارة ـ كان له سحر على النفوس خاصة في أوساط المتعلمين المتألِّمين من الواقع المرير الذي تورّطت فيه بعض المجتمعات الإسلامية، سحرٌ لا يبطله وعظ واعظ، أو مقال كاتب، أو استدلال منطقي، أو بحث علمي.

يشهد بذلك تاريخ الخوارج في القرن الإسلامي الأول، وتاريخ الباطنية والفدائيين في القرن السادس والسابع الهجريين، وحكايات حسن بن الصبَّاح وما كان يجري في مركزه «قلعة الموت»، وتاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة باسم الإسلام والإصلاح كذباً وزوراً أحياناً كثيرة، وبعض الحركات والثورات المعاصرة التي استطاعت أن تُجنِّد ألوفاً من الشباب في تحقيق مآربها السلبية وأهدافها الخطيرة، يضحّون بحياتهم في سبيلها متطوّعين مندفعين، وقد استرعت انتباه العالم واستجابت

لهـا بعض أوسـاط المَعنيّين بـاليقـظة الإسـلاميـة والحـاملين لمجـد الإسـلام وعظمته، من غيـر أن ينقدوهـا نقداً بـريئاً جـريئاً في ضـوء النصوص القـرآنية والعقائد الإسلامية، والدراسات المقارنة الأمينة للفِرَق المنتحلة للإسلام.

ويعرف قادة المسلمين ومفكـروهـم أنَّ السَّيل لا يمسكـه إلّا سيل مثله، والتيار لا يدفعه إلّا تيار أقوى منه، وواقع العالم الإسلامي ـ ومعذرةً ـ اليوم في الجمود والاستنامـة والإخلاد إلى الـراحة، وعـدم وجود دعـوة إيمانيـة قويّـة، وروح التضحيـة والفداء في سبيـل العقيدة الصحيحـة، والأهداف الصـالحة، وعدم اكتفائهم العسكري والفكري، نذيرُ خطر دائماً، ومُمهّد الطريق للوقـوع في شبكة هذه الدعوات المنحـرفة الـزائفة، التي يجـد فيها شبـاب المسلمين والمتذمّرون من الأوضاع الحاليـة، طلبتهم ومنشودهم، ومـا يرضي طمـوحهم ويزيد قلقهم، وإن كان ذلك ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يحسبُـهُ الظَّمْـآن ماءاً، حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً، وَوَجَدَ اللّهَ عِنْدَهُ فَوفَّاهُ حسابَهُ ﴾، ولكنها نفسية الإنسان، وتجـربة الأمم، والحقيقـة الأليمة التي يجب أن ينتبـه لها كـل مَعنيّ بحـاضـر الإسـلام ومستقبله، وسلامـة العقيدة وصحـة التفكير، والإيمـان بالله ورسـوله وتعاليمه.

وأختم هذا الحديث القصير بقوله تعالى، الذي خاطب فيـه المجموعـة الصغيرة من الأنصار والمهـاجرين، التي حثَّهـا على المؤاخاة وربط بهـا مصير العالم والإنسانية:

﴿ إلّا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ﴾.

وعقـدت الجلسة الأخيـرة للمؤتمر في يـوم الخميس ٢٢/صفر المـوافق ١٥/أكتـوبـر، وقـرئت فيهـا التـوصيـات والقـرارات التي وضعتهـا اللجـان المتخصصة، وكان فيهـا خطاب مُـوجَّه لسمـاحة الشيـخ عبد العـزيز بن بـاز، وكلمة شكر لمعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف، وأخيراً أسندت كلمة الـوفود النائبة عن المنـدوبين من ممثلي المنظمـات والحركـات في العالم الإسـلامي إلى كـاتب هذه السـطور، وقد ذكَّـرت بخطابي هـذا المشـاركين في المؤتمر

بالمسؤوليات التي تعود عليهم في الحفاظ على مكانة الحَرَمَيْن الشريفين ودعوتهما ورسالتهما، وخلودهما وبقائهما، كما ذكَّرتهم بمسؤولياتهم تجاه الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي في بلدانهم التي جاءوا يمثّلون عنها، وقلت: إنه يجب أن تكون هناك رسالة توديعية لكل مؤتمر ولكل اجتماع للمسلمين يعود بها المؤتمرون إلى بلادهم، وتعتبر الكلمة الرائدة، وإنّ أنسب كلمة وأليق رسالة لهذا المؤتمر هي كلمة سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ الإيمانية التاريخية التي قالها يوم الردّة والتي غيّرت مجرى التاريخ والوقائع، وحفظت للشريعة الإسلامية، والملّة الإبراهيمية مكانتهما وأصالتهما ـ في مرحلة خطيرة دقيقة حيث لم يكن قد مضى على وفاة النبي ﷺ إلاّ أيام ـ لأجيال وقرون، لقد قال الصديق رضي الله عنه: «أينقص الدّين وأنا حيّ؟!».

فيجب عليكم أيها الإخوة المسلمون أن تحملوا هذه الرسالة إلى بلادكم، وتنقشوها على ألواح قلوبكم، وعاهدوا ربكم على أنه لا يمكن أن يتعرض للحرمين الشريفين ما دام فينا بقية من حياة، وما دام المسلمون في العالم الإسلامي أحياء.

وكان الضيوف مسافرين في اليوم نفسه بعد الانتهاء من الجلسة الختامية إلى المدينة المنورة، حيث كان المكث يوماً واحداً، وصلاة الجمعة في المسجد النبوي وحضور حفلة الغداء في قصر أمير المدينة المنورة، فآثرت أن أسافر في وقتٍ آخر، وأمكث أياماً في المدينة المنورة، فلم أشارك الوفد في برامجه.

سافرنا في ٢٥/صفر ـ الموافق ١٨/أكتوبر يوم الأحد إلى المدينة المنورة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وخرجنا الساعة العاشرة صباحاً من مكة المكرمة، واخترنا للسفر طريق الهجرة، الطريق الجديد الذي هو أخصر الطرق إلى المدينة المنورة، وقد أُعدَّ له شارع واسع على الطراز الحديث الراقي، ووضعت في طول الشارع معالم الطريق وبيانات المسافات، وينقسم

الشارع إلى طريقين للذهاب والإياب، مما قلّ به إمكانيات حوادث الطريق، وقد رُكِّبت الأسلاك في جانبي الشارع تحرُّزاً من حوادث الصدام بأي وحش لا سيما الجمل، الذي يُخشَى من خروجه المفاجىء على الشارع والاصطدام به، والواقع أنَّ ما حققته الحكومة السعودية لتأمين سُبُل الحجّاج، وإراحتهم وتسهيلاتهم، من توفير المياه، وإعداد الشوارع الراقية، وحفظ الأنفس، والأموال والأعراض، في سخاء وأريحية بالغة، لا نجد نظيرها في التاريخ عبر عدة قرون.

ويتذكَّر كاتب هذه السطور حجته الأولى عام ١٩٤٧ م الموافق ١٣٦٦ هـ، فلم يكن حينئذ أيّ شارع بين جدة والمدينة المنورة، وكان سوّاقو الحافلات يسيرون بتقدير وتخمين، وكانوا في أيام الحرّ يقضون وقت الظهر، وكانت تشترى تنكات المياه بجدة ومكة، للشُّرب والوضوء والغسل، أما قبل ذلك فكان من أحاديث وعورة الطرق ومشقّاتها وقلّة المياه، وكثرة الأموات بمنى وعرفة، وقلة الأمن في الطرق، وشدة الأخطار وغارات البدو، وسفكهم للدماء ـ القصص التي تروى متواترةً، وتقرأ في مذكرات سفر الحجاج في تلك الحقبة من الزمن باللغة العربية والأردية[1]، وإنَّ من قلة الشكر وكتمان الحق أن لا يعترف بهذه الثورة العظيمة، ومأثرة الحكومة السعودية ـ مع التوجيهات المخلصة، والنقد المخلص، والتمنّيات الطيبة، والآمال المعقودة، والتذكير بالمسؤليات الجسيمة ـ في تأمين البلاد والحجّاج.

وصلنا إلى المدينة المنورة بعد أربع ساعات، وقد وقف السوّاق قليلاً في الطريق للبنزين، وقد كنا قطعنا هذه المسافة في عام ١٩٤٧ م الموافق ١٣٦٦ هـ على الحافلة في يوم وليلتين، وكان أخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني رحمه الله قطع هذه المسافة في رحلة للحج عام ١٩٢٦ م الموافق ١٣٤٤ هـ على الإبل في ثلاثة عشر يوماً.

---

(١) سافر الأمير أحمد حُسين أحد أعيان قرية حسن بور بمديرية مراد آباد عام ١٩٠٤ م للحج، ونزل قبل الوصول إلى مكة المكرمة بمنزل، وإذا بركْبه يفاجئهم البدوُ، فيتحدَّث عن غارتهم =

أيّام بالمدينة المنورة:

نزلنا بالمدينة المنورة ببستان نور ولي وهو منزلنا القديم، وقد كنا قررنا أنَّ هذا السفر للمدينة المنورة ليس إلّا للمسجد النبوي والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلا خطب ولا ندوات، وسوف نعتذر إلى من يطلب ذلك، ونقتصر على مشاركة جلسات مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي، التي قرّر لها هذا العام لبعض المصالح أن تعقد بالمدينة المنورة، وتكون جلسات محدودة لا يشاركها إلّا الأعضاء وهم لا يتجاوزون اثني عشر شخصاً، وقد سافر للحضور في هذه الجلسات من دار العلوم لندوة العلماء الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي»، والأستاذ محمد واضح رشيد الندوي رئيس تحرير جريدة «الرائد»، وقَدِمَ لها صديقنا القديم وزميلنا الفاضل الأديب الكبير محمد ناظم الندوي عميد دار العلوم لندوة العلماء الأسبق، ونائب رئيس الجامعة العبّاسيّة بهاولبور ـ باكستان ـ سابقاً من كراتشي، وكنت قد أخبرت بوصوله إلى جدة.

وصفا لي الوقت في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجواره، وطاب وحلا الجلوس في المسجد النبوي لا سيما بين صلاة المغرب والعشاء ـ كالعادة ـ وشعرت بلذة خاصة في تلاوة القرآن، لا سيما السور التي تكرّر فيها الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم كسورة القصص وسورة الفتح.

وقد كان مندوبو المؤتمر والضيوف من الخارج رجعوا من المدينة

= في مذكّرة رحلته:

(بدأ البدو ينتشرون هنا وهناك ببنادقهم المليئة بالبارود، وانتشر الذُّعر والخوف في سائر الركب، وبدأت تشتدّ الضجّة والأصوات بالطلقات النارية، واستمرت هذه الحال ساعتين، ثم خرجت القوات المسلحة التركية من القلعة، وضربوا بعسكرهم في الأكمة، وأطلقوا النيران على البدو، فكان مشهداً كمشهد معركة ١٨٥٧ م (معركة الثورة الهندية المعروفة)، وقد استولى الذُّعر أولاً في الجاويين، فلم يملكوا أنفسهم، وحزموا أمتعتهم وحملوها على ظهورهم ورؤوسهم، وفروا في خوف وهلع، وتركوا شغادفهم وكثيراً من أمتعتهم). («مذكرة رحلة الحج» ص/ ١٠٥، طبع مطبعة Curzon Steem).

المنورة حسب النظام المقرّر في الضيافة الحكومية، فلعل كثيراً من الأصدقاء بالمدينة المنورة ظنوا أنني كذلك جئت معهم ورجعت ولذلك لم يشعر كثير من الأصدقاء بوجودي بالمدينة المنورة، ثم تسرّب الخَبَر إلى بعضهم فبدأوا يحضرون بمقرّي ما بين العصر والمغرب، فيهم العلماء والأدباء وأساتذة الجامعة الإسلامية، والإخوة الهنود، وطلب مني بعض المتّصلين بالنوادي الأدبية محاضرة حول موضوع إسلامي أدبيّ، ولكني اعتذرت إليهم.

جلسات رابطة الأدب الإسلامي:

بدأت جلسات أمناء «رابطة الأدب الإسلامي» التي استمرّت يومي الأربعاء والخميس ٢٨ - ٢٩/صفر الموافق ٢١ - ٢٢/أكتوبر بمنزل الدكتور عبد الباسط بدر أحد أساتذة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الذي يقع بإحدى نواحي المدينة المنورة، فكانت جلسة في يوم الأربعاء صباحاً، وجلسة بعد العشاء، وعقدت بعد العشاء ليوم الخميس ندوة أدبية شعرية، حضرها عدد من أدباء المدينة المنورة وشعرائها، وقد حضرها الشاعر الإسلامي الكبير عمر بهاء الأميري - الذي هو عضو فخريّ في «رابطة الأدب الإسلامي»، وقدم إلى المدينة المنورة خصيصاً للمشاركة في جلسات رابطة الأدب - وحضرها الشيخ محمد ناظم الندوي وأنشد فيها بعض قصائده، وألقى عمر بهاء الأميري خطاباً قوياً بليغاً في موضوع الأدب الإسلامي.

وسعدنا بأداء صلاة الجمعة في المسجد النبوي الشريف، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ودّعنا المدينة المنورة الحبيبة إلى جدة حيث وصلنا الساعة التاسعة والنصف ليلاً بعد ثلاث ساعات في السفر.

إقامة يوم واحد بجدّة، وخطابي بها:

كانت الإقامة بجدة ليوم واحد يوم الأحد ٢٤/أكتوبر، وقد قضينا هذا اليوم في شواغل كثيرة، كانت معها زيارة ابن أختي العزيز السيد مصباح النبي الحسني بمنزله، وحضور حفلة غداء في بيت صديقنا الوفيّ القديم الشيخ

محسن أحمد باروم صاحب «دار الشروق»، وكنت أتوقع فيها اللقاء بعددٍ من الأصدقاء والأحباب القدامى، وعلمت بعد وصولي إلى جدة أنه أعلن هنا عن محاضرة لي، وانتشر خبرها في البلد، ونَسيتُ أنه قد كان طلب مني إلقاء محاضرة، وكنت أجبت هذا الطلب، بدون تفكير جدّي فيه، وكان في نفس اليوم سفري إلى الرياض الساعة التاسعة والنصف ليلاً، ومن الرياض مباشرة إلى دلهي، ويتطلب ذلك الوصول إلى المطار قبل ساعتين تقريباً، فكان ثقيلاً عليّ هذا البرنامج، وكنت أفكر كيف أحاضر بعد المغرب التي تقام الساعة السادسة، ولكن الأمر كان جِدّاً، وقالوا لي: لا يمكنك الاعتذار الآن، فقد اشتهر في الناس أنك تحاضر الليلة، وأعلن عن المحاضرة في البلد، ولم أكن حقّقت في الأمر مَنِ الداعي والمنظم للاحتفال؟، فقال بعضهم: إنَّ الجهة المنظمة للحفل هي الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وذكر بعضهم غيرها، وعلى كُلّ فقد طمأنني الأصدقاء وقالوا: لا يهمّك الأمر، فإننا نحمل الحوائج إلى المطار قبل وصولك ونكمل جميع الإجراءات، فلو وصلت قبل ساعة من موعد الإقلاع، لا بأس.

وكان المسجد مسجد منصور الشعيبي الذي أعلن عن المحاضرة فيه يقع في طريق المطار، وليس بينه وبين المطار إلّا مسافة ١٠ ـ ٢٠ دقيقة بالسيارة، وتوكلنا على الله، وتوجهنا إلى المسجد قبل المغرب وهو من أوسع المساجد بجدة، وصلنا المسجد قرب أذان المغرب، ورأيته غاصّاً مزدحماً بالناس، وهم في شوق وانتظار، وقد عرَّف إمام المسجد وخطيبه الشيخ عبد الله علي بَصْفَر بخطيب الليلة تعريفاً أجاد فيه، ودلَّ على أنه قد قرأ كتاب «في مسيرة الحياة» أو أنه يعرفُ الخطيبَ معرفةً شخصية مُفصَّلة.

بدأت خطابي بقول الله تعالى:

﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتْمَمْتُ عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

وشعرت بأنَّ مدد الله يأتيني، وتنثال عليَّ المعاني، فذكرت أولاً النعمة العظيمة الجليلة بإكمال هذا الدين، وختم النبوة، والرسالة، فهو من أكبر النعم، والضمان الأكبر للحفاظ على الشريعة الإسلامية وصيانتها ووحدة الأمة، واجتماع كلمتها، ولم ترزق أيّ أمة من الأمم هذه النعمة الجسيمة، ولم تُخاطَب بهذا الإعلان الكبير، وقد قال عالم يهودي ـ متحسِّراً على عدم إدراك اليهود لهذه النعمة ـ لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: آية في كتابكم يا أمير المؤمنين! تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً.

وقد تعرّضت الملل والشرائع السماوية السابقة لعدم وجود هذه النعمة، لمختلف الابتلاءات والمحن وظهر فيها المتنبّؤون في فترات مختلفة، وشغلت عقول علمائها ورجالها وصلاحياتهم وقواهم بالرد عليهم، وتفنيد دعواهم، وقد صرَّح بذلك واعترف به كُتَّاب البحوث العلمية عن اليهودية والنصرانية في دائرة المعارف البريطانية، والموسوعة اليهودية.

ثم قلتُ: إنه ينافي هذا الإعلان بهذه الثقة والمنة، وإبداء الفضل والتكريم لهذه الأمة الأخيرة ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾ إنه ينافي روح هذا الإعلان، وطبيعته ومتطلّباته، وتأثيره العقلي والنفسي، أنَّ من بشّروا بهذا الإعلان، وأكرموا بهذا الفضل وخُلِعَ عليهم هذا اللباس في حَجة الوداع حين وقوفهم فيها بعرفات مع نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم أن يرتدّوا على أعقابهم بعد وفاة نبيهم مباشرةً، ويختاروا طريق الكفر والردة وجحود النعمة.

إنَّ الله عز وجل الذي يعلم الغيب، ويعلم المستقبل كما يعلم الماضي، لم يكن ليعلن هذا الإعلان، ويبشّر بهذه النعمة، لو كان الأمر كذلك، وقد نصَّ القرآن الكريم على كونهم ﴿ يَدْخُلونَ في دينِ اللّه أفواجاً ﴾، ولكنه لم يذكر في أي موضع من كتابه: « يخرجون من دين الله أفراداً » فضلاً عن أن يذكر فيه عن هذه النفوس المؤمنة الطيبة، أنهم

« يخرجون من دين الله أفواجاً »، ومن ذلك يعلم أن قصة ارتداد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً إلاّ فلاناً وفلاناً، ليس إلاّ قصة أملاها الشيطان، وسوَّلتها النفوس المريضة.

وقلت: إنَّ قوله تعالى: ﴿ أكْملتُ لَكُمْ دينَكُم وأتْمَمْتُ عليكم نِعمتي ﴾ يقتضي منّا أيضاً أن نقف عند حدود الله تعالى، ونتمسك بشريعته في الأخلاق والاجتماع، والمدنية والحضارة، فضلاً عن المعتقدات والعبادات، ونحصر أنفسنا في دائرة التعاليم الإسلامية والقيادة القرآنية، وخطوطها ومعالمها الواضحة، ولا يجوز لنا أن نحاكي الغرب اجتماعياً وحضارياً ومدنياً، وأن نكون ظِلاً ملازماً له، فقد رزقنا الله تعالى مع الأسس والمعتقدات والمبادىء، نظاماً كاملاً مستقلاً للمعاملات، وحضارةً متميزةً فريدةً، ومدنيةً صالحةً مستقيمةً، يجب علينا أن نمثِّلها تمثيلاً صادقاً خصوصاً في هذا البلد الذي كان ولا يزال مركزاً للإسلام، منه طلعت شمس الهداية، وانتشر الإسلام، وفيه يستقرُّ وإليه يعود.

وأحمد الله تعالى على أنني أكملتُ خطابي بهدوء، وسِرْنا إلى المطار، ورافقنا العزيز محمد عثمان الحيدر آبادي إلى مطار الرياض حيث ودَّعنا لدلهي، وقد وصلنا دِلْهي صباح اليوم التالي الساعة الثامنة والنصف يوم الأحد.

الفصل الثالث عشر

نَــدْوتــان عِلميّتــان
تأليف كتاب «المُرتضى» وحفلة تدشين في لكهنـؤ

ندوةٌ لرابطة الأدب الإسلامي
بدار العلوم لندوة العلماء:

لقد علمتُ وكنتُ في سفر إلى بـوفال وانـدور، أنَّ مكتب «رابطة الأدب الإسلامي» بندوة العلماء ـ الهند ـ قـرَّر عقد نـدوة أدبية حـول موضـوع «تأثيـر حـركـة الإمــام أحمـد بن عــرفـان الشهيــد على الأدب الأردي»، في ١١ - ١٢/نـوفمبر، وقـد وجّهت بطاقـات الدعـوة إلى علماء الأدب والشعـر والنقـد وأسـاتـذة الجـامعـات، وأهـل العلم والفضـل الـذين لهم مشـاركـة في هـذا الموضوع لحضور الندوة، وكان يُتوَقَّع حضور عدد طيبٍ منهم، وقد كـان وقع اختيار سكرتيـر الرابـطة العزيـز الأستاذ محمـد الرابـع الندوي ومـدير المكتب العزيز عبد النور الندوي على هذا الموضوع، وخطَّطُوا له واجتهـدوا في سبيل تنظيمه.

ووصلت إلى لكهنـؤ قبل يومين من تاريخ انعقاد النـدوة، وبدأت النـدوة صبـاح ١١/نوفمبـر في القاعـة الفسيحـة الجميلة في الـدور الأرضي لمكتبـة العلامة شِبْلي النعماني بدار العلوم ندوة العلماء، وقدَّم سكرتير الرابطة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي تقريراً مُفصَّلاً عن الرابـطة وأعمالهـا ومنجزاتهـا ونطاق جهودها، وتحدَّث بـإيجاز عن مـوضوع النـدوة، ونبَّه إلى بعض معـالـم تأثير حركة الإمام الشهيد على الأدب الأردي.

ثم أُلقيتُ كلمة الرئاسة، وقد ذكرت فيها ما يوجد بين الحركة واللغة من الصلة القوية الدائمة، وأنّ أيَّ حركة بنّاءة، أو دعوة إصلاحية جماهيرية، أو أي ثورة دينية اجتماعية أو سياسية، لا يمكن أن تستغني عن استخدام اللغة؛ فإنها أكبر سلاحها، وأسهل وسيلةٍ إلى خطاب العامة والتوصُّل إلى عقولهم وقلوبهم، كذلك اللغة إذا رافقت حركةً قويةً وسارت في ركبها، فإنها تقطع أحياناً مسافة قرون لسعتها ورحابة صدرها ورُقيّها وازدهارها، وتأثيرها وقوتها في أعوام وشهور، وتستفيد منها ما لا تستفيد من رعاية الحكومات وإشراف المؤسسات التعليمية وعنايتها بها، ولم تقم ثورة في أي بقعة في العالم بدون استخدام اللغة والأدب، والثورة العالمية البنّاءة التي قام بها الإسلام، استخدم اللغة والأدب كسلاح في دعوته ونشاطاته، استخداماً لم تستخدمه أيّ ديانة أو حركة، فقد كان أفضل دعاة الإسلام وأقوى ممثّليه، من ملكوا ناصِيَةَ البيان، وبرَّزوا في الخطابة والكتابة في لغته.

ومعلوم أن اللغة لا توضع باتفاقية بين الأدباء، أو مُخطَّط أو مؤامرة، ولا تزدهر ولا تتقدم، بل لا بد لها من أربعة عناصر واضحة: الضرورة، العاطفة، الاندفاع، والنفع والفائدة، ولقد كان للمشايخ المُربِّين والدعاة في الهند دورٌ كبير في إيجاد اللغة الأردية ورقيّها وتوسّعها، وقد ضرب لذلك مؤلف «كُل رعنا»[1] (تاريخ الشعراء والأدباء الأرديّين) أمثلة عديدة من كلمات الصوفية والدُعاة والمصلحين ـ الذين يهتم بحفظ كلماتهم بنصّها وفصّها، ما لا يهتم بكلمات غيرهم ـ ولم يكن قصد هؤلاء الدعاة المصلحين إلّا إقناع مُخاطَبهم، والتأثير في قلبه، لا التشدّق بنبوغهم في اللغة الأردية أو الفارسية، أو إثبات علمهم وفضلهم، ولذلك فقد مسَّت الحاجة إلى لغة عامة سهلة واضحة، بعيدةٍ عن الألفاظ العربية والفارسية الغريبة، يتكلم بها بين الناس ويفهمها العامي والأُمّي، وهكذا تشكَّلت وتكوَّنت اللغة التي سميت بعد تقدمها ورقيها

(١) من تأليف والد كاتب هذه السطور العلاّمة السيد عبد الحي الحسني، في تاريخ الشعر والشعراء في الهند في اللغة الأردية، طبع دار المصنفين بأعظم كَره، وقد صدرت لها أربع طبعات، والخامسة على وشك الصدور.

وسعتها باللغة الأُردية، ونجد نواتهـا تتكون في القـرن التاسـع الهجري، وفي منطقة كجرات البعيدة عن مركز السُلطة.

ويأتي بعد دعوة إصلاحية، دورُ حركةٍ قوية، فإنهـا تحتاج إلى لغـة تقوم واسطةً بين أهداف الحركة والقائمين عليها، وبين العـامة من النـاس، وتبعث العواطف الجيّاشة فيهم، وتنفخ فيهم روح الولاء للحركة، بل تصيِّـرهم جنوداً متـطوّعين، ومجاهـدين مستميتين، وإلاّ فـإنَّ تلك الحـركـة تنحصـر في ذاتِ نفسها، وفي نطاق علميّ وفكريّ، وتقتصر على طبقة خاصة مُعيّنة.

وقد قام الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ورفقته وأصحابه باستخدام هـذه اللغة الأردية السهلة في الخُطَب الدينيـة الإصلاحيـة، وقامـوا بعملٍ ثـوريٍ عظيم عن طريق هذه الخطب والكتيبات والرسائل السهلة السَّلِسَة في تصحيح العقائد، وإصلاح المجتمع وإزالة المنكرات والبدع، بدأ عهداً جديـداً وصنع تـاريخاً مجيـداً، يقلُّ نـظيره في التـاريـخ الإسـلامي وفي تـاريـخ الـدعـوات والحـركـات الإصـلاحيـة، حتى أنـه لم يفضـل الشعـر الأردي الحمـاسي أن يُستَخدَم في المعارك الجهادية، وإشعال عواطف الشهادة.

ويمكن أن يذكر في هذا الصدد للمثال كتاب «تقـوية الإيمـان» للعلامـة الشيخ إسماعيل الشهيد، و «نصيحة المسلمين» للشيخ خُـرَّم علي البلّهوري، وقصيدته الجهـاديـة التـي كـانت تُنشَد عنـد تسويـة الصفوف للجهـاد، وكتب الشيخ كرامت علي الجونفوري في موضـوع العقائـد والأحكام الشـرعية، التي استفاد منها، ليس مئات الآلاف، بل مئات الملايين من النـاس، وتأثّـرت بها حياتهم، ووقع تغيُّر كبير فيها.

وقد كانت هذه الواقعيـة، ومعرفـة الفطرة البشـرية، وعـاطفة الإصـلاح والـدعوة حملت ـ قبـل نشوء هـذه الحركـة ـ الإمامَ وليّ الله الـدهلوي، وابنيه الجليلين الشيخ عبد القـادر، والشيخ رفيـع الدين على تـرجمة معـاني القرآن الكريم باللغة الأردية، وإني أستطيع أن أقـول بناءً على الـدراسات المقـارنة، ومعـرفتي بعدّة لغـات: إنه ليس هنـاك ترجمـة لمعاني القـرآن الكريم، أجـود

وأتقن وأكثر تأثيراً من هذه الترجمة، وقد نشرت هذه الترجمة أولاً بعناية بعض الناشرين من أصحاب هذه الحركة، وانتشرت في بيوت المسلمين، وعمَّت.

وقد استخدمت حركة تحرير الهند أيضاً الكلمات الأردية السهلة الرشيقة الحلوة بكل سخاء، ناسيةً العصبية الدينية واللغوية والحضارية، ولذلك ترى هتاف «زنده باد»[1]، لا يزال له سيطرته، ولم يعافه أحد، وهكذا ما تجد من التأثير والجاذبية والمعنوية في لفظة «شهيد»، لا تجد لفظة تعادلها في أي لغة محلية أخرى، والحاجة ماسَّة إلى الدراسات العلمية في هذا الموضوع، وأن تبرز الجوانب الفنية اللغوية والأدبية لحركة الإمام أحمد ابن عرفان الشهيد ودعوته، وكتابات أصحابه ورفقته، ومؤلفاتهم الأردية، وتأثيرها البعيد على اللغة الأردية والأدب الأردي.

وقد حضر رغمَ ضِيق الوقت، وانصراف المنظّمين للندوة إلى أعمال مختلفة متنوّعة، عدد وجيه من أساتذة الجامعات، والمسؤولين عن الأقسام الدينية واللغوية، وأقسام اللغة العربية والفارسية فيها بصفة خاصة، والأدباء وأصحاب الأقلام، والفضلاء الباحثين، وكان منهم ممن طبَّق صيتهم الهند كلها كالأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن رئيس تحرير مجلة «معارف» الأردية، ومدير دار المصنفين، والسيد أحمد الفاروقي (رئيس القسم الأردي بجامعة دِلْهي سابقاً) الذي ألَّف رسالة مستقلة في هذا الموضوع بعنوان: «الأدب الوهابي في اللغة الأردية»، وكان ألقاها محاضرة في مؤتمر عالمي للمستشرقين عام ١٩٦٧ م بالولايات المتحدة الأمريكية.

وشارك الندوة ممثلو ثمانية من الجامعات الحكومية المعروفة - جامعات: لكهنؤ، وإلّه أباد، وعليكراه، وبنارس، ودِلْهي، وجامعة نهرو، والجامعة المليَّة الإسلامية وجامعة كشمير - من كبار أساتذتها، ورؤساء أقسامها، وأصحاب الكرسيّ فيها، وقد كان أكثرهم من الأساتذة الندويين، وقد مثَّلَ جامعة كشمير نائب رئيسها الدكتور مشير الحق الندوي، وكان أكثر

---

(١) معناه: (لِيَحيَى).

هؤلاء الندويين قد أعدّوا بحوثهم ومحاضراتهم في الموضوع المُحدَّد للندوة، وقد اختار كثير منهم كتاب «تقوية الإيمان» للشيخ إسماعيل الشهيد لدراسة تأثيره على الأدب الأردي، وشارك في إلقاء البحوث الدكتور عبد الله عباس الندوي الأستاذ بجامعة أم القرى سابقاً، والمشرف التعليمي بدار العلوم لندوة العلماء حالياً، وقد أبدى عدد من الضيوف والأساتذة الفضلاء انطباعهم عن الندوة، وشعورهم بالحاجة إلى عقد ندوة كبيرة على النطاق العالمي، في موضوع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وأن يقام قسم خاص مستقل بحركة الإمام الشهيد بدار العلوم لندوة العلماء.

وكان هناك بجانب هذه الندوة معرض للكتب المطبوعة والمخطوطة حول حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وحركته، في الدور الثاني من المكتبة، التي توجد أكبر مجموعة منها في مكتبة ندوة العلماء، لقربها من راي بريلي موطن الإمام، وطونك أحد مراكز حركته الجهادية، ولمساعدة جامعة بنْجاب بلاهور بالكتب القيمة، وقد ازدان هذا المعرض بالرسائل والوثائق الأُسرية، ورسائل الإمام الشهيد الموقَّعة بخطه التي تحتفظ بها مكتبة ندوة العلماء ويعزُّ وجودها بهذا العدد في أيِّ مكانٍ آخر، وقد زارها المهتمون بهذه الآثار ونوادر التراث والمخطوطات، واعترفوا بأهميتها وقيمتها، وزادهم هذا المعرض شعوراً بضرورة عقد ندوة على مستوى عالمي حول الإمام الشهيد.

وقد كان بعض البحوث والمحاضرات في هذا الموضوع تُشعر بأنَّ حركةَ الإمام الشهيد كانت حركة تحرير للبلاد فحسب، وكانت بعض البحوث الأخرى والخطب المرتَجلة، تفيد أنَّ هذه الحركة كانت محاولة جهادية محلية ضد رَنْجيت سِنْغ، حاكم بنجاب، الذي أخذ بخناق المسلمين في بنجاب، وحوَّلَ حياتهم جحيماً لا يطاق ـ وكان ذلك بسبب خطأ في الفهم أو قصور في الاطلاع، فقام الشيخ محمد عارف الندوي، وألقى خطاباً ردَّ فيه على هذه الأخطاء وألقىٰ الضوء على شمول الحركة وغاياتها الأساسية الجليلة.

وقد شعر كاتب هذه السطور أيضاً بالحاجة في الجلسة الأخيرة للندوة، أن يبيِّن في ضوء رسائل الإمام الشهيد ومقتطفاتها، أنَّ غايته لم تكن إلّا ابتغاء مرضاة الله تعالى، وإحياءَ فريضة الجهاد الإسلامي، وتنفيذ الشريعة الإسلامية، وإقامة مجتمع إسلامي حُرّ صالحٍ على أساسها، وتأسيس دولة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة، فقد تكفَّلَ الإمام نفسه ببيان ذلك في عدد من رسائله، أنه يقصد إلى تحرير هذه البلاد من الإنكليز المستعمرين الذين استولوا على البلاد وملكوا الزمام، ثم إقامة حكومة إسلاميّة راشدة من أقصى الهند إلى أفغانستان وتُركستان.

وقد قلت في خطابي أيضاً: أنني شاركت في كثير من الندوات داخل البلاد وخارجها، ولكن ما شعرت به في هذه الندوة من نفحات إيمانية، وروائح دينية مُنعشة، لم أشعر به في أيِّ ندوةٍ أخرى، ولعلَّها بانتسابها إلى تلك الشخصية الأثيرة، أحدِ عباد اللّهِ المخلصين الذي اصطفاه الله لعملِ التجديد في الهند المُسلِمة، والذي باسمه تُعقَد هذه الندوة.

حادث وفاة السيد صباح الدين عبد الرحمن:

لقد قدم السيد صباح الدين عبد الرحمن رئيس تحرير مجلة «معارف» إلى لكهنؤ في ١٠/نوفمبر للمشاركة في الندوة الأدبية حول الإمام الشهيد، لعلاقته بالموضوع، وحبِّه لهذه الشخصية، وذوقه الأدبي والتاريخي، وميوله الإسلامية، وكان عليه أن يأتي لكهنؤ في ١٩/نوفمبر لمشاركة الجلسة الإدارية لدار المصنفين وتنظيمها، ولكنه سبق إلى ندوة العلماء لحضور جلسات الندوة، وقد رَأس إحدى جلساتها، وألقىٰ خطاباً مُرتَجَلاً مؤثِّراً يشتمل على معلومات قيّمة، وكان بشوشاً منبسطاً مطمئنَّ البال، وكان يجلس معنا بعد العصر والعشاء في المضيف الذي ننزل فيه، فيتمتَّع المجلس بعلمه وأدبه، ونكته ودراسته التاريخية الواسعة، ومعلوماته المتنوّعة فيحول المجلس إلى بستان ناضر، ويضع من الكلام باقة زهور.

واضطرتني بعض الحوائج للسفر إلى راي بريلي في ١٧/نوفمبر، وفي

اليوم التالي ١٨/نوفمبر فوجئتُ بأنَّ السيد صباح الدين عبد الرحمن توفي إثر حادث صدام، فكان هذا الخبر كصاعقةٍ نزلت علىٰ قلبي وأعصابي وتفكيري، وهدَّت نفسي، فكنت قد تركته أمس هَشَّاً بشّاً منبسطاً صحيحاً، ولا سبيل إلى التسليم بهذا الخبر لو لم يكن الإشعار بواسطة يوثق بها وتصدّق، وكنت من قبل عازماً على العودة إلى لكهنؤ في اليوم التالي ١٩/نوفمبر لحضور الجلسة الإدارية لدار المصنفين، وكان يُرجَى قدوم الضيوف من الخارج في الليلة، ويعلم الله كيف قطعنا المسافة ما بين راي بريلي ولكهنؤ، ودخلت سيارتي في محيط دار العلوم، فإذا بي رأيته جنازةً محمولة على أكتاف الرجال إلى ساحة المسجد للصلاةِ عليها، وقد عهد بالصلاة عليه إلى كاتب هذه السطور، فصلَّينا المغرب، ثم قمت بأداءِ هذا الواجب.

وودَّعنا جنازته بعد صلاة العشاء على شاحنة إلى أعظم كره، وشيَّعَ عددٌ من أساتذة الدار وطلابها فقيد العلم والشَّرف، إلى مثواه الأخير الذي قُدّر له أن يكون مضجعه ومرقده الأخير، ودفن حسب أمنيّته ووصيته عند قبر العلامة شِبْلي النُّعماني.

ندوة علمية حول شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية
في الجامعة السلفية، ببنارس:

أعلن من قِبَل الجامعة السلفية ببنارس، أنها ستعقد في ٢٢ - ٢٣ - ٢٤/نوفمبر ١٩٨٧ م، ندوة علمية حول شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى، وقد وجهت الدعوة بصفة خاصة إلى كاتب هذه السطور لصلته الخاصة بهذا الموضوع واهتمامه به[١]، ولأهميّة الموضوع، وقابلني وفد من الجامعة أيضاً بهذا الصدد، كما حضر الأستاذ مقتدَى حسن الأزهري أحد

---

(١) فقد صدر من قلم المؤلف كتاب «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» وهو الجزء الثاني من سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، صدرت له طبعات بالأردية والإنكليزية، والعربية، وصدرت الطبعة العربية حديثاً من دار القلم، بعدد مائة ألف نسخة.

أساتذة الجامعة الفضلاء للتأكيد والتذكير بالدعوة، وكان قد حضر الندوة الأدبية حول تأثير حركة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد على اللغة الأردية، وكنت قد أعددت على عجل مقالاً باللغة العربية بعنوان: «مأثرة شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الكبرى، التركيز على أن النُبوَّة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة».

ولم يستطع الأساتذة العرب الذين كنت أعددتُ محاضرتي مراعاةً لهم بالعربية الحضور في هذه الندوة لبعض الموانع القانونية كما كان متوقّعاً، إلاّ أن حضور معالي الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي نائب رئيس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كان سدّاً إلى حد كبير لهذا الفراغ، وللمؤلف صلات قريبة طيبة به، فالدكتور التركي أحد أعضاء رابطة العالم الإسلامي، والمركز الإسلامي بأكسفورد، الأمر الذي يوفِّر لنا الفرصَ للاجتماع به، وتبادل الآراء معه في مختلف المناسبات، وقد سافرتُ على دعوته إلى الرياض بعض الأحيان.

وإلى القارىء مقتطف صغير من هذه المحاضرة، فقد قلتُ بعدما نوهّتُ بدور شيخ الإسلام الإسلامي الرائع، وجمعه لأشتات الفضائل الهامة، والعبقريات العلمية، والمآثر الإصلاحية التجديدية:

(وتلك كلها مآثر علمية، فكرية، بطولية، لا يستهان بقيمتها، ولا يُقلَّل من شأنها، ولا تتيسر ولا تتوفر إلاّ لمن أراد الله به الخير لهذه الأمة، وقيّضه للقيام بمُهمّة الإصلاح والتجديد.

ولكن مأثرته الكبرى الرئيسية في اعتقادي وفي ضوء دراساتي المقارنة، واستعراضي لتاريخ الفكر الديني، وما قام عليه من مجتمعات ومدارس، وحركات علمية وفكرية وتأليفية، هي تركيزه على حاجة البشرية إلى النُبوّة، والتأكيد على أنها الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة، وهو المدخل الرئيسي الكبير إلى تحديد مكانة شيخ الإسلام التحقيقية والتجديدية، ومنزلته بين علماء الإسلام والدعاة والمصلحين، وذلك يحتاج

إلى شيء من الشرح والإفاضة في الموضوع، وبيان «الخَلْفِيَّات» التي لا يمكن الشعور الحقيقي بمَدى أهميّة هذه المأثرة وقيمتها، بدون الاطلاع عليها. و «بضدّها تتبيّن الأشياء».

ثم عرضت نماذج وأمثلة من بحوث شيخ الإسلام العلمية وكتاباته القيّمة في نقد فلاسفة اليونان، وأقطاب الفلسفة الإغريقية، وكلامهم في الإلهيات، وما هو وراء الطبيعة، والحواسّ والعقل، وتشدّقهم في ذلك على غير بيّنة وبصيرة وهدايةٍ من الله، والاعتماد على الرسل والنبوءات.

ثم أشرت إلى توارد علمي والتقاء فكري عقائدي عجيب، قلت: (من الموافقات العجيبة والالتقاءات العلمية الدعوية العقائدية التي تثير العجب والإعجاب، ما يجده القارىء المتتبّع، من وحدة التفكر والتوصل إلى نتيجة واحدة، والتركيز عليها، والإلحاح في سبيلها في رسائل مصلح آخر).

فقلت: (أثبت الإمام السرهندي ـ بدوره ـ عجز العقل والكشف، وقصورهما في إدراك الأمور الغيبية، والعلوم التي هي وراء طَوْر العقل، والمعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته، وإحراز العلم الذي لا يشوبه شك، والحقائق الثابتة القطعية التي لا تخالجها شبهة ـ بحتمية ويقين، وأنَّ النتائج المُكتَسَبة بهما لا تخلو من الشك والريبة، والخطأ والزلّة، وسوء الفهم والتحريف، ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذات الله سبحانه وصفاته إلاّ عن طريق الأنبياء والمرسلين، وإذا كان العقل وراء طور الحسّ، فإنَّ النُبوَّة وراء طَوْر العقل، ولا سبيل إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه وتحميده وتمجيده إلاّ بالنبوة، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم)[1].

ثم ختمتُ ذلك بقولي: (ومن عجيب المُصادفات والدلائل على صحة نتيجة البحث العلمي الخالص، أن الفيلسوف الألماني الشهير أمانويل كانت

---

(١) ليراجع للتفصيل والاطلاع على نصوص الموضوع «رسائل الإمام السرهندي» أو كتاب صاحب المحاضرة «الإمام السرهندي» طبع دار القلم ـ الكويت.

(Emanuel Kant, 1729-1804) بـدأ ـ بعـد قـرابـة قـرنين من وفـاة الإمـام السـرهندي ـ البحث المـوضـوعي، والتحقيق العلمي في صـلاحيـة العقـل، للتجرُّد والتحرُّر عن البيئة وعوامـل الوراثـة، والعادات والمُعتَقـدات، والحكم الفاصل في قضيّة ما من القضـايا، إنـه عيَّن حدود العقـل ودوائره في شجـاعة ووضـوح، واستبعد وجـود العقل الخـالص، ونشر كتـابه الخـطير «نقـد العقل الخـالص» (Critique of Pure Reason) عـام ١٧٨١ م الـذي أحـدث هـزةً واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية).

وقد ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة الافتتاحية صباحاً باللغـة العربيـة بعد تمهيد وتعريف موجز بالمـوضوع بـاللغة الأرديـة، وكان قـد أعدّ تـرجمتها الأردية الشيخ نذر الحفيظ الندوي، الذي ألقاها في جلسة البحوث بالمساء.

وقد ألقيت خطاباً عاماً على طلب من المنظِّمين للحفـل وأهل البلد في الاحتفال العام بـالليل حضـره عدد كبيـر من أهل البلد، وقـد أكّدتُ في هـذا الخطاب على ضرورة مظاهرة المسلمين ـ للعيش في هذه البلاد بحُرّيةٍ وكرامةٍ والحفاظ على شخصيتهم الإسلامية وخدمة هذه البلاد والدفاع عنها ـ بسيرتهم النزيهة وأخلاقهم العالية ومميِّزات حياتهم الاجتماعية، وأن يوجهـوا عن طريق ذلك أكثرية هذه البلاد إلى دراسة الإسلام، والقرآن الكريم والسنة المُـطهَّرة، واحترام الأمة الإسلامية والاعتراف بفضلها ودورها، وأن يحاولوا جهدهم لإيجاد الجوِّ المتّزن الهادىء والحفاظ على الوضع العادي المعتدل، وأن يحترزوا كل الاحتـراز من الإثارة وإشعـال الفتنة، ومن كـل ما يؤدّي إلى الصـدام والعـداء ويستثـيـر العواطف الهـوجـاء، لتكـون مؤسسات الأمـة التعليميـة ومجـامعهـا العلمية، ومساجـدها في مـأمن وسلام، ويمكن عقـد مثل هـذه الاجتماعـات والنَّدوات، والمؤتمرات، في جو هادىء آمن نشاهد نموذجاً منه يومنا هذا فـإنه لو لم يبق هذا الجوّ الهادىء الآمن، والاحتـرام المتبادل والثقـة المشتركـة بين المـواطنين، والتعـايش السِّلمي، فـلا ضمـان لبقـاء أي شيء، ولا ثقـة بـأيٍّ مؤسسةٍ أو حركةٍ إصلاحيـة، أو دعوة خلقيـة أو ثروة علميـة، بل سـوف يُقضَى على كل شيء ـ لا سمح الله ـ له قيمته وفائدته.

وأحمد الله عز وجل على أن الناس استمعوا إلى الكلمة، ووجدت مكاناً في قلوبهم وموقفاً طيّباً من نفوسهم.

نبأ شهادة الرئيس المسلم محمد ضياء الحق:

أذاعت وسائل الإعلام العالمية بصفة عامة، وإذاعة باكستان، بصفة خاصة، نبأ استشهاد الرئيس المسلم، القائد العظيم الجنرال محمد ضياء الحق رئيس حكومة باكستان ليلاً في ١٧/أغسطس ١٩٨٨ م، في حادث انفجار طائرة باكستانية كانت تحمل الرئيس الباكستاني مع عشرة من كبار الضُبّاط في الجيش الباكستاني، وسفير أمريكا في باكستان، وقد أخفى عني أصدقائي وجيراني هذا النبأ المُفْزِع المؤلم، إشفاقاً عليّ، ولما يعلمون من تقديري للرئيس الشهيد، والشعور بالحاجة إلى بقائه في مركزه الرئيسي القيادي، ليتمّ عمله في تطبيق النظام الإسلامي الحكومي، وتنفيذ القانون الإسلامي، والمحافظة على سلامة البلاد وكرامتها، وضرب المثل العملي المثالي لقادة الأقطار الإسلامية وحكّامها، وكانوا يعرفون أنني إذا بلغني هذا النبأ الأليم، هدَّ أعصابي ولم ينطبق لي جفن ولم يهدأ لي بال.

ولما انتبهت كعادتي كل ليلة، أخبرني أحد الزملاء بهذا النبأ المُفزع، ففزعت له كل فزع، وحسبت له كلَ حساب، ومَلَك عليَّ أعصابي حتى لم أستطع أن أطالع الصحف أو أسمع الإذاعات مدة أسبوعين، أو أكثر، والذي شغل بالي أكثر، هو أنني خفت أن يكون ذلك حادث اغتيال أو نتيجة مؤامرة سياسية، أو حزبية إجرامية من نفس أبناء البلاد، أو منظّمة من منظّماتها السرّية، فيكون ذلك غايةً في نُكران الجميل والكفران بنعمة الله، وإضاعة فرصة قلَّما يجود بها الزمان، ولا شكّ أنَّ مثل هذا العمل الإجرامي الكنود يكون سبباً لنقمة من الله وحرمانٍ من نصره، ويكون فيه توريط البلاد في محنة قد يطول أمدها، ويصعب التخلّص منها، في غير حاجة واضطرار، وحسن قصد وبحث عن الأفضل الأمثل.

إنها قصّة نُكران للجميل، تكرّرت في التاريخ الإسلامي، وشوهدت

في عدد من الأقطار الإسلامية، واستعجالٍ للأمر وأنانيات، وشهوة للحكم، تتغاضىٰ عن المصلحة الإسلامية العامة، وعما يعرّض البلاد للاضطراب والفوضى، وإحباط المساعي في سبيل تطبيق المنهج الإسلامي السياسي والتشريعي في البلاد، وغضّ البصر عما يحيط بهذه الدولة الإسلامية الوليدة - المحاطة بالدول المنافسة الحاقدة، التي لم تسغ قيام هذه الدولة المسلمة يوماً من الأيام، والتي لاتزال غُصَّة في حلقوم بلاد الشيوعية والعداء للإسلام والمسلمين، وشوكة في جنبها - من الأخطار والتهديدات، وانتهاز الفرص للتخلّص منها أو إضعافها[1].

ندوةٌ علميةٌ حول المدائح النبوية:

عَقَد مكتب رابطة الأدب الإسلامي في الهند، ندوةً علمية عالمية حول المدائح النبوية في رحاب جامعة كاشف العلوم الواقعة في جامع أورنك آباد في ٢٥ - ٢٧ من صفر سنة ١٤٠٩ هـ (٧ - ٩/من أكتوبر ١٩٨٨ م) فكانت مناسبة رائعةً فريدة من نوعها، لأهميّة الموضوع وتأثيره على القلوب، وإقبال الناس عليه، واهتمام الصحف ووكالات الأنباء والإذاعة به، وحضور عدد وجيه من العلماء والأدباء والشعراء والدُّعاة، من مختلف أنحاء الهند ومن خارجها، وجوّ الهدوء والسكينة الذي كان يسود طيلة فترة انعقاد الاجتماعات للندوة.

وقد أشرتُ في كلمتي الافتتاحية إلى أهميّة الندوة، فقلتُ: إنَّ الأمور تُعرَف بنسبتها، وهي ترتفع وتنمو بالنسبة، وتنحطّ وتتضاءل بالنسبة، وللنّسبة مكانةٌ عالية وأهميّةٌ في العلم، والأدب، والفن، والسياسة، في كل مجال من مجالات الحياة، ترتفع قيمة الكلمة، وقيمة الاجتماع، وقيمة الفكر بنسبته، وذكرت قصة عبد المطّلب الذي ذهب إلى أبرهة يطلب منه تسريح إبله، فتعجَّب أبرهة من اهتمامه بالإبل، وعدم اهتمامه بالبيت الذي كان يهدّده فلما سأله عن ذلك؟ قال عبد المطّلب: إنَّ للبيت ربّاً يحميه، فأشار بقوله إلى

(١) لم يتحقق إلى وقت كتابة هذه السطور أن هذا الحادث كان نتيجة اغتيال إجرامي أو مؤامرة داخلية، ولكن الذي ترجّحه الجهات الرسمية الباكستانية أنه كان عملاً تخريبياً مقصوداً وخُطّة مدبَّرة.

نسبة البيت العالية، وكان واثقاً بأنَّ هذه النسبة تكفي لوقاية البيت، كذلك خرق الملوك في التاريخ رسائلَ الملوك والرؤساء، وتكرَّر ذلك في التاريخ وكثر، ولكن خرقَ رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بيد كسرى كان سبباً لكسر شوكة كسرى، وتمزُّق مملكته، لأنَّ نسبة هذه الرسالة كانت ترجع إلى رسول الله ﷺ.

وأوضحتُ أنَّ بقاءَ الإسلام في هذه البلاد، يرجع إلى حدٍّ كبير إلى الارتباط بذات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ أرض هذه البلاد أكّالة الأمم، وقد ذابت فيها ديانات وثقافات، ولكن الإسلام بقي فيها رغم العواصف الهوجاء، واحتفظ بشخصيته وقوّته، وملامحه الذاتية، وسِرُّ بقائه في هذه البلاد يرجع إلى عاطفتها وشعورها الإسلامي، وارتباطها بذات الرسول ﷺ وحبّها الغامر له، وقد مثّل أدباءُ الهند وشعراؤها دوراً عظيماً في دعم هذه الصلة بذاتِ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وتحدَّثَ في الحفلة الافتتاحية الدكتور عدنان علي رضا النحوي، فأكّد أهمية الانتماء الإسلامي، وإيجاد الرؤية الإسلامية إزاء القضايا في العالم الإسلامي، كفلسطين، وأفغانستان، وصرَّح الأستاذ أحمد حسن بريغش في كلمته أنَّ الأدباء أغفلوا المدائح النبوية وحطّوا من شأنها، لأنَّهم كانوا ينتمون إلى الكتلة العلمانية، وقد كانت المدائح النبوية تحمل كل عنصر من عناصر التأثير الأولى، بل تفوق النماذج الأدبية الأخرى في التأثير على النفوس، وأشار إلى عمل أحمد محرَّم الذي ألَّف إلياذته الإسلامية المعروفة بمجد الإسلام بطلب الأستاذ مُحِبّ الدين الخطيب.

قدَّم الأستاذ رياض الدين الفاروقي مدير جامعة كاشف العلوم كلمة نيابة عن رئيس لجنة الاستقبال سعادة غلام محمد بتني[1]، وقدّم الأستاذ محمد

(١) صاحب شركة النقل والمواصلات الكبيرة في بمبائي، وله مكتب ومنزل في أورنك آباد، وكاتب السطور ينزل ضيفاً عليه في بمبائي دائماً، كما جاءت الإشارة إليه مراراً في هذا الكتاب.

الرابع الندوي سكرتير رابطة الأدب الإسلامي للمنطقة غير العربية تقريراً عن نشاطات الرابطة.

وكان موضوع مقالي الذي أعددتُه لهذه المناسبة الكريمة الحبيبة «جوانبُ السيرة المُضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية» نوَّهت فيه بما جاء في هذه المدائح من الحديث عن فضل الإسلام على الإنسانية، وآثار البعثة النبويّة ومظاهرها في العقيدة والأخلاق، والحضارة والعلوم وواقع العالم البشري، احتوى عليها المديح النبوي في الشعر الفارسي والأردي، وما له من قيمة ومكانة في مكتبة السيرة النبوية، وأثرٍ عميقٍ في الشعور والذوق عند أبناء هذه البلاد، البعيدة عن مهد الإسلام ومبعث الرسول عليه الصلاة والسلام.

ونبّهتُ أخيراً على أنَّه قد تورَّطَ عددٌ من أصحاب المدائح في بعض المزالق بسبب الاتجاه إلى الغُلوّ والمبالغة في الشعر، وتخطَّوا حدودَ العقيدة الصحيحة المُؤسَّسة على التوحيد الخالص، وأبدىٰ العارفون لروح الدين والغيارىٰ على الإسلام استنكارهم لذلك، واعتبروه شيئاً دخيلاً طارئاً على المديح النبوي، وأشادوا بالتوحيد الخالص في شعر المديح النبوي، وعرضتُ بعض نماذجه في الشعر الأردي.

كانت النسبة العالية للحضور تثير أهميّة هذا الموضوع في نفوس المسلمين، فقد حضر للاشتراك في الندوة وفد من باكستان، على رأسه وفي مقدّمته فضيلة الشيخ محمد أشرف السُليماني رئيس القسم العربي والإسلامي في جامعة بشاور سابقاً، ومن تلاميذ العلاّمة السيد سليمان الندوي الروحيين وخلفائه وهو مريض مقعد، لا يستطيع أن يتحرَّك ويمشي، يحمله تلاميذه على أكتافهم، وقد تحمَّلَ صعوبة السفر الطويل، إجلالاً للموضوع، وتشريفاً للندوة، والقائمين عليها، وقَدِمَ سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال، والأستاذ محمد محمود الحافظ، نيابة عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، والدكتور عدنان النحوي، والأستاذ محمد حسن بُريغش من الرياض، وجاءت

وفـود من المدن المجـاورة، والمدارس الإسـلامية، وبلغ عـدد البحوث التي أُعِدَّت لهذه الندوة أكثر من خمسة وأربعين بحثاً.

إنها كانت مناسبة عَطِرة مؤثرة على النفوس، فصارت حديثَ المجالس، وكـان ذكرهـا على لسان كـل مسلم شهد الحفـل أو سمـع عنه، وعلّق أحـد الكتّاب في الصحف المحلية: إنَّ جوَّ السكينة والطمأنينـة كان يسـود المدينـة خلال هذه الأيام التي عُقِدت فيها الندوة.

وقد كان انعقادُ هذه الندوة وحضور عدد كبير من العلماء فرصـة غاليـة، فـاغتنمتها المنـظمات والمـدارس الإسـلاميـة الـواقعـة في المنـطقـة والمـدن المجاورة، وعُقِدت اجتماعات دينية، وحفلات في مواضع مختلفة للاستفـادة من العلماء الذين حضروا بهذه المناسبة، فكانت الحفلات[1]، والاجتماعات التي عقدت، وتنقّل الوفود من مكـان إلى مكان، يسبـغ على المديـنـة صبغة الاحتفال أو المهرجان الإسلامي، وساعد على إيجاد هذا الجوّ، طيب المكان وافتتـاح الندوة يـوم الجمعة، ومـوقع الاجتمـاع، فقـد عقـد بجـوار الجـامـع التاريخي العظيم الذي شيَّده الحاكم المسلم عنبر، وزيَّنه الإمبراطور المغولي العظيم أورنك زيب عـالمكير ـ الـذي قضىٰ في هذه المـدينة خمسـاً وعشرين سنة من حياته، ومات في جوارها، وتعرَّضت المملكة بعـده للضعف، لذلـك يسميهـا بعضُ العـارفين بـ «غـرنـاطـة الهـنـد» ـ ورفـع مكـانتـه ذكـرُ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

قضىٰ سكّان البلد الذي وهبه الله تعالى جمـالاً طبعياً وافـراً، وثراءً فنيّـاً باهراً، وتاريخاً عريقاً في القِدَم، قضى سكانه ثلاثة أيام في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفاح عبير هذا الذكر وريّاه في سائر أنحاء المدينـة، فقد انتقلت الوفود إلى دولت آباد المدينة التاريخية التي شهدت معركة حـاسمة بين قـوّات المسلمين في عهـد عـلاء الـدين الخلجي، وقـوات مملكـة ديـوكيـر

---

(١) منها حفلة كبيرة باسم «رسالة الإنسانية» وغصَّت القاعة بالحـاضرين، كـان منهم نحو ٥٠٠ من غير المسلمين المُثقَّفين.

الهندوكية، وحقَّقت القوات الإسلامية رغم قلتها انتصاراً مدهشاً، ومدينة خلد آباد حيث يقع قبر الإمبراطور أورنك زيب، وبه كهوف اليورا (Ellora) التاريخية التي تُعرَف بالنحوت الحجرية، والتماثيل في داخل الكهوف، وفي أماكن أخرى تاريخية، وتُمثِّل دور العهد الوثني الجاهلي وعهد السُّخرة الظالمة، وتذكِّر بالفرق الواسع الهائل بين الديانات والحضارات الوثنية المظلمة، وبين دين الإسلام القائم على التوحيد الخالص ونبذ الوثنية بجميع أشكالها ومظاهرها، واحترام الإنسان والإنسانية، وما كان له من فضل وتأثير، وتغيير وإصلاح، حين وفد المسلمون إلى هذه البلاد العريقة في الوثنية المُمثّلة لها، وحكموها وقادوها زمناً طويلاً.

وقد كان اختيار هذه المدينة الإسلامية بتاريخها الإسلامي العظيم وكونها عاصمة لحكومة الإمبراطور المؤمن أورنك زيب المسلم الغيور، المجاهد الفقيه الصالح، الذي سمّاه أحد الكتّاب المسلمين الكبار بسادس الخلفاء الراشدين[1]، ولجمالها الطبيعي الذي تتميز به عن المدن الأخرى اختياراً مناسباً للغاية، فإنَّ طِيْبَ المكان له تأثير على النفوس، وكثيراً ما ألهم طيب المكان ذكرَ الحبيب كما قال شاعر عربي:

ولما نزلنا منزلاً طلّه النَّدَى أنيقاً وبستاناً من النَّور حاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنُه مُنىً، فتمّنينا فكنت الأمانيا

كانت الندوة بهذه الاعتبارات العديدة مناسبةً فريدة تبعث على الشعور بالسعادة والطمأنينة في القلوب[2].

استفحال الحركات الطائفية وتوتُّرُ الجوِّ المدني
بعواطف العداء والمجابهة بين الهنادك والمسلمين:

توتّر الجوّ العام الذي يسود على الحياة المدنية السلميّة والإدارية الحكومية، وأصبح متهيئاً للانفجار لأدنى حركة أو خطوة سلبية إرهابية، تعقبه

(١) هو الأديب الكبير والكاتب الإسلامي الأستاذ علي طنطاوي في مقاله: «نحن الآن في الهند».
(٢) ملخّصاً من صحيفة «الرائد»، ١٨ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ، أول نوفمبر ١٩٨٨ م.

اضطرابات طائفية ومذابح بشرية، وإهانة للمعابد والمقدسات، وهتك للأعراض والكرامات، في الولاية الشمالية الغربية بصفة خاصة.

وذلك بسبب ما انتقلت به قضية «المسجد البابري» (كما يقوله المسلمون ويدينون به)، و«رام جنم بهومي»[1] (كما يقوله زعماء الأحزاب الطائفية الهندوسية ويُعلنونه) من قضية بين المسلمين الذين يعتقدون أنه مسجد من أول يوم أُسِّسَ على التقوى، وبين حكومة الولاية الشمالية التي يقع في منطقتها هذا المسجد[2]، والمحاكم التي رفعت إليها هذه القضية، والمسلمون لهم دلائل قوية ووثائق تاريخية، انتقلت هذه القضية من هذا الإطار القانوني الإداري المحدود، إلى قضية بين الشعب المسلم والشعب الهندوسي، الذي يشكِّل أكثرية ساحقةً، ويستحوذ على الصحافة ووسائل الإعلام، والجهاز الإداري في البلاد، بسبب «العاطفية» التي لم تزل ولا تزال مسيطرة على عقول زعماء المسلمين الحزبيين وخطبائهم المتحمّسين، فتحوّل نزاعاً بين المسلم والهندوسي، ومحاذاة بين المسجد والمعبد الوثني[3].

وانتهز زعماء الأحزاب الهندوسية كـ«شيو سينا»، و R.S.S. الفرصة لإثارة عواطف الهندوس وغَيْرتهم على ديانتهم ومعابدهم، والعداء الدفين في قلوبهم للمسلمين، وأصبحت البلاد بُركاناً متهيّئاً للانفجار.

وأكثر خطورة من ذلك أنه أثار في الهنادك الحماس الديني الذي كان قد ضعف كثيراً، والتطلّع إلى إحياء ديانتهم المندرسة التي كانت فقدت الشيءَ الكثيرَ من السيطرة على النفوس والاحترام في العقول وتجدّدت صلتهم ـ أو كادت تتجدَّد ـ بديانتهم وطقوسهم وأصنامهم، وأحدث فيهم لفتةً جديدة إلى ما كانوا قد نسوه أو تناسوه من ميثالوجية أسطورية، وذلك عن

---

(١) يعني مولد «الإله رام» بزعمهم.

(٢) يقع هذا المسجد في «أجودهيا» في مديرية فيض آباد في الولاية الشمالية «اترابراديش» (Uttar Pardesh).

(٣) وتغيّرت بذلك نظرة الهنادك إلى المساجد، وصعب بناء مسجد جديد في مكان يسترعي الانتباه.

سبيـل وسائـل الإعلام والخـطب المثيرة، والكتـابـات الـلاذعـة في الصحف الإنجليـزية والهنـدية، وكـان ذلك من الأخـطاء ـ غير المقصـودة ـ التي جَنَتْها السياسة الحـزبية المسلمـة المتهوّرة، صعب في جـوّها التعـايش السّلمي في هذه البلاد التي يستطيع المسلمون أن يُمثّلوا فيها دوراً قيـادياً منقـذاً، وصعب عليهم أن يهيِّئوا عقول المثقفين من الأكثرية لدراسة الإسلام دراسةً موضـوعيةً علمية والإنصاف له.

وقد نبَّهَ على ذلـك وخوَّف منـه بعض العقلاء من المسلمين، وكـان لي شرف التحذير منه، ولكن العاطفة دائمـاً تتغلب على التفكير، وقـد أعان على ذلك صمتُ الحكومة وإبطاؤها وتراخيها في حسم القضية كعادتها.

وتلك خسارة كبيرةٌ بالنسبة للمسلمين، وعرقلةٌ للسير الإسلامي الدَّعَوي والخلقي في هذه البلاد التي حكمها المسلمون نحـو ألف سنة، ولا تـزال في حاجةٍ إليهم، والقضيَّـة تستحقّ التفكير الهـادىء العميق، واستعراض الـوضع بأمانة وعقل عملي، ولعلَّ الله يُحْدِثُ بعد ذلك أمْراً.

تأليف كتاب «المرتضى»
وحفلة تدشين في لكهـنؤ:

من الشخصيات المظلومة أو المهضومة حقها، شخصية سيّدنـا علي بن أبي طالب رضي الله عنه التي تراكمت عليها حجبٌ كثيفـة على مدى القـرون والأجيال، لأسباب مذهبية طائفية ونفسيّة، ولم يُنصَف لها حق الإنصاف، ولم تُعـرض للدارسين والباحثين وحتى للمحبين المجلّين، في صـورتها الحقيقيـة وإطارها الواسع الشامل، وفي استعراض أمين دقيق محايد للعصر الذي نبغت فيه والأحداث التي عاشتها والمجتمع ورجاله وقادته الذين عاصرتهم وتعـاونت معهم، والمعضـلات والمصاعب التي واجهتهـا، والقِيَم والمُثُل التي تمسَّكت بها أشدَّ التمسـك، والخطّة السيـاسية والإداريـة التي آثرتهـا، ولم يبحث عن أسبابها ونتائجها، ولم تقارن بنقيضها وضدهـا ونتائجه لو فضَّله وسار عليه.

بـدأتُ أشعر بشـدة بفـراغٍ مثيـر لـلاستغـراب والـدّهشـة في المكتبـة

الإسلامية العالمية في ما يختص بموضوع سيرة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سيرة موسّعة مؤسَّسةً على دراسة تاريخية جديدة محايدة، يتخطّى فيها المؤلفُ الحدود المرسومة التي قيَّد فيها المؤلفون كتاباتهم، ولا يكون عيالاً على ما كُتِب وأُلِّف، ولا على مصادر التاريخ المعدودة العرفية المُعيَّنة التي يستقي منها المؤلفون معلوماتهم في الغالب، وتسمو همته إلى دراسة واسعة متنوّعة، وتعريف الشخصية العملاقة التي كثر فيها التنازع وَعَظُم فيها الإفراط والتفريط، ونظر إليها كل فريق من زاوية خاصة، وكثيراً ما أخضعوا التعريف به لنظرياتهم وأهوائهم، حتى صار أفراداً معدودين وأشخاصاً خياليين، باسم واحد، واحتجب الشيء الكثير من أسرار عظمته ومظاهر عبقريته عن العيون.

بدأ المؤلفُ رحلتَه الشاقّة العسيرة متوكّلاً على الله محتسباً، وملكته هذه الفكرة، واستولت على أعصابه ومشاعره حتى ما تركت له مجالاً للكتابة والتفكير في موضوع آخر، فبدأ يدرس المصادر التاريخية من جديد، ويقتبس منها مقتطفاتٍ ونقولاً، وبدأ يُملي هذا الكتاب بالعربية (اللُّغة التي يؤثرها لتآليفه المهمة) من ١١/رجب سنة ١٤٠٨ هـ (١/مارس ١٩٨٨ م) وكانت نهايةُ الكتاب في ١٤/من شوال سنة ١٤٠٨ هـ (٣١/مايو ١٩٨٨ م)[١].

وبذلك جاء الكتاب استعراضاً تاريخياً طويلَ المدى واسعَ الأرجاء، ومساهمةً متواضعةً في عَرْضِ سيرةِ رجلٍ كبير من كبار الجيل الإنساني، وخرّيجي مدرسة النُبوّة المنجبة النجباء.

ومن معطيات هذا الكتاب الخاصّة، إلقاءُ الضوء على حكمة الله تعالى وتقديره في الترتيب الزماني للخلفاء الراشدين، وتواليهم بعضهم على إثر بعض، والسرّ في ما قدَّره الله وحقّقه من إبعاد دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومجهوده من تهمة التمهيد للحكم العائلي الوراثي التي لصقت

---

(١) قامت بنشر الكتاب وإخراجه دار القلم بدمشق، على مستوى الإخراج الذي عُرفت به هذه الدار.

بالدعوات والحركات الإصلاحية والأسر الحاكمة في الماضي كثيراً، والتي عيل منها صبر أهل الشعور والضمير الحيّ قديماً، ثم سرد الدلائل البديهية القطعية على تعاون سيّدنا علي ـ رضي الله عنه ـ الجادّ المخلص مع من سبقه في تولّي الخلافة في صالح الإسلام والمسلمين، وهي كالنتائج الرياضية القطعية التي لا تقبل جدلاً ولا تشكيكاً، ثم بيان جهود عظماء ذُرّيته في قيادةِ المسلمين، وفي نشر الإسلام في بلاد مختلفة والدعوة إلى الله وتزكية النفوس، ودورهم الرائع البطولي في قيادة الحركات الجهادية والتحريرية في مختلف الأمكنة والأزمنة، وذلك كله ما ينفرد به هذا الكتاب في هذا التفصيل، والاعتماد على الوثائق التاريخية، ذلك مع تقرير لسياسة سيّدنا علي في خلافته ومواقفه، وأنها هي اللائقة به وبتربيته ومكانته، وتبرير مواقف نَجْلَيْه الكريمين سيدنا الحسن بن علي وسيدنا الحسين بن علي من خصومه، وصحّة مِا قرّراه من تنازل وَحَرْب، واستنكار وقعةِ كربلاء، وذكر آراء أئمةِ الإسلام في ذمِّ يزيد والإنكار عليه.

قام الدكتور عبد الله عباس الندوي (أستاذ جامعة أمّ القرى بمكة المعظمة سابقاً، وعضو ندوة العلماء والمُشرف التعليمي فيها حالياً) بنقل الكتاب إلى اللغة الأردية بطلبٍ من المؤلف، فأحسنَ القيام بذلك، وقام بنشره وإخراجه «المجمع الإسلامي العلمي» في ندوة العلماء في فرصةٍ قريبةٍ على مستوى عالٍ من الطباعة والإخراج، وجاء الكتاب في ٤٦٤ صفحة بالقطع الكبير.

وقد طَلَب مني العزيز الدكتور محمد يونس النجرامي الندوي أمين «جمعية المثقّفين المسلمين للتوعية الإسلامية» إقامة حفل تدشيني للكتاب، ودعوة كبار الباحثين الإسلاميين والرجال المرموقين لإلقاء الضوء على محتويات هذا الكتاب علمياً وموضوعياً، والتنويه بأهميته، وقبلت هذا الاقتراح ـ خلافاً لما تعوّدتُه من عدم الدعاية لمؤلّفاتي وعقد مناسبات للتنويه بها ـ طمعاً في أن يسترعيَ هذا الحفل الهادف الوقور انتباه الدارسين

والمنصفين من الطائفتين ـ أهل السنة والشيعة ـ على مستوى عالٍ وبطريق مؤثر.

عُقِد هذا الحفل في قاعة المحاضرات الكبرى (Ganga Parshad Memorial Hall) بلكهنؤ في ٦/من نوفمبر ١٩٨٨ م، تحت رئاسة سماحة الشيخ السيد منّةُ الله الرحماني، أمير الشريعة في ولايتي بهار وأريسه في الهند، والأمين العام لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين في الهند، وهو الذي فتح غلاف هذا الكتاب وقدَّمه إلى المؤلف أمام الحاضرين كما جرت العادة في حفلات التدشين، وحضره صفوةٌ ممتازةٌ من العلماء والكُتّاب، وأساتذة الجامعات وممثّلي المراكز والهيئات والجمعيات الإسلامية من جميع أنحاء البلاد، وغصَّت القاعة بالمستمعين على سعتها، يذكر من المحاضرين عن هذا الكتاب ـ كتابةً وخطابةً ـ معالي الشيخ ضياء الرحمن الأنصاري وزير الحكومة المركزية للهند، والمؤرخ الكبير البروفيسور خليق أحمد نظامي رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكراه الإسلامية، ونائب رئيسها وسفير الهند في سوريا سابقاً، والباحث الكبير الأستاذ ضياء الحسن فاروقي رئيس مُؤسَّسة ذاكر حسين للبحث والدراسة في الجامعة المليّة الإسلامية في دلهي، وفضيلة الشيخ ضياء الدين الإصلاحي مدير دار المصنفين في أعظم كره، والأديب الكبير خواجه أحمد فاروقي الأستاذ جامعة دلهي سابقاً.

ولكن لم يكن ردُّ الفعل في الطائفة الشيعية ـ في ما يختص بهذا الكتاب ـ ردَّ فعل هادىء يشتمل على نقدٍ موضوعي بنّاء، وعلى شيءٍ من الاعتراف والتقدير والترجيب بكتاب ينصف الإمام عليّاً كرَّم الله وجهه، ويوفيه حقَّه من العظمة والعبقرية والنزاهة وسموِّ النفس، وإيثار المصلحة الإسلامية على كل مصلحة، وقد تلقّى المؤلِّفُ رسائلَ قاسيةً عنيفةً كُتِبت في لغةٍ لاذِعةٍ ساخِرةٍ طاعِنةٍ في الكتاب ومؤلّفه، والجماعة التي ينتمي إليها، تنِمُّ عن سخط وامتعاض كبيرَين، وتدلُّ على أن العصبية الطائفية تُعمِي وتُصِمّ، وتمنع عن الإنصاف، ووضع الأشياء في محلّها.

الفصل الرّابع عشر

رحلةٌ إلى الحجاز والإمارات، لقاءات واجتماعات
وأحاديث، محاضرة مهمّة في أبو ظبي
مؤتمر «رسالة الإنسانية» في حيدر آباد

الرحلة إلى الحجاز:

تلقَّى كاتب هذه السطور دعوة من أمانة رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة لحضور الجلسة السنويّة لمجلسها التأسيسي التي ستبدأ من ٣/ ربيع الآخر (١٢/ نوفمبر)، وقرّرتُ السفر لأهميّتها واتصالي بالمجلس التأسيسي كعضوٍ من أول يوم، رغم انحرافٍ في الصحة وإرهاق وأشغال تأليفية وعلمية، وأخبرت بذلك الأمانة العامة برقياً، وكان مرافقي في هذا السفر العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي الذي أُوثر زمالته في مثل هذه الرحلات، لما أتلقَّى منه من العون والمساعدة، وكان المفروض أن ندرك الجلسةَ الأولى ونحضر المجلس التأسيسي من أول يوم، ولكن بسبب أزمة طيرانية وقعت في تلك الفترة، وبسببها تأخّرت الطائرة التي نركبها من لكهنؤ إلى دِهْلي، ثم نسافر بالطائرة السعودية إلى جدّة، تأخرتْ ست ساعات أو أكثر، تفكّك بها نظام السفر واضطررنا إلى أن نسافر بالطائرة السعودية يوم الأحد في ٤/من ربيع الآخر (١٣/من نوفمبر) وبتنا الليلة في جدة في منزل مضيفنا القديم الدائم الحاج محمد نور ولي صاحب شركة عبد الغني محمد نور ولي، وتحركنا في الصباح يوم الاثنين في ٥/ربيع الآخر (١٤/من نوفمبر) مُحْرِمين مُعتمرين إلى مكة، وحضرنا جلسة المجلس التأسيسي بعد أداء المناسك

متأخّرين بيومين، وكان المتوقّع أن يدوم المجلس أسبوعاً كاملاً ولكن فوجئنا بانتهائه، (وقد أنهىٰ إجراءاته والقضايا التي كانت موضع التأمُّل وتبادل الرأي) في اليوم الرابع يوم الثلاثاء ٦/من ربيع الآخر (١٥/من نوفمبر) وأسند معالي الأمين العام كلمة الأعضاء إليّ، فألقيتها متشكّراً ومتشرفاً.

ونظّم سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال الكاتب الإسلامي المشهور، وزميلي في وفد الرابطة الذي زار أقطاراً إسلامية مختلفة في غرب آسيا كأفغانستان وإيران وسوريا والأردن والعراق في سنة ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) حفلة عَشاء في داره بالنُّزهة تكريماً لي، حضرها الصديق القديم الكريم سعادة الأستاذ محسن أحمد باروم، وسماحة الشيخ محمد محمود الصوّاف، والدكتور صالح أوزجان (عضو المجلس التأسيسي)، والأستاذ محمد محمود الحافظ، والدكتور عبد الله عباس النَّدوي، وكان مجلساً علميّاً أخويّاً.

قضينا بعد ذلك ثلاثة أيام ٧ ـ ٨ ـ ٩/من ربيع الآخر (١٦ ـ ١٧ ـ ١٨/من نوفمبر) في مكة المكرمة وأسعدنا الله تعالى بصلاة الجمعة في الحرم الشريف، وفي خلال هذه الأيام عقد الدكتور عبد الله عباس الندوي حفلة تكريم في منزله، حضرها عددٌ وجيه من الأدباء والعلماء، ومن توثّقت بيننا وبينهم الصداقة حين طال المقام بمكة في سنة ٤٩ ـ ٥٠ م، ومما يجدر بالذكر والشكر أن الأستاذ عبد الرحمن حبنّكة كان أول من قابلنا عند وصولنا إلى مكة، ثم أكرمنا بزيارته يوماً وأتحَفَنا بمؤلفاته الجديدة، وتجدَّدت به ذكريات والده العظيم بركة الشام سماحة الشيخ حسن حبنكة رحمه الله.

كان من خصائص هذه الرحلة التي كانت من أقصر الرحلات ـ التي أكرمنا الله بها إلى البلاد المقدسة ـ أياماً، لقاءُ معالي الشيخ محمد صالح القزّاز أمين رابطة العالم الإسلامي العام الأسبَق، وكان قد لزم بيته واعتزل عن الناس من سنين لكِبَر سنه، وحبه للاعتزال والانقطاع للعبادة والاشتغال الديني، بحيث لا يطمع فيه طامع ولا يزوره زائر، وقد كنت توّاقاً لزيارته والتسليم عليه، لِما كان بيني وبين معاليه من الصِلَة العميقة البعيدة عن

الاعتبارات السياسية والإدارية، ولما كنت أتمتَّع منه بثقة وتقدير خاص، وقد اختارني لقيادةِ وفد الرابطة الذي زار ستةَ أقطارٍ إسلامية كبيرة في غرب آسيا كما سبق، وكلَّما طلبتُ من الإخوان أن يُتيحوا لي فرصةَ لقائِه، ذكروا لي حُبّه للاعتزال والانصراف عن الزيارات واللقاءات، ولم يُشجّعوني على تحقيق هذه الرغبة، وكانت حاجة في نفس يعقوب ما قضاها.

ويسَّر الله هذه الزيارة في هذه المرة، فقد اتصل العزيز الدكتور عبد الله عباس الندوي بمعاليه هاتفيّاً وبلَّغه رغبتي في زيارته والتسليم عليه فقط، فسَمَح بذلك مسروراً، ودخلتُ منزله فتلقَّاني بسرور وترحيب كأنه كان من ذلك على ميعاد، وأخبرني أني لم أغب عن خاطره، وقد رآني في المنام عِدَّة مرات، ووجدت منه ما اعتدته من حفاوةٍ وانفتاح وتكريم، ولا شك أنَّه الرجل العامل المُوفَّق الذي أسعده الله بالإشراف على عملية الزيادة والتوسُّع في الحرم الشريف المكي، ثم التوسُّع في المسجد النبوي الشريف، وأدار الأمانةَ العامة لرابطة العالم الإسلامي، بحكمةٍ وأمانةٍ، ولباقةٍ وقدرةٍ، متمتّعاً باحترام الجميع، وأحمد الله على هذا اللقاء الذي كان بعض حقوقه عليّ واعترافاً بفضله وصلاحه وإخلاصه.

فوجئنا في اليوم الثامن عشر من نوفمبر بنبأ وفاة الشيخ أبي العرفان الندوي أحد أساتذة دار العلوم ندوة العلماء الكبار، ووكيل كُلّية الشريعة، هاتفياً في الصباح الباكر، وكان النبأ محزناً مفاجئاً، لأننا اتصلنا بالأمس هاتفيّاً بندوة العلماء، فأُخبرنا بالتحسّن في صحته، وكان الأستاذ الفقيد من خير من يمثِّل الثقافة الندوية ـ التي تجمع بين التاريخ والأدب، والعقيدة والكلام، ومعرفة طبقات الرجال، وتمتاز بالسَّعَة والمرونة والاعتدال والإنصاف، والخبرة بواقعِ الحياة ـ وكان في مقدمة من يمثّل الندوة في الملتقيات العلمية، التي تعقدها الجامعات والمجامع العلمية، فيترك أثراً حسناً عند أهل العلم، ويرسم صورةً لائقةً لعالمٍ عصريّ واسع الثقافة، رحمه الله وغفر له.

توجّهنا في ١٠/من ربيع الآخر (١٩/من نوفمبر) إلى المدينة المنورة،

ومكثنا في رحابها في منزلنا القديم بستان نور ولي أسبوعاً، تيسَّرت لنا فيه صلاة الجمعة في المسجد النبوي الشريف.

وفي خلال هذه الإقامة القصيرة، انعقدت جلسة مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي في ١٥ ـ ١٦/من ربيع الآخر (٢٤ ـ ٢٥/نوفمبر) في بيت صديقنا الفاضل الدكتور عبد الباسط بدر أستاذ الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، حضرها (علاوةً على الدكتور عبد الباسط بدر، المُضيف الكريم) الأستاذ محمد حسن بريغش، والدكتور عبد القدوس أبو صالح من الرياض، والدكتور محمود إبراهيم أستاذ الجامعة الأردنية من عمّان، والدكتور حسن الأمراني أستاذ جامعة وِجْدَه من المغرب، والدكتور عبد الله عباس الندوي، من مكة المكرمة، والأساتذة: الأستاذ محمد الرابع الحَسَني الندوي، والأستاذ سعيد الأعظمي الندوي، والأستاذ واضح رشيد الندوي من الهند، واستمرّت الجلسة ساعاتٍ عديدة يوم الخميس ويوم الجمعة، وقُرِّرت قرارات في صالح الرابطة وتعميم رسالتها وتوسيعها.

كان نشاطنا وتحرُّكاتنا في المدينة المنوَّرة محدودة في الغالب بين المسجد النبوي الشريف ومنزلنا في بستان نور ولي في شارع أبي ذر، وكان أكثر أحبّتنا وأصدقائنا في المدينة المنورة لم يعرفوا وجودَنا في المدينة، لأنَّ هذه الزيارة لم تكن بمناسبة جلسات المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية أو مناسبة اجتماعية أخرى، فلم يشع خبر توجّهنا إلى المدينة المنورة وإقامتنا فيها مدة أسبوع، يستثنى من ذلك معالي الشيخ صالح الحُصيِّن، وسعادة الشيخ محمود الحافظ، وبعض علماء سوريا الذين عرفوا وجودنا في المدينة وشرَّفونا بزيارتهم.

وفي ١٧/من ربيع الآخر (٢٦/من نوفمبر) يوم السبت، توجّهنا إلى جدة وتغدّينا واسترحنا في منزل الأخ إشفاق حسين شيخ مهندس مصلحة الهاتف سابقاً، والذي رافقنا من جدّة إلى المدينة، ومن المدينة إلى جدّة، وركبنا سيارته.

وبعد المغرب كان لي حديث موجز في مجلس قد نظمه فضيلة الشيخ عبد الله علي بصفر (الذي يرجع إليه الفضل في محاضرتي المستفيضة في جامع منصور شعيبي في الرحلة الماضية، وقد مضى الحديث عنها في الصفحات الماضية) وقد تناولتُ في هذا الحديث (لضيق الوقت والإرهاق الذي كان بي) سورة العصر بالتفسير والحاجة إلى تطبيق ما جاء في هذه السورة من شروطٍ وصفاتٍ للخلاص من الخسران، ونَيْل السعادة والنجاح في الدنيا والآخرة.

ويوم الأحد في ١٨/من ربيع الآخر (٢٧/من نوفمبر) كانت لي محاضرة موسّعة مستفيضة في أردو، موجّهاً الخطاب إلى الإخوان الهنديين والباكستانيين في مسجد الجوهرة في العزيزية، وقد غصَّ الجامع الكبير الواسع بالمستمعين، وقدّم إليّ أحد الحاضرين وأنا ساعٍ إلى منصة الخطابة، ورقة فيها اقتراح بلفت النظر إلى مضارّ الفيديو (Video) والتلفاز (Television) اللذين انتشرا انتشاراً فظيعاً، وكان لهما أثر عميق في البيوتات والأحداث والشباب، وكانت محاضرتي تدور حول تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا ادخُلوا في السِّلْم كافَّةً ولا تتَّبعوا خطواتِ الشيطان إنّه عدوٌّ مضلٌّ مبين ﴾[1].

وتطرّقتُ في الحديث إلى الفيديو والتلفزيون، وحضرتني الآية القرآنية ـ من غير أن أفكِّر فيها سابقاً ـ وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتري لَهْوَ الحديثِ لِيُضِلَّ عَنْ سبيلِ اللّه ﴾[2]، وقلت: إنَّ هنالك نوعين من الملهيات والشواغل، أحدهما: (لهو) ينطبق على المباريات والتفرّج عليها، والألعاب التي أسرف الناس في التلهّي بها، والحديث عنها، وأنواع أخرى من اللهو ومنها حديثٌ ملْهٍ شاغل قد يتغافل فيه الإنسان عن الواجبات الدينية، وعن الاشتغال بذكر الله كالسَّمَر والأقاصيص والروايات المُسلّية، ولكن الله أضاف

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٨.
(٢) سورة لقمان، الآية ٦.

في هذه الآية اللهو إلى الحديث، فقال: «لهو الحديث» ومن إعجاز القرآن أنه ينطبق على الأساليب والآلات التي كان اكتشافها ورواجها حديثاً، وينطبق تماماً على الفيديو والتلفاز، فهو لهوٌ وحديثٌ في وقت واحد، وزاده إيضاحاً وتطبيقاً قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي ﴾ فلا سبيل إليهما إلّا إنفاق المال والحصول عليهما عن طريق الشراء، وأُخبِرت أن المحاضرة حظيت بحسن الاستماع والتجاوب، وتحدَّثَ الناس عنها في مجالسهم، وقضينا بعض الوقت مع صديقي الكريم الدكتور الطبيب أشرف الدين في منزله في حديث دينيّ ولقاءٍ أخوي.

الرحلة إلىٰ الإمارات:

كنا تلقَّينا دعواتٍ متكررةً ومخلصة ملحّة، من كرام الأصدقاء والمُحبّين في الإمارات، ومن أبو ظبي خاصة، في مقدمة هؤلاء الحريصين على زيارتنا للإمارات وعلى رأسهم معالي الشيخ أحمد خليفة السُّويدي الممثّل الشخصي لرئيس الدولة الشيخ زايد آل نهيان، الذي كان قد اطّلع على عدد من رسائلنا الدعوية ومؤلَّفاتنا عن طريق الأخ الدكتور تقي الدين الندوي أستاذ جامعة العين، وأعجب بها، وجّهت الدعوة عن طريق الشيخ تقي الدين الندوي مراراً، ولم أستطع أن أسافر خصّيصاً لزيارة أبو ظبي والإمارات للمسؤوليات والأشغال المتواصلة، واستجبتُ لها أخيراً، واقترَنَ بذلك دافع عاطفي إسلامي وهو عزاء أبناء سماحة الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك رئيس قضاة أبو ظبي، الذي كانت تربطنا به روابط دينية وأخوية، وقد حضر مهرجان ندوة العلماء الكبير في سنة ١٩٧٥ م (بمناسبة مرور خمس وثمانين سنة على نشوء ندوة العلماء) ولا يزال دعاؤه المبتهل المرقّق الذي دعا به بمناسبة وضع حجر الأساس بمكتبة ندوة العلماء العامة يُذكَر، وقد كان وقع حادث اغتيال ابنه الذي كان سفيراً بباريس قبل مدة، فكان أثره عميقاً بحكم الطبيعة في نفسه.

وكذلك كنت أشعر بشوق إلى لقاء سموّ الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، والي الشارقة وتهنئته على العودة إلى مركزه، وقد تكرّر اللقاء معه،

ولقيت من سموِّه دائماً العطف والتكريم، وجاء إلى لكهنؤ ـ وهو في زيارةٍ رسميّةٍ للهند ـ خصّيصاً للقائي وزيارة جامعة دار العلوم ندوة العلماء، يضاف إلى ذلك الحنين إلى زيارة أسرة العالم المخلص الربّاني فضيلة الشيخ عبد الله عليّ المحمود رحمه الله، وعلى رأسها الدكتور سالم عبد الله علي المحمود، وقد حضرتُ مناسبةَ افتتاح المكتبة المنسوبة إليه، وقد مرَّ ذكره، وكذلك لقاء الشيخ سيف غُرَير الذي اتّصل بنا هاتفياً ونحن في الهند، وهو من المعنيّين والمكرمين لمُؤسَّسة ندوة العلماء وما يتّصل بها، إلى آخرين من إخوان وأصدقاء في الإمارات، في مقدمتهم فضيلة الشيخ علي صالح المحويتي قاضي الذيد.

توجَّهنا من جدة إلى أبو ظبي يوم الاثنين في ١٩/من ربيع الآخر (٢٨/من نوفمبر) ظهراً، ووصلنا عند المغرب، وكان في استقبالنا على المطار معالي الشيخ أحمد خليفة السويدي، والدكتور تقي الدين الندوي، وعدد من وجهاء البلد وكبار الموظفين في الحكومة، وتوجَّهنا إلى فندق «شيراتون» حيث تكرَّرت في اليوم القابل زيارات في الفندق من وكيل وزارة الشؤون الإسلامية ورجالات العاصمة، وتغدَّينا عند معالي الشيخ أحمد السويدي، حيث تشرفنا بلقاء الشيخ علي شرفة، مدير ديوان رئيس الدولة، والشيخ فيصل بن سلطان القاسمي، وزارنا مراراً وتكراراً أصدقاء في أبو ظبي كالدكتور محمود قيسية الندوي، وعدد من فضلاء الندوة والمتخرِّجين من دار العلوم العاملين في أبو ظبي ودُبَي والشارقة.

وألقيت من غدٍ محاضرة بعنوان: «ترشيد الصحوة الإسلامية» في المُجمَّع الثقافي، وهي في الحقيقة محصول هذه الرحلة وقيمتها، وسيأتي تلخيصها قريباً مع زيادات في الشرح والإفاضة عند الكتابة.

ويوم الأربعاء في ٢١/من ربيع الآخر (٣٠/من نوفمبر) توجَّهنا إلى الشارقة وقد حدّد لنا سموّ الشيخ سلطان القاسمي اللقاء معه عند الوصول إلى الشارقة والغداء معه، وقد جلسنا مع سموه جلسةً خاصةً وصلَّينا الظهر وتغدَّينا

مـع نخبة كبيـرة جامعـةٍ من أصحاب الفضيلة والسعـادة وكبار علمـاء أبو ظبي والقضاة والأئمة، وتـوجَّهنا بعـد ذلك إلى منـزل الدكتـور سالم عبـد الله عليّ المحمود حيث تقرَّر نزولنا، ومكثنا عنده مدة إقامتنا في الشارقة ودُبَي.

وكانت لي محاضـرة في نفس اليوم في كُلّيـة الدراسـات الإسلاميـة في دُبَي، تناولت فيها تفسير آية من سورة الكهف، وهي قوله تعالى: ﴿ إنّهم فِتْيَةٌ آمنـوا بـربِّهم، وزِدْنَـاهم هـدى ﴾. . . إلى قـولـه تعـالى: ﴿ لَقَـدْ قُلْنـا إذاً شَطَطاً ﴾[1]، وفسَّرتها تفسيراً يستطيع الشباب الدارسـون الأذكياء الـطامحون، أبناء البيوتات الغنيّة والأُسَر الكريمـة الرسميـة أن يتلقَّوا دروسـاً من هذه الآيـة المستـرعية لانتبـاه الشباب الـذين لهم آمال ومـطامح، وفـرصٌ ومجـالات في الحصول على أسباب الرخاء والثراء، والمجد والرئاسة، ويقتدوا بهؤلاء الفتيـة المؤمنين في علوِّ همتهم، وبُعـد نَظَرِهم، وربـاطة جـأشهم، في إيثار العقيـدة الصحيحـة على العقيدة الـزائفة، وإيثـار الآخرة على الـدنيا، وتمـرّدهم على الفرص المتاحة لقضاء حياة عزّ ومجد، ورخاوة وسراوة، ورأس الجلسة وقـدّم المحـاضر مـدير الكليـة العالم الفلسـطيني والمؤلف الإسلامي الشيـخ محمود الديك.

أكرمنا سعادة الشيخ سعيد لوتـاه مديـر بنك دُبَي الإسـلامي بزيـارته في منـزلنا، وهـو وجيه فـاضل، غيـور علىٰ الإسلام، عـامل في مجـال الاقتصاد الإسـلامي، وتعليم النشء الإسلامي، بصمت وجـدّ، وزهد في الـدعايـات، قوّاه الله وبارك في مجهوده.

وتغدّينا في اليوم القابـل عند سعـادة الشيخ سيف الغـرير الـذي هو من كبار تجّار دُبَي ووجهائها، وله اتصال خاص واهتمام بنـدوة العلماء ورجـالها، وقـد حضر الغَـداء عددٌ كبيـر من علماء ووجهـاء وأصدقـاء يمثِّلون دُبَي تمثيلاً لائقاً.

كـانت لي محاضـرة بعد المغـرب في قاعـة المحاضـرات بـالشـارقـة،

(١) سورة الكهف، الآية ١٤.

تحدثت فيها عن انطباعاتي عن المدنيّات والحضارات التي تبلغ قمّتها وتتخطّى حدودَها في حياة الشعوب والأمم والديانات والرسالات، وكنت قد أخذتني حَيْرة بمشاهدة البهرجة والزخرفة اللتين شاهدتهما في الإمارات والسعودية، وتحدَّثت عن تماسك العرب المسلمين الأولين واحتفاظهما بشخصيتهم الإسلامية العربية، والبساطة والاقتصاد، وحياة التقشّف والفروسيّة، مقابل الحضارتين الرومية والفارسية اللتين بلغتا الغاية في التأنّق والتوسّع والحياة المصطَنعة، وذكرت الحاجةَ إلى «تَمَدْيُن» هذه المدنية وإخضاعها للمبادىء والغايات التي أكرمها الله تعالى بها عن طريق الإسلام وإخضاع هذه الحضارة وما لا بد منه في مسايرة العصر ومجاراة البلاد المتحضّرة، للشخصية الإسلامية، وختمت المحاضرة بالآية التي ختم بها سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ حديثه حين طلب منه سيّدنا معاوية بن أبي سفيان أن يتكلّم أمام الناس بعدما تنازل عن الخلافة في حقّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ حتى يعلم الناس أن ذلك كان عن جدّ وتصميم واقتناع، وخطب خطبة وجيزة وختمها بالآية الكريمة: ﴿ وإنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُم وَمَتَاعٌ إلى حين ﴾[1].

رجعنا إلى المنزل واستعددنا للرحيل إلى دلهي، وكان موعد الطائرة الهندية الساعة الحادية عشرة ليلاً، واتصل سموّ الشيخ سلطان بن محمد القاسمي هاتفياً، وأخبر بقدومه للتوديع، وراودته على عدم تجشّمه لهذا اللقاء، فلم يقبل تكرّماً منه وتكريماً للضيف في ولايته، وجزاه الله خيراً ورفع شأنه.

رافقنا إلى المطار الأخ محمد عثمان الحيدر آبادي المهندس في مطار جدة الذي رافقنا من جدة إلى دُبَي لمساعدتنا والتيسير لنا، دأبه في أكثر الرحلات التي نقوم بها إلى السعودية، وهو الذي قام بكل ما يلزم في الرحلة بالطائرة وفي الإقامة في البلد، ورافقنا كذلك سعادة الشيخ سيف الغُرير،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١١١.

وأخوه مروان الغُرير، وقاما بكل تيسير وتسهيل للسفر حتى أخذنا مقاعدنا في الطائرة، وأقلعت في موعدها فوصلنا إلى دلهي في الساعة الثالثة والنصف بالتوقيت الهندي في اليوم الثاني من ديسمبر يوم الجمعة، وسافرنا بالطائرة مساءاً إلى لكهنؤ وقد تأخّرت ثلاث ساعات، فوصلنا إلى مقرِّنا في نصف الليل، والحمد لله أولاً وآخراً.

وإلى القارىء محاضرة أبو ظبي وعنوانها: «تَرْشيدُ الصحوةِ الإسلامية».

محاضرة في موضوع «ترشيد الصحوة الإسلامية»:

اتّصل الدكتور تقيُّ الدين النَّدوي أستاذ جامعة العين في الإمارات من أبو ظبي، بكاتب هذه السطور هاتفياً وهو في «جدة»، وسألني عن موضوع المحاضرة التي سألقيها بإذن الله في أبو ظبي مساءَ يوم الثلاثاء في ٢٠/من ربيع الآخر (٢٩/من نوفمبر) وقد أذيع نبأها في أبو ظبي، وشرح الله صدري لأن يكون موضوع المحاضرة «تَرْشيد الصحوةِ الإسلامية»، وقد جاء اختيار الموضوع عن توفيق من الله تعالى متجاوباً لأوانه والحاجة إليه، وكانت المحاضرة من أهم المحاضرات التي وفقني الله لها ومن وحي الساعة وحاجة العصر.

كانت المحاضرة بقاعة المحاضرات بالمُجَمَّع الثقافي الكبير، وغصَّت الساحة الواسعة بالمستمعين، وشهدَ المحاضرةَ معالي أحمد خليفة السويدي ممثّل صاحب السمو رئيس الدولة الشيخ زايد آل نهيان ورئيس مجلس أمناء المجمع الثقافي، وعدد من المسؤولين، وجمهور غفير من المهتمين بالثقافة والقضايا الإسلامية، كما جاء في صحيفة «الاتحاد» الصادرة من أبو ظبي(١).

بدأت المحاضرة بعد الخطبة المسنونة، بقولي:

«سادتي وإخواني! يسرُّني ويشرِّفني أن أتحدَّث عن هذا الموضوع الجليل الذي أصبح حديث النوادي والمحافل، وشغل الناسِ الشاغل،

(١) عدد ٣٠/نوفمبر ١٩٨٨ م.

والموضوع دقيقٌ كبيرُ الحساسية، وقد نشأ في طبائع كثير من الناس شبه حماية أو شبه تقديس للصحوة الإسلامية، وكثر تفاؤلهم بها حين يسمعون بها في أي بلد، ولكني أتجاسر وأتناول هذا الموضوع بشيء من الصراحة والنقد الإيجابي البنّاء، لأنَّ الصحوة الإسلامية في الحقيقة مسؤولية كبيرة، وأمانةٌ دقيقة جليلة، فإنها إذا وجدت فهي كالسهم إذا طاش وأخطأ الهدف، فإنه لا ينسب هذا الخطأ إلى القوس، ولا يحمل على مصادفة أو فلتة، بل إلى الرامي، فإخفاق السَّهم في إصابته الهدف، إنما يأتي من ضعف الساعد وعدم قدرة الرامي، وكذلك الصحوة إذا اتخذت منهجاً غير دقيق وغير مُخطَّط تخطيطاً دقيقاً جامعاً، أفقدت الثقة أو أضعفها بصلاحية الإسلام في إنشاء الصحوة الصالحة القويّة، ومحاربة الأوضاع الفاسدة، وإيجاد قيادةٍ صالحةٍ قويةٍ واعيةٍ في إنشاء مجتمع صالح إسلامي مثالي، وربما قطع الأمل في محاولة جديدة للصحوة الإسلامية في المستقبل ونجاحها وتحقيقها للأهداف والآمال، ويعكس سلباً على الإسلام والمسلمين، نتيجة عدم التخطيط السليم مسبقاً.

إنَّ كثيراً من الناس لهم تعبير أو تفسير خاص للصَّحوة، إنهم ينظرون إليها كحرب أو ردّ فعل ضدّ البيئات الفاسدة والأوضاع المنحرفة فحسب، أو ضدّ قيادة أو حكم لا يتَّفق مع تعاليم الإسلام وأسس حُكمه إطلاقاً، أو يُحبِّذونها ويصفّقون لها إذا كانت مجرّد هتاف ضدّ قوة أجنبيّة كبيرة، أو تحدّياً لها، ولو بمجرّد مناورة ومظاهرات وإعلانات.

والصحوة في الحقيقة من طبيعة الإسلام يجب أن تمتدّ وتَتَسَلْسَل وتتصل اتصالاً مستمرّاً، لأنَّ هذه الأمة هي الأمة المختارة، والأمة الأخيرة المبعوثة للإنسانية جمعاء، وهو تعبير نبويّ عن هذه الأمة، وقد أُثِرَ عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لبعض كبار الصحابة: «إنما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسِّرين»[1]، وقال سيدنا ربيع بن عامر لرستم لما قال:

---

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(مـا الذي جـاء بكم؟ قال: الله ابتعثنـا لِنُخرِجَ من شـاء من عبادة النـاس إلى عبـادة الله وحده، ومن ضيق الـدنيا إلى سعتهـا، ومن جَوْرِ الأديـان إلى عَـدْل الإسلام)[1]، ولا أبلغ ولا أوضح من قول الله تعالى:

﴿ كُنْتُم خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاس تأمُرونَ بـالمعروفِ وَتَنْهَـونَ عَنِ المنكر وتؤمنونَ بالله ﴾[2].

فكانت بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقرونةً ببعثة أمة، بعثة مجموعة بشرية، داعية واعية كُتبت لها الوصاية على المجتمع البشري في كل زمان ومكان، والحِسبة الخلقية العقائدية والقيادية على الجيل الإنساني في كل عصر، فالصحوة الإسلامية حاجةُ البشرية الدائمة الخالدة، لا تقلّ في الأهمية عن الحاجة البشرية إلى مقوّمات الحياة كالغذاء والماء والهواء معنويّاً، وهي في صالحها ومن مطالبها، وعدمُ وجودها ليس خطراً على الكيان الإسلامي والمجموعة الإسلامية فقط، بل هو خطرٌ على سلامة المجتمع البشري واتّجاهه السليم، وبدونها تبقى الشعوب والأمم كقطعان غنم من غير راعٍ، وسفينة مشحونة بالرُكّاب من غير مجدّف خبير قدير.

وهذا العصر يحتاج إلى الصحوة الإسلامية أكثر من أيّ زمان، لأنَّ هذا العصر هو عصر الشهوات والشبهات، وعصر الفلسفات، وعصر الأساليب الفكرية الأجنبية عن الإسلام، فنحن نرحِّب بالصحوة الإسلامية في كل بلد، وندعو لها بالتوفيق، ولكن هذا لا يمنعنا من تناول هذه الصحوة بشيء من النقد الهادف، ومن وزن هذه الصحوة على ميزان العقيدة الإسلامية، وعلى ميزان المقاييس والمعايير الصالحة، وعندي أيها الإخوة ملاحظات ربما تنفع المساهمين في هذه الصحوة والداعين إليها والعاملين لها.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

إنَّ أول شرط لسلامة هذه الصحوة وجدارتها بالثقة والاحترام والدفاع، هي أن تكون الصحوة موافقةً للعقيدة الإسلامية المنبثقة من الكتاب والسنة، بحيث تتّفق وعمل الرسول عليه السلام وأسوته وأسوة الخلفاء الراشدين من بعده، وفهم الراسخين في العلم وعقيدة الجمهور من المسلمين، ولا تنساق في التيَّارات السياسية والاتجاهات المرتَجَلة، أو تكون مجرَّد ردّ فعل في مواجهةِ أوضاعٍ محليّة، أو مجرّد وعود لإقامة حكومة إسلامية، أو سيادة سياسية، وعرضٍ لإمكانياتها، فيرحِّب الناس بها، ويتحمَّس الشباب في الدفاع عنها، بصرف النظر عن عقيدةِ قادة هذه الحركة وانحرافاتهم عن العقائد الإسلامية المجْمَع عليها، بل محاربة لها أو ثورة عليها في بعض الأحيان.

ذلك لأنَّ العقيدة في الحقيقة هي النهر الجاري المتّجِهُ إلى الجهة الكريمة السليمة الدائمة، لم ينقطع ماؤه ولا جريانه على الخطّ السليم، أما الموجات التي ترتفع وترسب، والمجاري التي تأتي وتذهب، فلا ثقة بها ولا عمدة عليها، فقد يكون ذلك في الصّباح ويذهب في المساء، والذي دَرَس التاريخ الإسلاميَ دراسةً عميقةً محايدةً، يعرف أنه كانت هناك تيّارات على مدّ التاريخ الإسلامي كانت فيها جاذبيّةٌ وسحر، وكانت لها جولةٌ وصولةٌ، وكانت رمزاً للتنوُّر، ورمزاً «للعقلانية»، ورمزاً للتفكير الحُرّ، وكان كثيرٌ من الشباب يتمجَّد ويتنبَّل باحتضانها والدفاع عنها كـ «موضة» عصرية، وشعار للتنوُّر والوعي، ثم ذهب ذلك أدراج الرياح وطُوِي في صفحات التاريخ، لا ينتبه لها ولا يعرفها إلاّ المتتبّع لتاريخ علم الكلام والعقائد والحركات الفكرية.

والمعيار الثاني: أن تتصف هذه الصحوة بشيء من التوسُّع والتعمّق في الدراسة الدينية، وفي فهم الكتاب والسنّة، ويرافقها ويقترن بها الوعي المدني، وفهم القضايا المُعاصرة والحركات والتّيارات العاملة النشيطة، وموقفها من الإسلام، وأثرها في الحياة، وخطرها على مستقبل هذا الدين والجيل الإسلامي، والاطّلاع على أهداف القيادات التي تريد أن تسيطر على

هذه البلاد والبيئات وتتسلّم زِمامَ توجيهِ المجتمع وَفق عقائدِها وقِيَمهـا ومُثُلِها، وسبـك الحياة سبكـاً جديـداً، فإنَّ التغـاضي عن هذه القـوّات، والـطاقـات، والحـركات والقيـادات، وانطواء الجمـاعات الإِسـلامية على نفسهـا، معتمدةً على تمسّكهـا بالـدين والدعـوة إليه، والاشتغـال بأداء الفـرائض والـواجبـات الدينية، وحياة الطُّهر والعفاف والعبادات والطاعات، يَحُول بعد مدةٍ من الزمن بينهـا وبين حريّـة العمل بـالدين، وتـطبيق أَحكامِ الشـريعة، ويضيّق الخنـاق حولَها، حتى ينطبق عليهم قول الله تعالى:

﴿ حَـتى إذا ضَـاقَـتْ عَلَيـهِمُ الأرضُ بِـمَـا رَحُبَـتْ وَضَـاقَتْ عَـلَيْهِـم أَنْفُسَهم ﴾[1].

ويعيشـون في المستقبـل تحتَ رحمـة هؤلاء المـارقين من الـدين أو المحـاربين له، والتّقنين غيـر الإِسلامي، والتـدخُّل في الشـريعة الإِسـلامية، وقانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين، وتحت مبدأ المجتمع الغـربي المسيحي الذي يقول: (إنَّ الدينَ قضيةٌ شخصيةٌ، وقضيةٌ بين الفرد والخالق، لا شأن له بالحياة والتشريع والسياسة).

معـذرتي إلى لفيف من الإِخوان الـذين يَرَون أن لا داعي إلى الـوعي، ولا داعي إلى التـطبيق بين الصحوة الإِسـلامية وبين واقـع الحياة وقضـايـاهـا الشاغلة للعقول والمؤثِّرة في تشكيل المجتمع ونظام التربية ومنهج التفكير.

وقـد نشأ في بعض البـلاد الإِسلاميـة رجال متحمِّسـون قد أهملوا هـذا الجانب، وقالوا: لا داعيَ إلى العناية بالقضايا المحيـطة بنا، الشـاغلةِ للعقول والنفـوس، وإلى النـظر إلى المجتمـع هـل يتَّجــه إلى الفسـاد، ويتَّجــه إلى الانحراف والتحرّر والتفسّـخ؛ أو يتّجه إلى الصـلاح والرشـاد؟، ما دمنـا نحن نصلّي ونصوم!، فالحمد لله على ما أنعم بـه علينا من نعمـة الإِسلام والعمـل بـأحكامـه، فليس هذا بـالفهم الصحيح لـلإِسلام، فـلا بُـدَّ من تنميـة الـوعي

(١) سورة التوبة، الآية ١١٨.

الصحيح وتربيته، والفهم للحقائق والقضايا، والتمييز بين الصديق والعدو، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر، حتى لا تكرّر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية، والنَّعَرات القومية، أو العصبيات اللغوية والسلالية، والإقليمية، ولعبة القيادات الداهية والمؤامرات الأجنبية، فتذهب ضحيّة سذاجتها وضعفها في الوعي الديني والعقل الإيماني، وتذهب جهودُ تكوينِ الجوِّ الإسلامي ومحاولات تطبيق الشريعة والنظام الإسلامي سُدًى، أو تتعرض لخطرِ تطبيقِ النظام العلماني والتحرّر و«التقدّمية» الغربية، المقبولة في العصر الحاضر والمطلوبة من الجماهير التي لم تتلقَّ تربية إسلامية، ونشأت في ظلال نظام التربية الغربي، الذي طبَّقه الحكم الأجنبي الطويل (الذي يسمى «الاستعمار»)، وتحت تأثير وسائل الإبلاغ المسلّية الماجنة[1].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هكذا، فقد كانوا لا يَخدَعون ولا يُخدَعون، فأما أنهم لم يكونوا يخدعون فهو معلوم بالبداهة - وحاشاهم عن ذلك - ولكن كثيراً منّا لا يعرف أنهم كانوا لا يُخْدَعون، فقد كانوا واعين متيقّظين لم تكن عقولهم ونفوسهم تسيغ شيئاً لا يتّفق مع روح الدين وتعاليمه، ولا يقعون فريسةً للمغالطات والمظاهرات الخلّابة والهتافات المُغْرِية.

وأكبرُ دليل على ذلك، والمثلُ الأعلى أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الذي كانوا يؤمنون بأنه النبيّ المعصوم ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوى إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحى ﴾[2]، والذي كان أحبَّ إليهم من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم،

---

(١) وقد ظهرت هذه الحقيقة جليّةً في نتائج الانتخابات والتصويت الحالية (في شهر نوفمبر ١٩٨٨ م) في باكستان، البلد الذي قام على اسم الإسلام وتطبيق نظامه، وإثبات نجاح هذه التجربة للعالم، فكانت النتائج بالعكس، دليلاً على انتصار التقدُّميين وهُواةِ التحرّر من قيود الشريعة والنظام الإسلامي، على المُنادين بالنظام الإسلامي ونفاذه، والمتقيدين بالتعاليم الإسلامية، حتى أفضى ذلك إلى تولية امرأة متحررة على كبرى المملكات الإسلامية لأول مرة في تاريخ الإسلام الطويل، ذلك مع وجود آلافٍ من العلماء، ومئات من المدارس الدينية، وعدد كبير من الجماعات الإسلامية الدعوية في باكستان.

(٢) سورة النجم، الآية ٣.

وما عرف التاريخ جيلاً بشرياً أكثر احتراماً وإجلالاً لداعٍ أو نبيّ ـ مع مراعاة الحدود والتجنّب عن التأليه والتقديس اللائق بالإلٰه الواحد القهار ـ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال مرة: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» وكان ذلك من أمثال الجاهلية السائرة (كما قال كبارُ الشارحين للحديث)، وكان ذلك من الأعراف الجاهلية السائدة، فيقول الشاعر الحماسي مادحاً لبني مازن:

لَا يَسْأَلونَ أخاهم حينَ يندبُهم في النَّائِبَاتِ على ما قال برهانا

رغماً عن كل ذلك لم يملك الصحابة الحاضرون أنفسهم، فقال أحدهم: (يا رسول الله، هذا نصرتُه مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟)، ولم يُبْدِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك استياءاً أو استنكاراً، بل قال في هدوء ورضا: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إيّاه»[1].

وقد وَصَفَ رسول الله ﷺ المسلم ـ وبالطبع المجتمع الإسلامي السليم ـ بما يدلُّ على وعيه وتفرّسه، فقال: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ مِنْ جُحْرٍ مرَّتين»[2]، وقال: «اتَّقوا فراسةَ المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[3]، وهكذا يجب أن يكون المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان، لا يَخْدع ولا يُخْدع، ولا يُلدَغ من جُحْرٍ مرَّةً بعد مرة.

ومن عبر التاريخ المتكرّرة ودروسه التي يجب أن ينتفع بها، أنَّ حركاتٍ إصلاحية جذرية قامت لإزالة الجمود الطارىء على العقول والتفكير والحياة، وإزالة الطحلب[4] عن سطح ماء النهر الإسلامي الجاري، والقضاء على التقيّد ببعض التقاليد العُرفية، ومقاييسها ومطالبها التي ما أنزل الله بها من سلطان، قامت لتحريك العقول والطّاقات في المجتمع الإسلامي لفهم قضايا

---

(١) حديث متفق عليه.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده.
(٣) الجامع الصحيح للبخاري.
(٤) الطحلب خضرة تعلو الماء المُزمن.

العصر وتحقيق متطلّباته الصحيحة المقبولة، ومسايرة العصر، بل قيادته قيادةً صالحة رشيدة، والبرهنة على صلاحيةِ الإسلام لقيادة كل عصر وحلٍّ مشكلاته وقدرته على إجابة كل سؤال، ومواجهةِ كلِ تَحَدٍّ.

من عِبَر التاريخ أنَّ كثيراً من هذه الحركات الإصلاحية الجذرية ـ ولا أقول الثورية ـ وقعت على مرّ الزمن فريسةَ الجمود والركود اللذين نشأت لمحاربتهما، وأصبحت أسيرةَ منهجها الأول الذي كان مطابقاً لوضع العصر الذي نشأت فيه، محقّقاً لمتطلّبات حركة إصلاحية في إطار خاص محدود، وتمسَّكت بالخطوط والحدود التي رسمها قادة هذه الحركة في الماضي عن إخلاص ووعي، إجابةً لنداء العصر، وتطبيقاً لما أنبأ به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «يَحمِلُ هذا العلم من كل خَلَفٍ عدولُه يَنْفونَ عنه تحريفَ الغالِين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين»[1]، وتمسّكت بهذه الخطوط والحدود تَمَسُّكَ النَّاسِ بالمنصوص القطعي الذي لا يقبل حذفاً ولا زيادةً، ولا مرونة ولا توسّعاً، وسيطر على العاملين في مجال هذه الدعوة والحركة، الركودُ الفكري والتطرّف في بعض الأحيان، وأُلحوا على منهجهم كنصوص الشريعة القطعيّة، والآيات القرآنية.

وقد كان ذلك لأنَّ هذه الحركة قد فقدت عُنصر النموِّ والقدرة على استعراض المحيط، وطبيعة العصر وقضاياه الطريفة المتجدّدة، والقدرة على التطبيق بين المنهج الإصلاحي وواقع الحياة ومتطلّباته، ومن الحقائق أنَّ الإسلام استطاعَ أن يساير كل زمن ويُثبت جدارته لقيادة المجتمع البشري والتطبيق بين تعاليمه وحاجاتِ العصر، لوجودِ العلماء والقادة الذين لم يفقدوا ـ قط ـ النُموَّ الفكري، والذكاء الممتاز والقدرة على الاجتهاد، واستنباط الأحكام من الأصول الدينية، ومصادر الشريعة الأولى في كل زمان، ومواجهة كل تحدٍّ في عصرهم ومصرهم، وتحقيق كل ما يطلبه الزمان وتحتاج إليه الأمة، بقدرة فائقةٍ، وعبقريةٍ باهرةٍ، ولم يغمضوا عيونهم عن واقع

---

(١) مشكاة المصابيح (الفصل الثاني).

الحياة، ولم يصمّوا آذانهم على نداء العصر وطلبه، فبقي هذا الدين حيّاً خالداً، مقبولاً سائغاً، قادراً على قيادة المجتمع وترشيده وتسييره في دائرةِ الإسلام على الخطّ السليم، والصراط المستقيم[1].

والمعيار والشرط الثالث، أن لا تكون هذه الحركة سلبيَّةً محضةً تُسْرِع إلى مجابهة الحكومات والطاقات ذاتِ القوى والوسائل، وتحدِثُ لها مشكلاتٍ وعراقيل في الخطوة الأولى، فتضيِّعُ بذلك كثيراً من طاقاتها وأوقاتها، وتنشىء لها أعداء، وقد تجاهد في غير جهاد، وفي غير عدوّ، بل يجب أن تكون إيجابيةً أكثر منها سلبية، وتفضِّل العملَ بمبدأ إيصال الإيمان إلى أصحاب الكراسي وحملهم راية الإسلام، وتطبيق النظام الإسلامي بأنفسهم، على مبدأ إيصال أصحاب الإيمان وأعضاء حركة إصلاحية خاصّة إلى الكراسي، واحتكار عمل تطبيق النظام الإسلامي وقلب أوضاع المجتمع، لأفراد جماعةٍ خاصة ودعاةٍ مخصوصين.

ولم أجد في دراستي لتاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام، مجهوداً تحقَّقَ له من النجاح، ومصلحاً تمكَّن من قلب الأوضاع، وتغيير مجرى التاريخ وإرغامه على أن ينحو نحواً جديداً، مثل ما تحقّق للإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي[2] (م ١٠٣٤ هـ) وهنا مقتطف من كتاب صاحب المحاضرة «ربَّانية لا رهبانية»:

(قد اتّجهت حكومة السلطان جلال الدين أكبر في الهند إلى اللادينية والإلحاد اتجاهاً سافراً، وأراد أكبر ـ وكان من أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند وأقواهم ـ أن يطمس على معالم الإسلام وملامحه الواضحة وميزاته البارزة، بجميع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات، وقد اجتمع عنده جمعٌ من

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى مقدمة كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول للمؤلف، «الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد، واتصالهما في تاريخ الإسلام» (ص/١١ ـ ٢٦).

(٢) ليرجع للتفصيل إلى الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الخاص بالإمام السرهندي، طبع دار القلم ـ الكويت.

الأذكياء وذوي الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطل، ولم يكن هناك ضعف أو هرم في الدولة يشير إلى زوالها، أو يدل على ثورة يتأجّج أوارها، وكان العلم والمنطق، والقياس الظاهر، لم يكن يصدّق أنه سيقع هناك تغيير سارّ أو تحوّل بارز في الحكومة والشعب.

هنالك قيَّضَ الله أحدَ عباده للإصلاح والتجديد، فحمل رايةَ الثورة بمفرده، وبدأ في ثورةٍ داخليةٍ بقوةِ إيمانه ويقينِه، وعزمِه وتوكله، وروحانيته وإخلاصه، حتى أصبح كل وارث للحكم المغولي أحسن من سابقه، ثم تربَّع أخيراً على هذا العرش السلطان محيي الدين «أورنك زيب عالمكير» الملك الفاضل الصالح المجاهد المسلم الغيور الذي يندر نظيره في تاريخ الحكومات الإسلامية، وكان رائدَ هذه الثورة المباركة إمامُ الطريقة المجدّدية الشيخ أحمد السرهندي[1].

وذلك لإيثاره الإيجابية على السلبية، وإثارة روح الحَمِيَّة الإسلامية، وتحريك الإيمان، في المتسلّم لزمام الحكومة ومن حوله من الوزراء ورجال البلاط، وإقناعهم بأنه لا يطمح إلى السيطرة والسيادة، بل لا يحلم بذلك في المنام، ولا من حوله من تلاميذه وأبنائه، وإنما يريد أن تكتب لهم السعادة في حماية الإسلام وتطبيق أحكامه وحماية البلاد ـ التي فتحها آباؤهم لبسط سيطرة الإسلام، وأراقوا في ذلك دماءهم الزكية ـ من خطر سيطرة البرهمية، والفلسفة الهندوكية، والحضارة الجاهلية، فاقتنعوا بذلك وتحوَّل اتجاههم من محاربة الإسلام وطمسِ معالمه، إلى حماية الإسلام ومحو آثار سيطرة البرهمية والوثنية التي بدَت من زمن السلطان جلال الدين أكبر.

إنَّ «أكبر» كان حرّم ذبح البقرة ـ لأنَّ الهنادك يعبدونها ويقدّسونها ـ واعتبرها جريمةً يُعاقب عليها من يقترفها عقاباً شديداً، وأحلَّ لحم الخنزير، وبالعكس من ذلك لما فتح ابنه السلطان نور الدين جهانكير ـ الذي تأثّر

(١) «ربانية لا رهبانية» ص/١٣٧ ـ ١٣٨، واقرأ رسالة المؤلف «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوّراتها».

بـإخلاص الإمـام السرهنـدي وحظي بصحبته فتـرة من الزمن ـ قلعـة كـانكـره (Cangra) التي كـانت قـد استعصت على الفـاتحين المسلمين ـ وكـان ذلـك الفتح على يد قائدٍ هندوكي ـ لما دخل جهانكير في هذه القلعـة، كان أول مـا أمـر به هـو بناء مسجـدٍ فيها وذبـحُ بقرة، وبـذلك يعـرف الفرق الشـاسـع في سياسته وسياسة والده ونفسيتهما وسلوكهما.

والعنصـر الرابـع: هـو أن يتّصف قـادةُ الصَّحـوة الإسـلاميـة بشيء من العزوف عن المناصب والرئاسات والحياة الـرغيدة النـاعمة، ومنـافسة أربـاب المنـاصب والجاه في مـا وسَّع الله عليهم في الـدنيا، ويتّسمـون بسمة الزهد والقناعة والتوكّل ـ حسب طاقتهم وفي الحدود الشرعية من غير رهبانيـة وغلوّ ـ على قَدَمِ السلف الصالح وأصحاب العزيمة.

وهنا أنقل ما قلتُه في تـرجمة الإمـام أحمد بن حنبـل في كتابي «رجـال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول:

(وقَدْ رأينا الزهد والتجديد مترافِقَيْن في تاريخ الإسلام، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيّـار، وغيَّر مجـرى التاريـخ، ونفخ روحـاً جـديـدةً في المجتمـع الإسلامي أو افتتح عهداً جديـداً في تاريـخ الإسلام، وخلَّف تـراثاً خـالداً في العلم والفكر والدين، وظلّ قروناً يؤثّر في الأفكار والآراء، ويسيطر على العلم والأدب، إلّا وله نزعة في الزُّهد، وتغلُّبٌ على الشهوات، وسيطرة على المادة ورجـالها، ولعـل السرَّ في ذلـك أنَّ الـزهـدَ يُكسب الإنسـانَ قـوةَ المقـاومـة، والاعتداد بالشخصية والعقيدة، والاستهانة برجالِ المادّة، وبصرعىٰ الشهوات وأسرى المعدة، ولـذلك تـرى كثيراً من العبقـريين والنوابـغ في الأمم، كانـوا زهّـاداً في الحيـاة، متمـرِّدين على الشهـوات، بعيـدين عن الملوك والأمـراء والأغنيـاء في زمـانهم، ولأنَّ الـزُّهـد يثيـر في النفس كـوامن القـوة، ويشعـلُ المواهبَ ويلهبُ الروحَ، والدَّعَة أو الـرخاوة تُبَلِّدُ الحسَّ، وتنيمُ النفسَ وتميتُ القلبَ.

وهنـاك تعليلات أخـرى يـوافق عليهـا علم النفس وعلم الأخـلاق، ولا

أطيل بذكرها، وأقتصر على هذه الملاحظة التاريخية، وأُلحُّ على أنَّ منصب التجديد والبعث الجديد يتطّلب لا محالة زهداً وترفعاً عن المطامع وسفساف الأمور، ويأبىٰ الاندفاع إلى التيارات، ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخيّة، والعيشة الباذخة الثريّة، إنما هو خلافةٌ للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: وقد قيل له: ﴿ ولا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعنَا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهُم فيه ورِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وَأَبْقَى ﴾[1]، وأمِر بأن يقول لأزواجه: ﴿ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَميلاً ﴾[2]، وهذه سُنَّة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم، ومن يرشِّح نفسَه ويمنّيها بهذا المنصب الخطير، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْديلاً ﴾)[3].

والعنصر الخامس: أن يقترن نشاط هذه الصحوة بروح التضحية والبطولةِ، والجَلَادة والتقشُّف، والقدرة على المغامرات ـ إن كان لا بدّ منها ـ فإنَّ الناس ما زالوا مفطورين على تقدير الإيمان القوي والعزّة وروح المخاطرة، وعلى الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم، وتاريخ الإسلام مليء بالبطولات والمغامرات ووجود هذا الفراغ ـ عدم وجود روح التضحية والبطولة، والاعتداد بالإيمان والشخصية الإسلامية، والدعوة الإيمانية ـ خطرٌ كبير على الدعوات الصحيحة والصحوة الإسلامية، يسبّب ذلك نشوءَ حركةٍ منحرفةٍ زائفةٍ، فاسدةِ العقيدة والمنهج، سلبيّة هادمة مدمِّرة، يكون لها سحرٌ على النفوس، لا يبطله وعظ واعظ، أو مقالٌ كاتب، أو استدلال منطقي، أو بحث علمي، يشهد بذلك تاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية، التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة، أو باسم الإسلام والإصلاح، كذباً وزوراً أحياناً كثيرة، والسيل لا يمسكه إلاّ سيل مثله، والتيار لا يدفعه إلاّ تيّار أقوى

---

(١) سورة الحجر، الآية ٨٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢٨.

(٣) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ١/١٠٥.

منه، والباطل القوي لا يقاومه إلا الحق القوي، وعدمُ وجودِ روح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة والأهداف الصالحة، يمهِّد الطريق للوقوع في شبكة الدعوات المنحرفة الزائفةِ، فقد بلغ التذمُّر من الأوضاع الفاسدة، وتغلُّب النظم الجائرة نهايته، ومن لم يجد ماءاً زُلالاً سائغاً أروى ظمأهُ من الماء الفاسدِ العَكِر ـ وصدق الله العظيم.

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[1].

مؤتمر «رسالة الإنسانية» في حيدر آباد:

كان اجتماع حيدر آباد حلقةً من سلسلة الاجتماعات واللقاءات والحوارات التي عُقدت في مختلف مدن الهند على مستويات مختلفة باسم «رسالة الإنسانية»، وكان أنجح هذه الاجتماعات بنسبة الحضور، وحُسن الانتخاب، وتمثّل الديانات المختلفة.

وقد امتازَ هذا الاجتماع الذي انقسم إلى جلستين: جلسة خاصة يحضرها القادة، والزعماء والمُفكّرون، والصحفيون، والأدباء، والمثقفون، وأساتذة الجامعات، والمدارس، ورجال القانون، وُجِّهت الدعوةُ إليهم بصفةٍ خاصة، وتمَّ انتخابهم من مختلف مراكز العمل، وكان فيهم كبار المسؤولين من قَطّاع أجهزة الأمن والإعلام، والخدمات الاجتماعية، وعدد من زعماء الحركات التي عُرفت بعدائها للمسلمين، لإتاحتهم فرصة الاستماع إلى حديث في موضوع هو في صالح البلاد، بل في صميم مستقبل المجتمع الهندي، من الرجل الذي لا يعتبر شخصيةً سياسيةً، أو شخصية منحازةً إلى حزب، أو منظمة، فاجتمعت نُخبَةٌ ممتازة، كان فيهم المحامون، وضُبّاط الشرطة، والمديرون في الإعلام، والتعليم والتربية، ورؤساء الأحزاب من مختلف الطوائف، والأديان والمذاهب، وترأَّس الاجتماع الأول الذي كان اجتماعاً مشتركاً، القاضي راما سوامي رئيس قضاة المحكمة العالية بآندهرابراديش.

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

الجلسة الأولى لمؤتمر «رسالة الإنسانية» في ٢٩/ديسمبر ١٩٨٨ م:

انعقدت هذه الجلسة المشتركة في قاعةِ المؤتمرات لفندق سُرُوَر (Sarovar) بحيدر آباد في الساعة السادسة مساءاً، وكانت الدعوة لهذا الاجتماع قد وُجِّهَت إلى عدد وجيه من المُثقَّفين، والزعماء، والمسؤولين في حيدر آباد، والمدن المجاورة، فاشترك فيه مندوبون من دِلْهي، ولكهنؤ، وأورنك آباد، وإندور، وبومبائي، وناجبور، ونانديز، ومدن أخرى، وكان الحضور خاصاً بمن وُجِّهت إليه الدعوة، وقد زُيِّنَت القاعة بلافتاتٍ، تدعو إلى حلِّ المشكلات والنزاعات بالحُبّ والمودّة، واتّباع المُثُل الخلقية في الهند في لغات مختلفة.

افتُتح الاجتماع الأول بكلمة ترحيب للسيد جميل الدين أحمد، أحد كبار المحامين الخُبراء في قضايا ضريبة الدَّخْل في حيدر آباد، وأحد العاملين البارزين في الخدمات الاجتماعية، وهو الذي كان قد نظَّم هذا المؤتمر وكان له دَورٌ ملموس في إنجاحه، بصلاته الوثيقة بكبار المثقفين من مختلف الطوائف، ورحَّب السيد جميل الدين في كلمته بالضيوف، وقام بتعريفٍ موجز لرسالة الإنسانية، ثمَّ ألقى الضوء على الأوضاع الراهنة في البلاد التي دعتني إلى التفكير في القيام بهذه الرسالة والدعوة، وأشار إلى مؤلفاتي واشتراكي في المنابر الدولية ومسؤولياتي وهدفي من إنشاء هذه الحركة.

وبعد كلمة السيد جميل الدين تحدَّث الشيخ عبد الكريم باريكهـ، أحد العلماء البارزين المعروف بدروسه في تفسير القرآن الكريم، في ناجبور، وشرح الشيخ عبد الكريم باريكهـ في كلمته الوجيزة موقف الإنسان ومسؤولياته في الحياة في ضوء القرآن الكريم.

كلمتي في هذه الحفلة:

وخلاصة كلمتي التي ألقيتُها كداعٍ وحاملٍ لرسالة الإنسانية:

(إن لكل إنسانٍ في هذه الحياة دَارَيْن، دارٌ يسكنها هو وأعضاء أسرته، ويحرص كل إنسان على أن تكون هذه الدار التي يسكنها مأمونة، وأن يعيش

فيهـا بسلام، ويحـرص على إيجاد جوّ المـودّة، والأخـوّة، والهـدوء والأمن، والثقة بين القاطنين فيها، وهي دَارُه الصغيرة ومأواه، وهدوء هـذه الدار وأمنهـا حاجةُ كل من يسكنها.

وهنـاك دار أخرى أيضـاً وهي أكبر من هـذه الدار، وهي البـلاد، ونحن ننسى في غالب الأحوال أنَّ هاتين الدارين كلتاهما لنا، إحداهما صغيرة مهمـا كانت رحبةً وقائمةً على مساحة كبيرة، فإنها صغيرة بـالنسبة للبـلاد التي تعيش فيهـا أُسَرٌ كثيـرة لا تُعَدّ ولا تحصى، ويعيش فيهـا المواطنـون الـذين يشكلون أسراً كثيرةً كل أسرةٍ منها كأسرتنا، وتـرتبط مصلحة كـل دارٍ صغيرة بمصلحـة الـدار الكبـرى، والـواقـع أنَّ مصلحَـة الـدارِ الكبـرى، أي البـلاد، لا تـرتبط بمصلحـةِ الـدار الصغيـرة الشخصيـة مثلمـا تـرتبط مصلحـةُ الـدار الصغــرى بمصلحة الدارِ الكبرى، وإذا كانت الدار الكبرى هادئةً يعيش فيها المواطنـون مطمئنّين، ويسودُها الأمنُ والسلام، والثقة المتبادلـةُ، ويرعى سكـانُها حقـوق إخوانهم الآخرين، ويحـرِصون على سـلامتهم فإنَّ هـذه الدار تُعتبـرُ سعيدةً، والحياة فيها حلوة، وهي مأمونة من كل خطر، وما دامت هـذه الدار مـأمونـة، يعيش فيها الناس مطمئنّين، كان الدار الصغرى مأمونة، ومصونةً من كل خطر.

هذه حقيقة لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح، ولكن تغيب هـذه الحقيقة عن أذهاننا أحياناً، فيتغلَّب التفكير الذاتي على التفكيـر الاجتماعي، ويحسب النـاس دُورهم الصغـرى التي لا تسـاوي بـالنسبة للدار الكبــرى إلاّ جـزءاً صغيراً، وهي كالأكواخ الصغيرة أو العشش مهما كَبُرَت، أنها عالمهم فيركّزون جهـودهم على تحسينها وتـأمين سلامتهـا، ويربـطون مصلحتَهم وحـظَّهم كُلَّه بـأسرتهم في هـذه الدار الصغيـرة، ويُعرضـون عن الدار الكبـرى، والمجتمع الأكبر ويغضّون بصرهم عنها، وينسى هؤلاء النـاس أنَّ العواصفَ الهـوجاء إذا هبَّت خارج الدار الصغـرى، أو إذا شبَّ حريق، واشتعلت نيـرانه، وانتشـرت لفحـاته، أو إذا تعـرضت المنـطقـة التي تقـع فيهـا الـدار الصغيـرة للفيضـان الجارف، فإن هذه الدار الصغـرى مهما كـانت مُشيَّدة بـالحجر أو القـرميد لن تبقى مأمونة من النار، أو السيل أو الرياح العاصفـة، ومهما روعيت في بنـائها

دقة البناء، وروعةُ الفن، ومهما استعملت فيها أسلاك الحديد، وأطيلت جدرانها، فإنَّ هذه الدار تصبح عُرْضةً للدمار، ولا تستطيع أن تقفَ في مكانٍ بنَجْوَةٍ من الخطر.

كذلك إذا كان سُكّان هذه الدار الصغيرة يعيشون بأمنٍ وسلام وثقةٍ واحترام، فيما بينهم فإنَّ نار الكراهية والحقد، والصراع، وسوء التفاهم والعداوة التي تجتاح خارج الدار في المنطقة التي تقع فيها الدار، ستؤثّر على هدوء هذه الدار الصغيرة، لأنَّ الأوبئة التي تنتشر في أيِّ منطقةٍ وتلوِّث الغذاء والماء، تؤثِّر على كل دار في المنطقة، وتجعل حياة السُكّان في داخل الدار الصغيرة في خطر، لأنَّ الرياح تحمل السموم، وتؤثِّر على جوٍّ كل دار.

إنَّ فساد أي مجتمع، وغض البصر عن مبادىء الأخلاق، والشَّرَه، وحبّ المال والظلم والاستيلاء، لا يقتصر تأثيره على فردٍ أو أفراد يرتكبونه، وإنما يتعدّى إلى المجتمع بكامله، وكل مجتمع يغضّ بصرَه عن هؤلاء الأفراد الذينَ يرتكبون هذه الجرائم، يتعرّض لأخطار هذه الجرائم.

إننا ندرس في التاريخ حضاراتٍ وثقافاتٍ ازدهرت طويلاً، ثم سقطت واندثرت عندما عمَّت فيها الفوضى الخُلقية، وغلب الشره وحبّ المال، وأهينت كرامةُ الإنسان، وانصرف الناس إلى إشباع النفس، وتحقيق المصالح الذاتية، وهجرت تعاليم الأديان والقِيَم الخُلقية، وبدأ الناس يسخرون منها.

كانت روما تحترق في الوقت الذي كان الفلاسفة والأدباء والشعراء عاكفين على البحث والتحقيق والإنتاج، ويسحرون مجتمعهم بأعمالهم، ولكن الجسم كان فاسداً، وكان الفساد قد عمَّ الأسواق والشوارع، وكانت العائلات الصغيرة والكبيرة تعاني من الفساد، وكان الصراع قائماً بين الطبقات، وكان الإنسان عُرْضةً للفساد، والظلم، فلما هبَّت عاصفةُ النار لم تنج الإمبراطورية الرومية التي فاقت في فتوحاتها وعمرانها وحضارتها، ومستوى معيشة مواطنيها، وكان يُضْرَب بها المثل، لم تَنْجُ من تأثير هذا الفساد، وكانت صورةً حيّة لما وصف القرآن الكريم:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَـةٍ بَطِرَتْ مَعيشَتَهـا، فتلك مُسَاكِنُهم لَمْ تُسْكَن من بعدهِمْ إلاّ قليلاً، وكنّا نحن الوارثين ﴾)[1].

وأضفت إلى ذلك بقولي: (إننا في الهند نعيش اليوم مُعْرِضين عن هـذه الحقيقة، فلا نفكّـر إلاّ في مصحلتنا الـذاتية، وفي مصلحـة أنفسنا، ودارنـا، وأسرتنا، إنَّ وباء العصر الكبير يكمن في ضخامـة المصلحة الـذاتية لكـل فرد وهو ما وصفه المصلحون الربّانيون بتعبير: «نفسي، نفسي» فتفاقمت الأنانيات وغطّت جميع الاعتبارات الخلقية والمصالح القومية، والـوطنية، ويجْتـاح تيار المصلحة فلا يشغل أحداً فكـر إلاّ فكر مـوارده، والزيـادة فيها بـأي طريقٍ من الطرق.

إنَّ نجاح أيّ شخص في مجهوده لتحسين داره، وتحـويلها إلى حـديقة غنّاء، وجعلها بيئة مثالية، لا يغنيه شيئاً إذا بقيت البيئة التي تحيط بها موبوءةً، فإنَّ الجُزر لا تكون إلاّ في البحر وتبقى هذه الجزر قروناً، ولكن لا تقع الجزر في البـرّ، وليس لها وجـود، ولكننا جعلنـا دورنا جـزراً بريّـة، وجعلنا أسـرنـا وقبائلنا جزراً بريّة، إنَّ هذه الجزر لا تستطيع أن تبقى.

إنَّ الحياةَ سِلْسلة مُتّصلة الحلقات، ويرتبط حظّ كلُّ فـردٍ بالآخـر، وكل شخص منا سائل ومسؤول في وقت واحد، ومحتاج ومطلوب في وقت واحـد، وقد وصفت الفلسفة الشرقية القديمة الإنسانَ بأنـه مدنيّ الـطبع، وهـو محتاج إلى حياة ومعاشرة مَدَنية، ويرتبط كل فرد بغيره، يُسَرُّ بسروره ويحزن بحزنه.

إنَّ أكبر حاجةٍ في هذا العصر، وهي خلاصة «حركـة رسالـة الإنسانيـة» أن نفكّـر في دارِنا الكبـرى ولا نَقع في خـداع أنّنا آمنـون، ونعيش حياةَ هدوءٍ وسلامة، حياةَ المبادىء والأخلاق، فلا نحتاج إلى أن ننظر إلى ما يقع خـارج دارنا).

وأعربتُ في النهاية عن أسفي بأنَّ الهندَ بلدٌ عظيم، متـرامي الأطراف،

---

(١) سورة القصص، الآية ٥٨.

بلد الحضارات والديانات، والفلاسفة والمفكّرين والسّاسة، والمُدبّرين، ولكن لا ينهض رجلٌ واحد اليوم من المُثقّفين والأدباء والحكماء والقادة ورجال الخدمات الاجتماعية ـ وعددهم كبير ـ بهذا الفكر لبناء خُلُق الإنسان، فلا يهم أحداً أين تَتّجه هذه البلاد، وقد بلغ السَّيلُ الزُّبَى، وهل يتصور فسادٌ أكبر من تلويث الأدوية التي تستعمل لوقاية الحياة، وقد سمعت أحد وزراء الصحة يقول: إن ستّين في المائة من الأدوية ممزوجة، كذلك المحسوبية والرشوة، والتسيّب، واللامبالاة والاتزار وأمراض اجتماعية عمّت في هذه البلاد ولا تخلو منها المستشفيات، ودُور الصحة، والتعليم، والمؤسسات الإنسانية، فكيف تسير هذه البلاد؟ وكيف تجري الحياة؟

وذكرت مسؤولية المسلمين وأعربتُ عن أسفي بأنَّ المسلمين كانوا مُقصِّرين في هذا المجال بإعراضهم عن تأدية واجبهم إزاءَ بناءِ الإنسان، وتقديم أسوةٍ خلقية، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث قدسي: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمْكم من في السماء».

وختمت كلمتي بقولي: (إننا مسؤولون عند الله يوم القيامة عن هذا التقصير، فتعود إلى المسلمين مسؤولية إنقاذ البلاد، لأنَّ هذه السفينة إذا غرقت غرق بها المسلمون وغير المسلمين، ولكني رغم ذلك متفائل، ولا أقنط من رحمة الله، فإنَّ البلادَ نامت ولكن لم تمت، والنائم يوقظ، أما الميّت فلا أمل في حياته وانتعاشه، ولكن يجب أن تكون للنوم نهاية، وأن تتلوه صحوة، فحاجتنا الماسة اليوم إيقاظُ هذا المجتمع النائم، ولذلك أبذل سعيي المتواضع لإيقاظ المجتمع، فأرفع صوتي الضعيف وآمل أن يُصغى إلى هذا الصوت الضعيف الذي لا يشكل إلّا رنيناً في الصحراء).

زعماء الحركات الهندوكية يعربون
عن تقديرهم:

وبعد انتهاء الاجتماع الذي استغرق ساعتين جَرَت لقاءاتٌ شخصية،

اجتمع فيها عدد من كبار المحاميين، وأصحاب الأقلام والصّحفيين البارزين، وزعماء عدة أحزاب اجتماعية ومُنظمـات، ومعظمهم من الأغلبيـة الهندوكيـة، وكـان من بينهم زعيم وشـوبـريشـد، وهي التي تقـود الحملة ضـد المسجـد البابري، وزعيم هندو مهاسبها، وهي أيضاً من الأحـزاب الهندوكيـة المعاديـة للمسلمين، وأعربوا عن تقديرهم، وأبدوا قلقهم لتدهـور الأوضاع الاجتمـاعية في البـلاد، وقال زعيم حـركـة هنـدو مهـاسبهـا: إنَّ هـذه الـدعـوة دعـوة إلى الانسجام الطائفي، وإقرارُ المُثُل الخلقيـة، وكرامـة الإنسان ولا يختلف أحـدٌ عنهـا، وهي دعوة هجـرها قـادة البلاد، والمجتمـع الهندي في أشـدّ الحاجـة إليها، لمنع البلاد من زيادة التفرُّق والتمزُّق، ومنع مختلف أفراد المجتمع من التناحر فيما بينهم، وسفك الدماء.

وأبدى بعض الزعماء نيّتهم بإجراء اتصال مع زعماء هذه الحركـة لتنمية هـذه الجهود، وكـان أحد هؤلاء الـزعماء يتكلم بصوت شجيّ متأثـراً بالـوضع الحَرِج الذي يعيش فيه المجتمع الهندي اليوم.

الاجتـمـاع الـعـام:

وبعد يوم من هذا اللقاء الذي اشتركت فيه فئاتٌ وطبقاتٌ مختلفة، عُقِدَ اجتماعٌ عام في «ساحة عابد» للاحتفالات الاجتماعية الفسيحـة، وحَضَر هـذا الاجتمـاع ألوفٌ من النـاس، وعددٌ وجيـه من العلماء والصحفيين، والـزعماء السياسيين، وكانَ العددُ الهائل الذي حضـر به النـاس من مناطق بعيـدة، يدلُّ على إقبال الناس على هذه الدعوة وخاصةً في منطقة حيدر آباد التي تَشْهَدُ في فتراتٍ مختلفة صـراعاتٍ سيـاسيةً وطبقيـةً ودينيةً، وقـد وقعت في نفس الفترة حوادثُ دامية في المناطق المجاورة وكان الوضـع متوتّـراً، فنالت الـدعوة إلى إقرار القِيَم الإنسانية قبولاً فوق العادة.

وتحـدَّث في الاجتماع العـام الـدكتـور اشتيـاق حسين قُـريشي، وألقىٰ الضـوء على أهميـة التعليم الـديني، ودوره في بنـاء الكيـان الخلقي وتثقيف النشء، ومنعـه من الانحـراف إلى التيّـار الـلاخلقي الأوربي، والمـاديـة

الجامحة، ثم تحدثت ودعوت إلى بذل مجهودٍ خاص في بناء الإنسان المثالي، وشرحت آية:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ القُرونِ مِنْ قَبْلِكُم أُولُو بقيّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ في الأَرْضِ إلّا قليلاً مِمَّن أَنْجَيْنَا مِنْهم، واتَّبَعَ الذين ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فيه، وَكَانُوا مُجْرِمين ﴾(١).

وقلت في كلمتي: (إنَّ المسلمين مدعوون إلى بَذْل جهدهم لمكافحةِ الفساد، ويُنْذِرُ القرآن بعاقبةٍ وخيمةٍ إذا قصَّر المسلمون في هذا الجهاد، لإنقاذ الإنسان من الفساد، وإقامة مجتمع عادل.

ولا يَتِمُّ ذلك إلّا ببناء كِيانٍ عقائدي وخلقي، واتباع الثقافة الخلقية، وقلت: إنَّ العقيدة لها دور فعال في تعيين سلوك الإنسان، وقد كان المسلمون في السابق أسوةً للناس، يهتدي بهم الناس في حياتهم، وقد انتشر الإسلام بسلوك المسلمين من السلف في مناطق شاسعة، وقلت: يجب أن يصحِّحَ المسلم سلوكه في ضوء تعاليم دينه فيومَأُ إليه بالبَنان ويقال: إنه مسلم فلا يسرق، إنه مسلم فلا يخدع، إنه مسلم فلا يكذب، ولا يتردَّد الناس في إسناد أي مسؤولية ضخمة إليه بثقتهم في سلوكه، وإنه من حق المسلمين أنْ يتقدَّموا بحُكْم دينهم لإصلاح الأوضاع في البلاد).

وتحدَّث الشيخ عبد الكريم باريكه، واستشهد من القرآن الكريم لتحديد مسؤولية الفرد في المجتمع ودور المسلمين في الحياة العامة، وشرح التعاليم الخلقية للإسلام التي يمكن أن تكون رائدةً لبناءِ مجتمعٍ عادل لمكافحة أخطار الحضارة المادّية المعاصرة.

وقال فضيلته: إنَّ المسلمين قصَّروا في شرح دينهم ومُثُلهم وإلّا لما كان ينظر إليهم بنظرة احتقار وكراهية في هذا العالم، ولا يمكن أن تتغيَّر هذه النظرة إلّا لعودتهم إلى الإسلام الصحيح.

---

(١) سورة هود، آية ١١٤.

وقبل هذه الكلمات ألقىٰ الأستاذ محمد رضوان القاسمي كلمةَ ترحيب، شَـرَح فيها أولاً أهـدافَ الاجتماع، وأهميّـة الموضـوع الذي يُعْقـد من أجله، ورحَّب بالضيوف الذين يحضرون الاجتماع[1].

* * *

(١) مقتبس من تقرير للمؤتمر في حيدر آباد كتبه الأستاذ واضح رشيد الندوي لصحيفة «الرائد» بتصرف يسير وتلخيص.

الفهارس

- فهرس أسماء الأعلام .
- فهرس أسماء الأماكن .
- فهرس الموضوعات .

فهرس أسماء الأعلام
يتضمن أسماء الأشخاص والشعوب
والجماعات والقبائل والجمعيات ونحوها

(ب)

(خ)

فهرس أسماء الأماكن
يتضمن أسماء البلاد والمناطق
والمدن والولايات والجبال ونحوها

(ب)

(ت)

(ن)

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع عشر

الفهارس